ملامح
من عبقرية الإمام

بقلم
الدكتور مهدي محبوبة

دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

www.haydarya.com

ملامح

من عبقرية الإمام

ملامح
من عبقرية الإمام (عليه السلام)

بقلم
الدكتور مهدي محبوبة

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

هدية الشهيد السعيد
السيد عز الدين بحر العلوم
لمكتبة الروضة الحيدرية

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ١٥٦٦٦
التاريخ / ١٣ / ٩ / ٢٠٠٦

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتاب العربي
بيروت

الطبعة الثانية

١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

مكتبة الروضة الحي
النجف الاشرف

منه اقتبست وإليه أُهدى

تيهان في طلب الحقيقة أرتجي		وصلي وأطلب ما تجود وتورد
ورعيت قوّة ناظريّ ومسمعي		فبها أقوم مع الوجود وأقعد
وطلبت معرفة الحياة ومالها		فإذا بكوني حائر يتردَّد
وإذا الوجود مع الوجود تضاربا		والنَّاس عن ركب الحقيقة تبعد
سبحان إشراق النُّجوم فلا النّوى		يغضي سناها والسَّماء لها يد
سبحان نورك لا تعف سناءه		حجب ولا هو في الدُّجى يتقيَّد

المؤلِّف
الدكتور مهدي محبوبه

حاز هذا الكتاب على الجائزة الثانية لمباراة دولية بين العلماء والأُدباء والمفكرين في شخصيّة الإمام عليٍّ (ع).

هدية الشهيد السعيد
السيد عز الدين بحر العلوم
مكتبة الروضة الحيدرية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لكلِّ أثر أدبي مجالان خاص وعام حسب المفهوم الفني والمفهوم العقلي. فإذا تواكب المفهومان الفنِّي والعقليّ في الإنتاج انجذبت إليه النُّفوس واشرأبَّت إليه العقول.

ونظراً لاتِّساع المعرفة وارتباط مفاهيمها وتشابكها بين العلم والأدب فمن الأَجدر بالأَديب أن يدرك الأَدب بالعلم. والعلم بالأَدب حتّى يظهر ذلك الأَثر الأَدبيّ على مستوى العصر.

فلو أردنا تناول السِّيرة العلوية للبحث والكتابة لرأيناها تتّسم بنواحٍ كثيرةٍ لا يدركها الأَديب بذوقه الفني بمقدار ما يدركها العالم بعقله وعلمه.

وبالطَّبع إنَّ الإمام ربٌّ للفصاحة والبلاغة وأول من سنَّ سننها ووضع منهجها عند العرب، ولكن لقائل أن يقول بأنَّها ظهرت لديه عرضاً لم يردها لذاتها. ولم يجل في خاطره، مجرَّد البحث فيها، وإنَّما أرادها سبباً لإرساء المعرفة وإيصال الحكمة وتوضيح الشَّريعة وتثبيت الحقّ وإزهاق الباطل.

ولذلك فإنَّ الإنتاج الفني الأدبي لا يسمو سموّاً إعجازياً لمجرَّد وجود المحسّنات اللفظيّة، والتنميق الأدبي، بل على ما انطوى عليه من المعاني الإنسانية الرفيعة، والآراء الحكيمة.

ولم يكن الأثر الأدبي مجرَّد نشوة عابرة يوحيها للقارىء وإنَّما للأثر الأدبي معانيه الهادفة الباقية في قرار النَّفس يستوحيها الخاطر، ويستنطقها العقل، وهذا

ما امتاز به الأدب العلوي الرّفيع، فكلُّه إنسانيّة وحكمة ومعرفة.

ولا يدرك الأديب مستوى العصر إلا بالعلم، ولا يصل العالم بعلمه إلى النُّفوس إلا بعرض شائق وبذوق أدبيٍّ سليم، وعلى ذلك فيلزم العالم أن يلمّ بأطراف الأدب، ولا يعطي الأديب الدّلالة في إنتاجه بدون أن يجعل للعلم أثراً وبالأخص في بحث سيرة الإمام عليٍّ (ع) الّتي كلّها ثورة في الحياة، كلّها ثورة في العلم والأدب.

وفي هذه الحال على الأديب أنْ يدرك الطَّريقة الإستنتاجية والطّريقة الإستقرائية في المعرفة وهو بغنًى عن الطّريقة الرياضيّة، وقد عرفنا أنّ الطّريقة الإستنتاجية في المعرفة هي الإيمان المطلق بالنتائج ثم أخذ المقدّمات كمسلّمات لازمة بدون مناظرة أو محاجة وهي طريقة العقائد الدّينية.

ولكنّنا لو أردنا بحث السّيرة العلويّة لرأيناها تتّسم بأرفع المعالم الدّينية، ولكنّها في مجال البحث الإستقرائي حيث يذكر الإمام دائماً المقدّمات ثم يستخلص منها النتائج واضحة جليّة محكمة الحجّة، وهذا أُسلوب واقعيٌّ استقرائي في مجال العقيدة الدّينية، وهذا ما يتمشّى وتطوُّر المفهوم البشري في كلّ زمان.

كانت الأُمم في غابر أزمانها تستوعبها العقائدالدّينية فتأخذ على أبصارها وبصائرها، ولكنّ الأمم في العصر الحاضر قد ذهبت عنها تلك النزعة الدّينية، والتمستها النَّزعة التَّحرريّة في سبيل حقّ تقرير المصير، ولم تكن أكثر الإندفاعات الطّائفية إلا سبباً من أسباب التّحرر وتقرير المصير. ولو درسنا المفهوم العقيدي الدّيني عند الإمام لرأيناه ماثلاً في مفهوم التّطوُّر والتّحرُّر، في مجال واقعي استقرائي، على جانب عظيم من مسايرة مختلف العصور، حيث أفرغ العقيدة في العدل والمساواة بمفهومها المطلق العام.

تتّسم الأديان عادة بمواسم دعائيّة ومظاهر عقيديّة، بأفراح وأحزان، باجتماعات ومواكب. وها نحن نراها في الإسلام جليّة واضحة في شهر رمضان وفي الحجّ والأعياد.

ومنذ أن أدركت الحياة أبصرت هذه المظاهر الدّينية فأخذتني إلى مظاهرها، ورفعتني إلى مثلها، وارتادت بي مختلف سبلها، وبالطّبع لقرب عهدي بالإدراك ما استوضحت الطّريق وإنّما أخذني اليقين. وهكذا يأخذ الأبناء عن الآباء. ومن

تلك المظاهر المجالس الحسينيّة وهي اجتماعات ثقافيّة شرعيّة، في ثلاثة أشهر كاملة من السّنة، وهي شهر رمضان ومحرّم وصفر عدا التماسها في كثير من أوقات السّنة.

إنّ المجالس الحسينية إسلامية في شمولها وعقيدتها، علويّة في اتّجاهها وتثقيفها، حسينية في تسميتها وعواطفها.

كنت أحضر هذه المجالس فأنال منها ما مكّنني الخطيب منه حسب مقدرته وثقافته ولكنّي كنت أحمل في طيّات نفسي هواجس تأخذني إلى الإعتقاد بأنّ ما هو مأثور عن الإمام لازم بالشيعة وملزمة به. ولم أكن لألتمس بطون الكتب ومظانّ الشّريعة عند مختلف المذاهب الإسلامية.

ثم إنّ ما دفعني لهذا الإعتقاد اتّسام الثقافة المدرسيّة بالغبن الظّاهر لعظمة هذا الإنسان، وضحالة التّثقيف المدرسي لمعالم هذا العبقري الفذ، العربي الأصل، الإسلامي النّزعة.

وفي نهاية المطاف أصبحت متشككاً بدون إرادتي في مقدرة الإمام أنْ يأتي بكلّ ما أسمعه عن المنبر، وما ينقله خطباء المجالس الحسينية، وأصبحت كإخواني المثقّفين نحمل المعرفة العلويّة كعطف ديني، ونظر رجوعي، وذكرٍ طمس الزّمن حقائقه، وأخذت العصور على سوابغه.

ولكنّي أدركت الأمر برويّة ونظر، ورأيت جلاء السّيرة العلويّة لازماً لمعرفة تراثنا العظيم، وللإفصاح عن ماضي مجدنا الإنساني والعلمي الخالد.

فجلاء معالم المرء جلاء لعقيدته وطَمْس معالم المرء طَمْس لعقيدته. فإذا طمسنا معالم الإمام فقد طمسنا معالم الإسلام.

وعلينا أن ندرك تراثنا الإسلامي على حقيقته ففي خيره خير وفي شرّه عبره.

وبما أنّ عاطفتي سبقت علمي في الإمام وبما أنّ اتساع مداركي أخذ على عاطفتي فرأيت السّبق في المعرفة والعقل أولى، لأنّ ذلك أكثر ثباتاً وأفضل إدراكاً في مجال البحث ومع تقدُّم العمر.

فالتمست المعرفة العلويّة التماس المثقّف الهويّ لا المحترف، فإذا بالآفاق تنحسر أمام عينيّ في عوالم للإمام لم أكن لأدركها، وفي فيض من زاخر علمه لم أكن لأحلم به.

لم يكن للشيعة في علمي أكثر ممّا لباقي الطّوائف الإسلاميّة في تتبُّع سيرته، بل إنَّ أمهات المصادر وأرفع البحوث وأجلَّ الآراء صادرة عن المسلمين باختلاف نحلهم. وإنَّ كثيراً من مؤلّفي الشّيعة قد أخذوا عن رواة أهل السنة والمعتزلة في إثبات فضل عليٍّ، وإنَّ كثيراً من القصص الخياليّة الّتي تسمو بالإمام سموّاً إعجازيّاً صادرة عن غير الشّيعة وبذلك أدركت أنَّ الإجماع وارد والحقيقة ماثلة عند جميع المسلمين ولم ألجأ في كتابي هذا لمصدر شيعي إلا ما قلَّ وإنَّما جلُّ مصادري عن باقي الطّوائف الإسلاميّة.

التمست الماضي بما استوعب عن الإمام فأدركته فوق الإعجاز حسب مفهومنا الثّقافي.

ثم التمست الحاضر فإذا بنظري يقع على جورج جرداق في دائرة معارفه الطيّبة الذّكر عن الإمام (صوت العدالة الإنسانية) وعبد الفتّاح مقصود في سفره القيِّم (عليُّ بن أبي طالب) وعبّاس العقّاد في كتابه (عبقريّة الإمام) وأحمد تيمور في كتابه (عليُّ بن أبي طالب) وطه حسين في كتابه (عليٌّ وبنوه). وتوفيق الفكيكي في بحثه الممتع (الرّاعي والرعيّة). وما إلى ذلك من كتب خاصّة وبحوث ملحقة كلُّها صدرت عن غير الشيعة.

استوقفني كلُّ ذلك حائراً في قضيّة الإسلام الكبرى قضيّة أكبر شخصية فيه بعد الرسول (ص) قضيّة الإمام عليٍّ (ع).

قضية الحرب الدائبة الدّائمة من قبل الحكومات الإسلاميّة المتعاقبة عليه وعلى من يتّسم بمبادئه ويتّجه وجهته.

بعثت هذا الموضوع واضحاً جليّاً في رسالتي هذه ومن أبرز ما أدركته أنَّ تعاليم الإمام مناهضة كلَّ المناهضة لأيّة حكومة مستبدّة فرديّة النّزعة.

ونظراً لأنَّ الحكومات المتعاقبة ارتأت الإستبداد، فاتّخذته طابعاً للخلافة الّتي مسخوها، والملكيّة الّتي أخذوا بها. التزمت تلك الحكومات بما أُوتيت من حول وقوّة بإبعاد المفهوم العلوي الإسلامي عن الجماهير والّتي بطبعها تتحرّق للحريّة، وتتوسّل بشتّى الطُّرق للوصول إليها.

ونظراً لما تتّسم به الحكومات العربيّة في حاضرنا من نزعة تحرريّة لزمها الأمر

ببعث هذا الإنسان الفريد في كلّ قلب وفي كلّ عقل، على الصعيد الإجتماعي والطّلابي في كلّ موطن عربي ليدركوا عظيم تاريخهم، وتالد إسلامهم، وحكمة إيمانهم. ويؤسفني كثيراً أنْ تمرَّ مناهجنا الدّراسيّة على تاريخ الإمام مرّ الذّاكر على مضض، والباحث على حذر.

كلُّ ما أسلفت قد أخذ موقعه من نفسي، وبعث الأمل في قلبي، واجتمعت حدوده في عقلي، وليس للمرء إلا ما أفاض وسجّل، وليس للمدرك إلا ما نشر، وليس للعالم إلا ما علم، ولكنّي رهن المحبسين بين عيادة في طبّ الأسنان ناجحة، وبين بيت وعيال وليس لهم سواي حتّى أستظهر ذلك بكلّ وقتي وهل من مزيد؟.

وبينما أنا والأفكار تراودني، والحبُّ يؤجّجني بأن أقرن اسمي باسم الإمام وبقيَمه، وإذا بالسيّد الخطيب جواد شبّر يناولني رسالة كسكرتير لجنة بعثها الخير لمقارعة القلم في الإمام (ع) وكان قوام تلك اللجنة:

سماحة الإمام الشيخ مرتضى آل ياسين.

والعالم المحقّق السيّد محمّد باقر الصّدر.

وحجّة الإسلام السيّد موسى بحر العلوم.

وبعد هذا التبليغ اندفعت في صراع نفسي حادّ بين حبّ المساهمة وبين ضيق الوقت وللمساهمة حدود زمنيّة ضيّقة (بالنّسبة لي) ولازمة. ولكنّي التمست القلم فأودعني القدر إلى حيث أريد وبمقدار ما يتّسع البحث في الإمام لسعة آفاقه يضيق بكثرة الباحثين فيه والمتتبّعين لسيرته وعلى المرء أن يأتي بجديد.

وها أنذا أُقدّم بين يدي القرّاء الأفاضل ما تمكّنت منه راجياً غضّ النّظر عمّا هفوت. والسّلام.

المؤلّف

مهدي محبوبة

المعرفةُ عند الإمام

أحاط علي بالمعرفة دون أن تحيط به. وأدركها دون أن تدركه.

أحاط بالمعرفة في وقتٍ لم يكن لها نشر ثقافي أو سبب إعلامي.

النَّاس في بدائيَّتهم وجاهليَّتهم لا يسجِّلون حوادثهم ولا يكتبون معارفهم. ليس لهم إلا رواة تأخذهم النَّزعة وتحملهم العاطفة وتخونهم الذَّاكرة. يوفون النَّاس بما يدركون، ويحملونهم على ما يريدون، ولكلٍّ راوية مقاييسه وإدراكه، ولكلٍّ مدرك هواجسه وآراؤه. مجالسهم دواوينهم، وأسواقهم مؤتمراتهم كسوق عكاظ.

لم تؤثر عنهم معرفة منهجيَّة منتظمة كما أُثرت عنهم فصاحة اللسان وبلاغة الكلام. دأبوا على مفاخرهم وانطلقوا في تحرُّرهم. لا تأخذهم المادَّة عن المثل، ولا يركن بهم الشُّح عن الكرم، ولا يمسكهم الإرهاب عن الإباء، حيث أملتها عليهم حواضرهم وبطاحهم وانطلاقهم، في مأمنٍ بعيد، وممكن عتيد عن جهد الفاتح، وعن الرُّضوخ لذلَّة المستعبد، إذ ليس لديهم من غنم يطلبه الفاتحون، ولا عليهم من غرم يقتصُّ به الحاقدون.

بلغتنا منهم لغة كاملة مستوفية لأطراف المعرفة. دقيقة في التعبير بليغة في الأداء، متكاملة للإدراك. ذات مقاييس دقيقة، وألفاظ سهلة رقيقة، وأوزان كامنة عريقة.

هي لغة القرآن

ولغة الحديث

ولغة نهج البلاغة.

فإذا لم يسعفنا البحث والمأثور عن السَّلف لإماطة اللثام عن دقيق مراحل تطورها فقد أسعفنا العقل أن لا ننكر أنّها وليدة أُمَّة عالمة مدركة ذات نباهة ومعرفة وأدب.

ليست العربيَّة كاللُّغات البائدة من مسماريَّة أو هيروغليفية وأضرابهما لها رموزها الكتابيَّة الخاصة. ولا هي كالصِّينية واليابانيَّة الحاضرة ذات أشكال ورموز متعبة الفهم عسيرة الإتقان. بل هي لغة مستوفية رفيعة متطوّرة لها أنْ تفاخر أعظم اللُّغات الحاضرة إذا لم تبزها بنواحٍ كثيرة.

وهي على بكرها وماضيها وقصور العرب منذ ردح من الزَّمن للتَّقدم بها لا زالت ماثلة بتطوُّرها وقوَّتها، يانعة بدقَّة أدائها وجمال خطِّها، كلُّ ذلك ذاتاً لا عرضا.

انصرمت كلُّ اللغات الحاضرة عن ماضيها، وتغيَّرت صورها ولهجاتها، ولغتنا كما هي تستنسخهاوتقرَؤها وكأنك في عهود سابقة قديمة.

أحاط عليٌّ بالمعرفة دون أن تحيطه بسبب إعلامي. وأدركها دون أن تدركه بنشر ثقافي.

عاش عليٌّ في وسط لم يهضم المعرفة، ولم يحط بالقلم.

عاش عليٌّ في مجتمع لم يدركه، وفي حقبة من الزَّمن لم تصل إلى شأوه.

سبق زمنه وأراد له أن يواكبه، بقوَّة العزم والإرادة، وبعزَّة الإخلاص والعقيدة، فلم يكتب للزَّمن أن يواكبه فتكالبت عليه الخطوب.

عرفه الخاصَّة من ذوي العلم والأدب فاستلهموا منه بمقدار ما أوصلهم السَّبق وجهله العامَّة حيث أخذ بهم روَّاد التَّسلُّط والإستغلال إلى حيث يجهلون.

والإنسان لا يعتدُّ بما يجهل.

كم تهب الطَّبيعة، وتعطي الحياة أفذاذاً كراماً، لا تدركهم أُممهم، ولا تهضمهم مجتمعاتهم حتَّى إذا أفل منهم نجم اشرأبّت إليه الأعناق. وتاقت إليه النُّفوس. تأخذ وجهة تعاليمه ومعالم حكمه تستنطقها وتستلهمها معرفة وحياة. وبالطبع إنَّ

المجتمعات لا تدرك المعرفة على حقيقتها ولا تتحرَّر من الجهل الّذي هي قابعة فيه وهي في رقٍّ من أمرها. فإذا تحرَّرت وتطوَّرت انبعثت عن هفوة العصبيَّة ورقّ الجهل وحينذاك تمسك بأساطين معارفها وروَّاد تحرُّرها توضح لها معارفهم ومعالمهم وإخلاصهم وصواب إرشاداتهم فتهتدي بهديهم وتسير على سبلهم. وبالطّبع لا يصح للباعث المحرِّر أن يكون رهن عادات مجتمعه.

عليه أن يطوِّر ويجدِّد.

عليه أن يقيم ما يصلح ويديل ما لا يصلح.

عليه أن يأخذ بمجتمعه لما هو أفضل.

رأينا عليّاً من هؤلاء الأفذاذ القلائل الّذين يعجز العقل عن سبر معالمهم ومعارفهم وتطوُّرهم وتجدُّدهم وإنسانيَّتهم حتّى يأخذ الإنسان الشكُّ فيما لا قدرة له على الإيمان به ولكلِّ إنسان مقاييسه الخاصَّة.

كيف تأخذنا القناعة بهذا السُّمو الأخلاقي. وبهذه الخلال الحميدة. وبهذه المعارف المستوفية. وبهذه المعالم الإنسانية الشاملة الكاملة. وكلُّها تجتمع لإنسان سوي كأيِّ إنسان. ولكن إجماع الرُّواة الدَّاني منهم والقاصي، وكثرة التّواتر، وصحّة السّند، وسلامة النَّقل قطع دابر الشّك وأرسى عالم اليقين.

ذهبت به الصَّفوة من ذوي العلم والرَّأي مذهباً رفيعاً سامياً حيث وضعته في مقام لا يصل إلى شأوه إنسان.

عرفه محمد (ص) فأوفى في تعريفه لا لقربىً آثره بها، ولا لهوىً أو ولاءٍ اختصَّه به لأنَّ ذلك على خلاف ما أخذ الرَّسول به نفسه، وعلى نقيض ما رآه واعتقده، وإنّما أدركه بما استوعب، فأحاطه بما يستحق، حتّى جعله باباً ومنطلقاً لعلمه ومدركاته وسنّته.

فقد ورد عن العامّة والخاصّة وبطرق كثيرة أنَّ النّبي (ص) كان يحدِّث النّاس في عليٍّ فيقول:

(أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها فمن أراد العلم فليأت بابه)[1].

---

(١) الكنجي الشافعي في الكفاية. ابن حجر في الصّواعق ص ٨٣ الخوارزمي الحنفي في المناقب. ط ٢ ص ٤٠ الفصل ٦.

وقد أكثر الرُّواة الثِّقات النّقل عن عمر بن الخطاب (رض) في عليٍّ (ع) حتّى كان يشهده على أحكامه ويستشهد به في أُمهات قضاياه ومهامّه ومن قوله فيه كما جاء في مناقب ابن شهر آشوب وفي كتاب الأذكياء لابن الجوزي وغيرها ما نصُّه:

« أقضانا عليٌّ »[1].

« لا أبقاني الله لمعضلة إنْ لم يكن عليٌّ فيها »[2]

« لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن ».

« أعوذ بالله من معضلة لا عليٌّ لها »[3]

ولسنا بصدد البحث فيمن روى في الإمام ومن شهد له بالفضل فقد أشبعه كثير من الثِّقات بحثاً ورواية.

نشأ عليٌّ وكلُّه علم ومعرفة، فقه وحكمة، فصاحة وبلاغة.

نشأ عليٌّ وقد طغى عليه حبُّ العلم حتّى أخذ بمجامع قلبه وحركات لسانه واستنباط هواجسه.

يدرك ما يحيط به ويحيط بما يدرك.

يدرك إدراك العالم المتطلّع، العامل بعلمه، المعتقد بما يلزمه أن يعمل لإصلاح مجتمعه ورفع مستواه وهذا ما جعله لا يحجم عن درء خطأ. ولا يقف دون مشورة ولا يتلكأ في إبداء نصح.

---

(١) ص ٨٧ الصواعق المحرقة لابن حجر، الشافعي (ج ٢ ص ١٩٨) الرياض النضرة، المناقب للخوارزمي الحنفي ط ٢ ص ٤٧.

(٢) ج ٢ ص ٤٨٤ الاستيعاب لابن عبد ربه ص ٨٢ ذخائر العقبى للطبري الشافعي.

(٣) المناقب للخوارزمي الحنفي ط ٢ ص ٥١.

حثُّه على طلب العلم:

أدرك عليٌّ العلم إدراك العالم الفاضل المجرِّب. حتّى جعله من أوّليّات رسالته، وحثَّ على طلبه حتّى جعله نبراساً لأُمَّته، تهتدي بسوابغه، وتستضيء بنوره، وأوفى كثيراً في مراميه ومنافعه.

« تعلَّموا العلم صغاراً تسودوا كباراً »[1].

أثار نزعة السِّيادة وهي نزعة طبيعية في الإنسان ولكنَّه أثارها في مكمن العلم إذ يرتفع به حيث يريد أن يسود بجدارة وحقّ وسيادة العلم هي السِّيادة الحقَّة في عرف الإمام.

وليست السِّيادة أن تحمل العلم فحسب بل يرى الإمام أن تحمله وتعمل به.

« يا حملة العلم أتحملونه فإنَّما العلم لمن علم ثم عمل بما علم ووافق عمله علمه »[2].

هذه سنَّته في ارتياد المعرفة، وأُسلوبه في نشرها. فليس للعالم إلا ما أنفق من علمه ولم ينقصه الإنفاق شيئاً. فإذا شحَّ العالم بعلمه فليس له إلاّ جهد كسبه وتعب تلقُّفه وضياع الوقت في أخذه والسَّعي إليه **« فإنَّما العلم لمن علم »** على أنْ لا يبارح عمله علمه فإذا بارحه فقد فرَّط في علمه وحمله على غير محمله. ومن يفرِّط

---

(١) رقم ١٠٢ عن ألف كلمة للامام.

(٢) رقم ١٠١ عن ألف كلمة للامام.

بما لديه فليس له منه شيء.

وقد حمل الإمام العلم لذاته، ولم يحث على طلبه لصفةٍ من صِفاته، أو لغنم من ورائه بل نزَّهَه وجرَّده وجعله غاية لا عرضاً لوصول:

« تعلّموا العلم وإنْ لم تنالوا به حظّاً »[1].

وإذا لم يدرك العلم على سعته فقد حثَّ على إدراكه على قلّته فإنَّ قليله إذا ثبت في القلب أنبت الإدراك، وأينع الهواجس، وأخصب المعارف.

« قليل العلم إذا وقر في القلب كالطلِّ يصيب الأرض المطمئنّة فتعشب »[2].

وقد أولى العلماء عنايته فرفعهم حيث يستحقُّون، وأوفاهم حقّهم في التّعظيم والتّقدير لما يحملون.

جعل العالم نبراساً يستضاء بنوره، ومصباحاً تجلّى المعرفة بسناء معارفه، ومن أراد الله به خيراً اقتبس منه.

« العالم مصباح في الأرض فمن أراد الله به خيراً اقتبس منه »[3]

وقد جرّد العلم للعمل فنزَّهه، وأوفى في حكمته فرفعه.

لم يجعله سفسطة لكسبٍ ماديٍّ، أو أوهاماً لمجرَّد خيال، أو معرفة لتنجيم وادِّعاء الغيب مما هو واهي القصد، مفنّد الحجّة. إنّما العلم للحياة وللعمل على صعيد الواقع.

« أيُّها النّاس إيَّاكم وتعلُّم النُّجوم » (أي التنجيم).

أمّا فيما يخص النّظر في السّماوات وفي النُّجوم فقد حثَّ على طلبه كعلم، ولكنّه حذّر من التماسه في كشف الغيب، وإدراك المستقبل وقد خاطب أحد المنجِّمين حينما حذَّره في بعض حروبه:

« أتزعم أنّك تهدي إلى السّاعة الّتي من سار فيها صرف عنه السُّوء وتخوِّف من

---

(١) رقم ٥٦٩ عن ألف كلمة للامام.

(٢) رقم ٢٢٠ عن ألف كلمة للامام.

(٣) رقم ٧٤٢ عن ألف كلمة للإمام.

السّاعة الّتي من سار فيها حاق به الضرّ فمن صدّق بهذا فقد كذّب القرآن ».

هكذا يتجلّى الإمام في عزّ عقيدته، ويتبوأ أرفع مقعد في ركب الإسلام الخالد.

وهكذا تتجلّى المعرفة في سنى علمه في وقت أطبق فيه الجهل على الإنسان فأخذه من جميع جوانبه وجنح به بشتّى سبله ومعالمه.

فمن صدّق بالتّنجيم - وهو بادرة لا عقليّة يميلها التّطلّع إلى وهم كشف الغيب - فقد كذّب القرآن: « **صدق الله وكذب المنجمون** ».

هكذا ينهج الإمام في معرفته، وهكذا يطلب المعرفة في صفو مدركاته هكذا يرفع مستوى العلم والعلماء لأنّ الإنسانيّة بهما تنبعث في وجود إنساني رفيع وبهما تسمو إلى حيث قهر الطّبيعة وإذلال البيئة واستخدام الحياة على أفضل سبيل: « **أقلُّ الناس قيمة أقلُّهم علماً** ». حيث لا يجوز تقديم الفاضل بوجود الأفضل ولا يترك الأعلم بوجود العالم فلكلٍّ منزلته.

و هذا ما يتّفق والعقل والعُرف والمنطق، ويبني المجتمع على أُسسٍ رصينة، وبهذا قد ذهب بالعلم مذهباً رفيعاً سامياً حتّى جعله ديناً يدان به ومبدأ تؤخذ الرّحمة من معالمه: « **يا كميل العلم دين يدان به** ».

هكذا يرتاد الإمام بالإنسانية إلى رحبها الواسع ذي الإنطلاقة الجبّارة في سبيل الحياة.

حكميّات الإمام:

تحكّم عليٌّ في المعرفة فارتاد بها الحياة من أوسع أبوابها، وأوضح السّبيل السويَّ حتّى براه أبلج واضحاً. وسنَّ للإنسانية سنناً تحصَّنت بالحقِّ والخير.

التمس المجتمع بشتّى طبقاته ومراتبه مرشداً وناصحاً ليجعله متكاملاً متكافلاً قائماً بواجبه متظافراً في عمله لخير المجموع.

وممّا كان يوجهه من حكمياته لأرفع أفراد الحكم وهم الولاة:

« أمّا بعد، فلا يكن حظُّك في ولايتك مالاً تستفيده، ولا غيظاً تشفيه، ولكن إماتة باطل وإحياء حقّ ».

التمس عليٌّ المعرفة في حكمياته التماس الحكيم العارف، والنّطاسي البارع المشخِّص للدّاء والعارف للدّواء.

لم تتصف حكمياته بالصِّفة المثاليَّة المجرَّدة، أو بالتجرُّد الصوفيِّ البعيد عن واقع الحياة بل جسَّد المعرفة لخير الإنسان في دنياه قبل آخرته، وفي مجال واقعه قبل مجال مثله، وجعل الإنسان محمولاً على خيره وشرِّه. والنَّاس سواسيه.

وبذلك يرتضون حياتهم لأنّهم سيحملون نفس الشُّعور بأفراحهم وأحزانهم بآلامهم وراحتهم – ولكلِّ قلب حرّى أجر – ومن يرد الحسنى من غيره فعليه أن يعامل بها لأنَّ لكلِّ إنسان إحساسه بألمه، وشعوره بمآسيه.

وحسب علمنا أنّه لا يوجد ميزانٌ واقعيٌّ يثبت على مدى وجود الإنسان في

معاييره الخلقيَّة والإجتماعية كميزان النَّفس وهذا ما أوصى به ابنه الحسن:

« يا بنيَّ اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين النَّاس فأحبب لغيرك ما تحبّ لنفسك، واكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن تُظلم، وأحسن كما تحب أن يُحسن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك، وارض من النَّاس بما ترضى لهم من نفسك.... ».

أيّ منزع ينزع بنا وأيّ محمل يحملنا العالم عليه إذا فرَّطنا بهذه المعالم الإنسانية الخالدة، وبهذه الحكمة البالغة، وبهذا السُّموِّ الرُّوحيِّ الرَّفيع.

أيُّ باحث اجتماعي نحا نحوه فأدرك سبره؟
وأي مصلح قد أدرك علمه وبلغ شأوه؟
وأيّ حكيم إنساني وصل إنسانيَّته وعطفه؟

هكذا يتجلّى الإمام في عزّ عقيدته، وهكذا يستنبط الحكمة من واقع الحياة.
« أحسن كما تحب أن يحسن إليك ».

هذه أُسس الحياة حيث المجتمع الكامل في أوفى معنًى وأقصر تعبير.

تمثّل عليٌّ بالواقعيَّة فجعلها سنَّة لازمة في كلّ حكميَّاته مع ما أُثر عنه أنّه من كبار المثاليِّين، حيث أنَّه يستخلص الحجَّة في ذكر الحكمة. ويبيِّن القول في مجال العمل، ويوضِّح السَّبيل حيث الغنم العام في مجال الإخلاص الخاص. ويبسط الجزاء ملموساً محسوساً في دنياً تلمسها وتشعر بها عدا عن آخرة.تهفو لها وتطلبها.

طلب الإمامة ممَّن يريد أن يقتدي به بالعلم، والعلم بالعمل، والعمل بالسِّيرة والسُّلوك وعلى ذلك فالأحرى بمن وضع نفسه موضع المقتدى به أن يطابق عمله قوله فيما يصلح لمجتمعه ولنفسه: **« ومن أراد أن يكون إماماً لغيره فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليبدأها بسيرته قبل لسانه ».**

« من نصّب نفسه للنّاس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن

تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ومعلّم نفسه ومؤدّبها أحقُّ بالإجلال من معلّم النّاس ومؤدّبهم »[1].

هذه سنّة الإمامة في سيرة العمل، وهذا مفهوم الواقعيّة في تسنم العيادة. إستهدف عليّ الحكمة لذاتها، وأسهب في منافعها، وحثَّ على الأخذ بها من أيٍّ أتت ومن أيّة وجهة وردت:

« خذ الحكمة أنّى كانت، فإنّ الحكمة تكون في صدر المنافق فتلجلج في صدره حتّى تخرج فتسكن إلى صواحبها في صدر المؤمن ».

لم يجعل للحكمة أُمناء يحملونها، ولا حكماء مختصّين مؤمنين بها يبعثونها إنّما يمحّصها العقل، ويدركها المنطق فعليك أنْ تطلبها أنّى كانت ولو صدرت من منافق لا يؤمن بها ولا يتّصف بصفتها فإذا ما أخذتها مؤمناً بها استقرّت في مستقرّها وآوت إلى صويحباتها، ولكلٍّ مستقرّه ومنزلته.

وهذا ما يستدل به على واقعيّة الإمام حيث الحكمة معرفة وعمل، والمنافق يظهر مرائياً بما لا يؤمن، ومن لا يؤمن بشيءٍ لا يعمل به، فلا يستقرُّ عنده ولا يثبت لديه.

كم روى لنا المؤرّخون وكتّاب السِّير عمّا أُثِرَ عن الفلاسفة القدماء من تأمُّلات وآراء مفاضها حيث يقبع الفيلسوف في عزلته، يتأمّل الطّبيعة ويتطلّع إلى الكون بعالم بصيرته من غير أن يجهد نفسه بالنّظر بعالم بصره، ومباشرة حواسّه ثم يفيض على النّاس بما يفكّر فيه.

يستنطق الوحي، ويستلهم الطّبيعة دون أن يلتمسها بماسة أو مباشرة وإنّما يحلّق في عالم أخيلته، وأجواء أفكاره فحسب وهذا ما لا يفي الواقع حقّه.

ولكنَّ الإمام لم تأخذه هذه الوجهة إلى سبيلها، بل طلب الحكمة وأفاضها حيث استلهمها من محيطه ومجتمعه، من نضاله وعقيدته، حيث وجود الحاكم والمحكوم.

حيث وجود أولي الأمر والعامّة من النّاس.

---

(١) ج ٣ ص ١٥٣ النهج محمد عبده.

حيث وجود الشّعب في مجاله العملي.

ولّما سئل عن الفرق ما بين الحقِّ والباطل أجاب بما يستدلُّ به على ما أسلفت. **(أربعة أصابع)** وهي المسافة ما بين العين والأذن. فالشكُّ وارد في ما تسمع، والحقُّ لازم في ما ترى.

كان الإمام في حكمته يلتمس المارَّة، ويجتمع بالسُّوقة ويعلِّم العامَّة على قارعة الطّريق.

كان يلحف بتوجيه السُّلطة أشدَّ الإلحاف، ويقارعها في الحق أشدَّ المقارعة.

المعرفة عند الإمام معرفة حسيَّة لا مجرَّد تأمُّل ونظر، تسمو المعرفة عنده بسموِّ المواهب، وتتعمَّق بدقَّة النّظر.

كلُّ ما أُثر عنه إنّما هو مأثور خالد حيث أنَّ الإنسان بطبعه وبتطوُّر معارفه ينظر ليومه غير ما ينظر لأمسه ولو بسطنا آراء الفلاسفة في شتّى العصور لرفعنا وعظّمنا منهم من أمكننا هضم آرائه. ولا يتأتّى الخلود لإنسان إذا لم يسبقه إليه خلود في آرائه ومعتقداته ولو تناولنا آراء الإمام تدقيقاً وتحقيقاً لرأيناها كليّات لازمة للبشريَّة قاطبة في أيِّ زمان وأيِّ مكان لأنّها ماثلة بالحق المطلق من حيث هو خير مطلق لا يحدُّه وطن ولا قوميَّة ولا لغة ولا عقيدة ولا سياسة.

« فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك ».

ومن حكميّاته وشمول وصاياه وانطلاق عقيدته ما يوصي الولاة في حكومته:

« ولا تكوننَّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم فإنّهم صنفان، إمّا أخ لك في الدِّين أو نظير لك في الخلق »[1].

هكذا يحمل الحكيم الحاكم أعباء الحكم بقلبٍ طاهر مشبع بحبِّ الإنسانية والعمل لأجلها.

فإذا لم تجتمع وسواك بوحدة العقيدة فتجمعهُ إياك وحدة الخَلق والتَّكوين

---

(١) من عهده للاشتر في النهج.

بشري، وهي صفة شاملة لا تتعدّاها سعة لأنّها تضمُّ النّوع الإنسانيّ بأجمعه.
هي رعاية الإنسان لأخيه الإنسان.

نراه في جلّ وصاياه وحكمه يعتمد الفرد في إبراز شخصيّة المجتمع بدون أن يسيء إلى الفرد أو إلى قيمة المجتمع.

يتعمّق في التّوجيه حتّى يرتفع بالإنسان إلى روحانيّة لائقة في عالم واقعيٍّ تنبعث عنا أواصر اجتماعيّة مبنية على الحبّ والتّسامح.

ومن وصاياه وحكمه في ذلك:

« صدر العاقل صندوق سرّه، والبشاشة حبالة المودّة، والإحتمال قبر العيوب ومن رضي عن نفسه كثر السّاخط عليه »[1] هذه حكمة الإمام في بناء المجتمع.

وما السّر إلا الذّكرى لحادث يقتضي على العقل عدم إفشائه لضرر إشاعته فإذا ضاق صدر المرء بسرّه فبالأحرى أن يضيق به صدر غيره. ومن تمكّن من عقله فقد تمكّن من سرّه لأنّ العقل مقياس للأفضل وكتمان السّر أفضل من إفشائه.

وأمّا البشاشة فهي التّعبير عن الحبّ المنطلق من النّفس، وهي علامة الولاء وحبل للمودّة.

ويوصي مجتمعه بغضّ النّظر عن الهفوات، وعدم الإلحاح في العقاب، فإذا كانت الهفوة عن عمد فإغضاؤك خير تقريع لمقترفها لأنّه يريد إغضابك فلم يحصل على بغيته، وإذا صدرت الهفوة من غير عمد فإغضاؤك لازم لأنّ القصاص غير وارد فيما يأتي عفواً.

وأمّا الرّضا عن النّفس، فهو الرّضا عمّا يصدر عنها صالحاً كان أم طالحاً، وحينذاك يفقد المرء الإحساس والنّظر فيما يسيء به إلى غيره وهذا ما يكثر السّاخطين عليه.

ولو أردنا الإسترسال في حكميّات الإمام، وفرائد كلماته لطال البحث وتوسّع، ولكنّي سأعطي بعض الأمثال لما أسلفت وهي مقتطفة عن مائة كلمة كان يقول

(١) ج ٣ ص ١٥٢ النهج محمد عبده.

فيها الجاحظ كلّ كلمة منها تعنى بألف كلمة من محاسن كلام العرب وقد ذكرها أخطب خوارزم الحنفيّ في المناقب في الفصل الرابع والعشرين:

حسن الخلق خير قرين.

العقل خير صاحب.

الأدب خير ميراث.

ما ضاع امرء عرف قدره.

قيمة كلِّ امرءٍ ما يحسنه.

المرء مخبوء تحت لسانه.

الحكمة ضالّة المؤمن.

لا راحة مع حسد.

لا داء أعيى من الجهل.

لا مرض أَضنى من قلة العقل.

الشّرف بالعقل والأدب لا بالأَصل والحسب.

تكامل الروح والجسد:

لم يقتصر الإمام بسموّه في المعرفة على المظاهر المثاليّة أو الأخلاقيّة أو إثارة القيم الإنسانيَّة المرتبطة بالمجتمعات وسعادتها، بل أثار الموضوع الماديَّ المحسوس وربط ما بينه وبين المظاهر الروحيَّة الحسيَّة، ليتعمَّق الإنسان في معرفة نفسه، وفي تكوينه المادي، وقد أظهر العجب لهذا التّكامل الذّاتي ما بين المحسوس والملموس ليعطي للخلقة روعتها، وللإنسان عمق تكوينه.

« عجب لهذا الإنسان ينظر بشحم، ويتكلّم بلحم، ويسمع بعظم ويتنفّس من خرم ».

المشاعر هي ظواهر النّفس، ومسالك الرُّوح في الحياة، وقد أثبتها الإمام بأسبابها الماديَّة من شحم ولحم وعظم وهي مظاهر الجسد بماديّته.

ومن بديع حكمه، وجميل أُسلوبه في العرض والإستنتاج، ممَّا يخرج بعالم الفلسفة من التَّأمُّل النّظري إلى العالم الحسّي، فيربط بين العالم المثالي والعالم المادي، بين الرُّوح والجسم ككل لذات أحدهما مظهر للآخر، وكلّ منهما سبب لوجود حيث يقول:

« العقول أئمة الأفكار، والأفكار أئمة القلوب، والقلوب أئمة الحواس، والحواس أئمة الأعضاء »[1].

---

(١) ط ٢ ص ٧٢ علي والقرآن محمد جواد مغنية.

قد يسأل الإنسان عقله:

كيف تأتي الذِّكرى بعد مدَّة قد تطول من حدوث الحادث؟

وكيف تعاد الفكرة بعد طول غيابها؟

وكيف نميِّز بين الأَفكار فنأخذ أصلحها؟

وكيف نستحسن الذِّكرى فنختار أفضلها؟

كلُّ ذلك يرجع للعقل حيث هو المرجع الأَوحد، والمقتدى الأَصلح، فالعقول أئمة الأَفكار بها تقتدي وبها تتمثّل.

وأمَّا القلوب فقد اصطلح الحكماء على أنّها موطن العواطف، ومبعث الأَهواء ولا تتأتَّى العواطف بدون أفكار تبعثها، أو ذكريات تثيرها.

فإذا ائتمَّت القلوب بالأَفكار، والأَفكار بالعقول، تشذّبت العواطف وتسامت لأنَّ العاطفة إذا ارتكنت للعقل سمت بسموِّه واستعانت بمنطقه.

وأمَّا الحواس فهي الوساطات الّتي بها نلتمس العواطف والأَهواء وتتمثّل بإرادة العمل. فإذا أراد الإنسان نظر شيء ما كان حبُّ التّطلُّع كامناً فيه فيوجِّه نظره صوب المرئيّ لتشخيصه حسبما تمليه إرادته، فالقلوب أئمة الحواس تأمرها فتطيع وتوجهها فتمتثل.

فإذا ائتمَّت الحواس بالقلوب، والقلوب بالأَفكار، والأَفكار بالعقول، أمسى الإنسان كاملاً حيث يلتقي هواه بعقله.

وأمّا الحواس عرفاً، فهي تلك التأثيرات الّتي توجِّهها مراكزها في الدِّماغ باسم المشاعر. وما الأَعضاء إلا الأدوات الفعَّالة الّتي بوساطتها تنتقل تلك التأثيرات إلى المراكز الخاصَّة للعمل ثم ترجع بالطّلب.

نستخلص مما سبق وبهذا التَّسلسل المنطقي أنَّ للإمام عقلاً جبَّاراً لا تجليه الحقوب، ولا تدركه العقول إلا بعد لأيٍ وجهد.

بسط الإمام فلسفته في إيجاز عجيب، وفي تسلسل منطقيٍّ بديع تلتقي فيه أفعال العقل، وأفعال الأَعضاء على صعيد التّكامل.

لم يدرك القدماء أنَّ العقل هو المسيِّر والمشرف على مختلف الأعمال الجسميَّة. وأنَّ للأفكار الأثر البالغ في القلب حيث تثيره الهواجس، وتلعب به العواطف، وقد ظنَّ القدماء بأنَّ القلب منبع العواطف، وقال بعضهم بأنَّ القلب هو العقل ولكنَّ الإمام أدرك أنَّ القلب مضغة لحمية تأخذه الأفعال والهواجس فينبسط بها فتتمدَّد أوداجه أو ينقبض فتتقلَّص بها أوداجه حسب معنويَّات الإنسان، وحسب تمحيصه العقليِّ للأشياء.

فالتَّواكب ما بين الرُّوح والجسد وبهذا الإنسجام والتبسُّط في العرض لم تتطلَّع إليه الفلسفة إلا بعد مواكبتها للعلم الحاضر وانسجامها معه، وقد أثبت العلم صدق رواية الإمام ودقَّة تحقيقه. وإنْ كنَّا نرتاد بالإمام إلى المعرفة من حيث هي واقع الحياة ولكنّنا كذلك نعكس ونظهر مقدرة الإمام الإستنباطيَّة بدون أن نطلبها كاملة إلا فيما يتّصل بالشَّريعة الإسلاميَّة حيث هو منبعها ورائدها الأوَّل.

ولم يكن الإمام ممَّن يقتصر على روايته عن النَّبي والقرآن بل يستنبط ويدرك ويفيض عن علم ذاتيٍّ توحيه عبقريته ويثيره فيه محيطه ومجتمعه.

رأيه في النَّفس:

ومن بديع استنباطاته وجليل معرفته لّما سأله كميل بن زياد أحد أصحابه عن النَّفس فقال: **أيُّ النَّفس** [1].

أجاب كميل: **(هل غير واحدة؟).**

قال الإمام: « بل أربع أنفس: النَّامية النباتيّة، والحيوانيَّة، والناطقة القدسيَّة، والكلِّية الإلهيَّة. ولكلٍّ منها قوىً خمسة وخاصتان.

أمـا القوى النَّباتيَّة الخمس: فالماسكة، والجاذبة، والدَّافعة، والمربية. وخاصتاها. الزيادة والنُّقصان.

وأماالقوى الحيوانيَّة الخمس: فالسَّمع، والبصر، والشَّم، والذَّوق، واللمس. وخاصاتاها الرضا والغضب وانبعاثهما من القلب.

وأما القوى النَّاطقة القدسيَّة الخمس: فالفكر، والذِّكر، والعلم، والعمل، والنَّباهة. وليس لها انبعاث وهي أشبه الأشياء بالنَّفس الملكية. وخاصتاها النَّزاهة، والحكمة.

وأما القوى الكليّة الإلهية الخمس: فالبقاء في الفناء، والعزُّ في الذّل، والفقر في الغنى، والصَّبر في البلاء، والنعيم في الشّقاء وخاصّتاها. الحلم والكرم. ومنشؤها ومبدؤها من الله. لقوله عز وجل: « **ونفخنا فيه من روحنا** » ومرجعها إليه كما قال تعالى: « **يا أيَّتها النَّفس المطمئنَّة ارجعي إلى ربِّك راضيةً مرضيَّة** ».

---

(١) أوردها الطريحي في قاموسه مجمع البحرين تحت (نفس) ووردت في مصادر أخرى.

والعقل وسط الكلّ لا يتكلّم أحدٌ منكم من غير عقل».

ليست هذه الأَقوال قد صدرت عن مثاليٍّ فحسب ينطق بعالمها وعالمه، **ولا هو** ماديٌّ انبسط في ماديَّته، وتكلّم بفلسفته بل هو إنسان واقعيٌّ التقى عنده خافقا المعرفة فكان وسطها. (وخير الأُمور أوسطها)، **«وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً»** كما نصّ القرآن.

هذه فلسفة الحياة في وحدة الوجود، وتواكب الكون في شمول الحياة.

يبسط الإمام المعرفة بأُسلوبه الخاص، ومنطقه المعجز سهلاً ممتنعاً. يستعرض فيه موضوع النّفس وهو موضوع شائكٌ قديم خبط الماضون فيه خبط عشواء فيعطينا فكرة الحياة على صعيد النّفس، فيبدأ بقوى النّفس النامية النباتيّة. وقد نعتها بالنباتيَّة لأَنّه أوسع تعبير للحياة وأبسطه، لأنّ هذه القوى نلمسها بالنّبات كما نلمسها بالحيوان، وإنْ كان بحث الإمام منوطاً بالنّفس الإنسانية، وفي هذا ذهب الإمام إلى وجود النّفس في النّباتات (أي أنَّ النّباتات من الأَحياء) وأولى تلك القوى هي الماسكة حيث بها يلتمس الإنسان حياته بما يتناوله من محيطه من هواء وماء وغذاء. فإذا أمسك بيده. وتناول بفمه، واستنشق بأنفه فلا يصح الإنتفاع بدون جاذبيّة البلع، وجاذبيّة الشّهيق، وهذا ما عبّر به حيث القوى الجاذبة بعد الماسكة ثم يبدأ دور القوى الهاضمة. فإذا تجهّز الغذاء وتمثّل اندفع إلى الدَّم ليتحوّل إلى طاقة تظهر بها مظاهر الحياة ثم ينتهي المطاف بالقوَّة النّامية حيث ينشأ العمل، ويعمل الفكر، وينمو الجسم.

وضع الإمام بهذه النُّبذة القصيرة مراحل القوى النّفسيَّة الّتي يعمل بتسلسها الكائن الحيُّ لإقرار حياته، فإذا تناول أكثر مما يحتاج فله الزّيادة في العمل والبسطة في الجسم، وإذا تناول أقلّ من احتياجه فقد قلّ عمله وضعف جسمه وهكذا حسب طبيعة الحياة.

ثم ينتهي بهذا الرّأي بما للكبد من أثر ملموس في الزّيادة والنُّقصان، وحقاً إنَّ الكبد يفرز الصّفراء وبها تتمثّل المواد الدُّهنيَّة في الجسم، وتساعد على الإفراز المعوي وتنظّمه وبه يتحلّل السكر وتفرز اليورية وله دور ترياقي ضد السُّموم وهو الّذي يقضي على الحجيرات الدُّموية البالية ليتخلّص منها الدَّم.

وأمّا قوى النَّفس الحيوانية: فقد نعتها بالحيوانية لأنَّها ماثلة في الإنسان والبهائم عدا الأحياء البدائية وهي المشاعر الخمس: السَّمع، والبصر، والشَّم، والذَّوق، واللمس، وجعلها من قوى النَّفس حيث تبعثها قوَّة كامنة وراءها. ولها خاصَّتان (الرِّضا والغضب) حيث الإنسان لا يلتمس بأحد مشاعره بدون رضاه أو غضبه، وبدون إرادة تحبِّب له الإطِّلاع أو بغض يبعده عنه.

ولو فرضنا أنَّ الشُّعور عفويٌّ فلا بدَّ لصداه من أثر مقبول أو غير مقبول. ولا بدَّ لكلِّ حدث وافد أن يكون على سبيلين إذا ما تفحَّصه المرء، والتَّفحُّص والتَّتبع من فعل حبِّ الإطِّلاع (وانبعاثهما من القلب) فإذا ما شعر الإنسان بالرِّضا انبسطت أساريره، وإذا ما شعر بالغضب انقبض صدره.

إذا ما غضب شحب وجهه واصفرَّ لونه لانقباض الدَّم عن مظاهر ملامحه وازدادت حركة قلبه، فالرِّضا والغضب مبعثهما القلب لأنَّه موطن العواطف، ولها تأثيرها البالغ على الحواس من حيث هي مشاعر.

وأمَّا القوى النَّاطقة القدسيَّة: فقد قدَّسها الإمام لسموِّها الذاتيّ ولتعلُّقها بالإنسان.

أولها الفكر، وبه يلتمس المرء معنويَّاته وماديَّاته.

يبدأ المرءُ بالتَّفكير المجرَّد فإذا أحاط علماً بما يلتمسه فقد أسعفته الذَّاكرة، وكم من يطيل التَّفكير منّا ثم يسائل نفسه. ماذا يريد أن يتذكّر. فإذا ما تذكّر فقد أحاط علماً بموضوعه، وحينذاك انتقلت الذِّكرى إلى حيِّز العلم. وبعد إحاطة المرء علماً بموضوعه فعليه أن يبدأ العمل، ولا يصحُّ العمل بدون علم تسبقه ذكرى. فإذا فكرَّ الإنسان وتذكَّر، وعلم وعمل، فعليه أن يلتمس القوَّة القدسيَّة الخامسة وهي النباهة في العمل، لإجادة الإنتاج وتطويره، وللشُّعور بمراحله، وللوقاية من ضرره.

وليس لهذه القوى من أعضاء أو أجهزة خاصَّة تنبعث منها إنّما يمليها العقل حيث هو المرجع الأَعلى لكلِّ الأَفعال الحيويَّة.

وخاصَّتاها النَّزاهة والحكمة: حيث لا تصح الذِّكرى للعلم، والعلم للعمل،

والعمل مع النّباهة والإخلاص بدون تجرُّد وبدون نزاهة وتبصُّر.

إنَّها لحكمة بالغة.

هذه ملامح من فلسفته، وهذا فيض من عبقريَّته.

وأمَّا القوى الكلِّية الخمسة: فهي مجردات شاملة تنبعث في الإنسان حيث هو في أيِّ وطن وبأي مكان، ولا حول له ولا قوَّة على نقضها أو إبرامها. ذاتيَّة التَّكوين، طبيعيَّة الوجود. توحي للإنسان بعجزه وتنبيء، بأنَّه مخلوق لا خالق لأنَّ الإنسان مجبول على بقائه دون فنائه، وعلى عزِّه دون ذلِّه، وعلى غناه دون فقره، وعلى عجزه دون صبره، وعلى نعيمه دون شقاه.

فأُولى تلك القوى كما ذكرها الإمام:

١ - **البقاء في الفناء**: ومن طريف حكمته ما يتَّفق والقصد إذ يقول: **(نفس المرء خطاه إلى قبره)**.

فاستنشاق الهواء دليل الحياة وعلامة البقاء، وكلما امتدَّ البقاء قرب الفناء، وكلّما امتدَّ الأمل تعجَّل الأَجل.

٢ - **العزُّ في الذُّل**:

ترى الإنسان يشمخ بأنفه متعالياً بسلطان أو ملك، أو بأعوان وأصحاب، أو بثراء واقتناء وما إلى ذلك مما يشمخ به ويتكبَّر ولكن ذلك لا يدفع عنه غائلة المرض، أو مداهمة العلل، تراه ذليلاً يلتمس الرَّحمة فلا يجد لها سبيلاً. يلتمس الإنسان العزَّ خوفاً من الذُّل، فكلتا الفكرتين ماثلة لديه حيث العزُّ والذُّل شعوران يوجد أحدهما جنب الآخر بدون أن تكون للإنسان إرادة وهذا ما ذهب إليه الإمام. **(العزُّ في الذُّل)**.

هذا الإنسان العزيز أمام نفسه ذليل أمام كوامن القدر لا حول له ولا قوَّة.

هذا الإنسان العزيز في نفسه، المتعالي في كبريائه يذلُّ أمام سلطان الحبِّ، أمام نزوة من نزوات العشق والهيام، وقد يستجدي العطف فلا يجده.

بل كم من العادات على بساطتها لها الأَثر القاهر ممَّا تضع الإنسان ذليلاً في عزِّ جبروته قد يتصاغر لتدخينه لسيكارة يتطلّبها أو لكأس شاي أو قهوة قد تعوَّد

عليه مع شعوره بضررها.

٣ - الفقر في الغنى:

الفقر والغنى شعوران ماثلان جنباً إلى جنب ما تذكّر المرء أحدهما إلا وتمثّل الآخر بجنبه، ولا يعرف الضدّ إلا بضدّه.

لم يجهد المرء نفسه بالسّعي للزّيادة إلا خوف الحاجة. وكم يملك الفرد كثيراً، ولكنّه ببخله وشحّه على نفسه فقير في غناه، محتاج في ثراه. ولم يكن الفقر والغنى منوطين بالمال والضّياع، فإنّ العالم مهما كثر علمه شعر بفقره للعلم وجهله به حيث تنطلق أمامه آفاق جديدة للمعرفة. ومهما توغّل المؤمن في الإيمان شعر بتقصيره في ما يلزمه، وهكذا شمول قول الإمام وارد في وجود المتضادّين من فقر وغنىً وبوجود الشُّعور بهما في وقت واحد فالفقر القلّة والغنى الكثرة.

٤ - الصّبر في البلاء:

يلتمس الإنسان الصّبر في مقارعة ما يشتدُّ عليه حمله. فإذا اشتدَّ البلاء قارعه بالصّبر على مضض وعدم رضاً ولم يكن له لا حول ولا قوّة على الهروب والتنصُّل من الواقع.

يبلى المرء بالمرض فتتنازعه قوّتان في آنٍ واحد. قوّة الشُّعور بالبلاء، وقوّة الصّبر على دفعه.

ويطلب الإنسان كثيراً مما يريد ويهفو لكلِّ ما يريد ولكنّه لا يتمكّن من نيل ذلك وليس له آنذاك إلا الصّبر.

النعيم في الشقاء:

يقول علماء النّفس كلّما أظهر المرء دعابة إنّما هي صدىً لما في النَّفس من كوامن الأَسى. وما النّعيم إلا الشُّعور بالسَّعادة، والسّعادة إنّما هي دحر الشّقاء. ولا تدرك السَّعادة بدون إدراك للشَّقاء إذ هما شعوران متضاربان متضادّان يعرف أحدهما بوجود الآخر. والنَّعيم والشَّقاء شعوران نسبيَّان يتوسَّع أحدهما على حساب الآخر.

وإذا تطرَّقنا وبحثنا كوامن النّفس الإنسانية رأينا كثيراً من النَّاس قد أحاطتهم الدُّنيا بأسباب الشَّقاء وهم سعداء يطلقون الضِّحك ويتّسمون بالبشاشة، لا ينفذ الأسى إلى قرار أنفسهم، ولا يأخذ الألم إلاّ ظاهر ملامحهم، ويتجلّى ذلك عند البسطاء من الناس. وكم من الناس قد أحاطتهم الدُّنيا بأسباب النَّعيم، وهم شقاة قد جرَّ عليهم البؤس كلكله، واندفع بهم الألم إلى شتّى مراميه، ومختلف سبله.

وأخيراً في مطاف الإمام في النَّفس وكوامنها يقدِّم باقة زهوره النَّفسيَّة النفيسة في هذه الجملة الموجزة.

(العقل وسط الكل حتّى لا يتكلّم أحدٌ منكم من غير عقل).

والمقصود بالوسط هو محل الإلتقاء، حيث يبسط العقل أمره فتستجيب الأَطراف حتّى أنَّ مجرَّد كلمة تقال، مصدرها العقل.

وأمّا الإستدراك بقوله: **(حتّى لا يتكلّم أحد منكم من غير عقل)** إنّما هو إثبات لما للعقل من هيمنة عامَّة.

نظرته إلى الحق:

نظرة الإمام إلى الحق نظرة عرفانية إنسانيَّة تسمو بسموِّ الإنسان الأَخلاقي، يرتضيها ويتقبَّلها لذاتها ويشعر بالسَّعادة لوجودها.

يستأنس المرء بالحقِّ لأنَّ الحقَّ أحقُّ أن يتَّبع. لأنَّ الحقَّ والخير سيَّان. لأنَّ في الحقِّ تنظيم المجتمعات، وتركن النُّفوس للواقع فتتقبَّل حياتها.

بالحقِّ ينسجم الحكم والشَّعب في وحدة المصلحة، وبسيادة الأُمة.

بالحقِّ يعرف الإنسان إنسانيَّته.

بالحقِّ تنبسط العدالة الإجتماعية، من المجتمع وإليه.

وينظر الإمام الباطل لذاته فيستوحش منه لأنَّ الباطل أحقُّ أن يترك، والنَّفس الطيِّبة لا ترتضيه لأنَّه على خلاف طبعها، ومن كلام له في ذلك وقد ودَّع به أبا ذرٍّ الغفاري عندما نفاه عثمان إلى الربذة. **(لا يؤنسنَّك إلا الحقّ ولا يوحشنَّك إلا الباطل).**

فالإمام يؤمن بنسبيَّة الشُّعور بالأُنس حسب التَّكوين الأَخلاقي للإنسان فمهما اشتدَّت به الخطوب فلا يدفعه ذلك إلى وحشته ما دام مع الحقّ.

(فإنّ الشّقيّ من حرم نفع ما أُوتي من العقل والتجربة).

يصبح الإنسان بدون عقل وتجربة كريشة في مهبِّ الرِّيح تتقاذفه الأَهواء، وتأخذ به العواطف، ليس له عقل راجح يملي عليه واقعه، ولا اجتهاد بتجارب

يوضِّح له أهدافه وسبله، ولم يكن الشَّقاء بعرف الإمام فقراً أصاب، أو غناءاً ذهب، ولا بسلطان أو جاه انعدم. وما فائدة السُّلطان والمال إذا لم يكن عقل راجح يدرك المرء به نتائج تجاربه في الحياة فيختار ما هو أفضل. إنَّما الشَّقيُّ الَّذي لا يدرك منافعه ولا يتَّعظ بتجاربه.

نظرة للإمام في علم النَّفس:

بسط الإمام للإنسان معرفة ذاته ومعرفة نفسه كما بسط له معرفة جسمه.

تعمَّق في معرفة الكوامن النفسيَّة من المظاهر الحسيَّة للإنسان، فأجلى معمَّيات خواطره بعيون مظاهره، متعمِّقاً في استنتاجاته، متسلِّطاً على بحثه.

وفي عصرنا هذا إذا شاء الطّبيب النّفساني فحص مريض بعاهة نفسيه يستدرجه الحديث ثم يستنبط العلّة من هفوات الكلام، وفلتات اللسان فيحل العقدة، ويظهر الكبت.

وما أروع كلمة الإمام: **« ما أضمر أحدٌ شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه، وصفحات وجهه »**[1].

وهذا ما ينطبق والمثل المشهور: **« يكاد المجرم يقول خذوني »**.

وللإمام رائعة أُخرى إذ يقول: « لسانُ العاقل وراء قلبه، وقلب الأَحمق وراء لسانه »[2].

وفي مسير قوله هذا يعطي العاقل صفته اللازمة حيث لا ينطق إلا بعد تدقيق وروِيَّة، إذ تنبع الفكرة من القلب أي العقل ثم تأتي عن طريق اللسان على نقيض الأَحمق الجاهل يلقي بكلامه جزافاً بلا تحقيق أو إدراك.

---

(١) و (٢) مناقب الخوارزمي الحنفي ط ٢ ص ٢٧٢.

وله: **« تكلّموا تعرفوا فإنَّ المرء مخبوء تحت لسانه »** [1].

وبما أنَّ لسان العاقل وراء قلبه، وبما أنَّ قلب العاقل وراء علمه و **(قيمة كل امرىء ما يحسن)** [2] وبذلك لزم أن يكون المرء مخبوءاً تحت لسانه.

ولما سئل عن العاقل قال: **« هو الّذي يضع الشّيء مواضعه »**.

ولما سئل عن الجاهل قال: **قد فعلت**.

فهل يوجد وصف للعاقل وبهذا الإيجاز، وبهذه الإحاطة سبق أن صدر من إنسانٍ على وجه البسيطة منذ أن ترعرع الإنسان، وأدرك وجوده، وعرف حدوده؟

أبداً لا يرقى لهذا الوصف إلا من أُوتي مقدرة على الإستنباط لا يصل إلى شأوها إنسانٌ.

العاقل هو الّذي يضع الشّيء مواضعه، والجاهل من لا يضع الشّيء مواضعه.

---

(١) نفس المصدر ط ٢ ص ٢٧١.

(٢) المناقب للخوارزمي الحنفي ط ٢ ص ٢٦٥.

نظرته إلى القضاء والقدر:

أما نظرة الإمام إلى القضاء والقدر فقد اتسمت بالتّحرُّر المجزوء بمقدار يعيق مجال التحرُّر الكامل.

لم يكن قدراً لازماً إلى حيث لا حول له ولا قوَّة ولا تحرُّراً كاملاً. إنّما هو تحرُّر مجزوء بعوامل اضطراريَّة خارجة عن إمكانيَّة الإنسان. فقد سأله أحد أهل الشام:

«أكان مسيرك إلينا بقضاء الله وقدره؟».

فردَّ عليه: **«ويحك لعلَّك ظننت قضاءً لازماً وقدراً حاتماً، ولو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد»**.

وله في مقام آخر: **«تذلّ الأمور للمقادير حتّى يكون الحتف في التدابير». «إذا حلَّت المقادير ضلَّت التَّدابير»**[1].

يؤمن الإمام بأنَّ لكلِّ حالة لبوسها ولكلِّ وسطٍ أثره ولو كان قدراً لازماً لبطل مفعول العقل والتّجربة وسقط أثر القصاص. والقرآن نصَّ: **«ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب»**.

ولو كان قدراً لازماً لانعدم أثر الهداية والوعظ والإرشاد. والقرآن نصَّ على ذلك: **«إنَّا هديناه السَّبيل إمَّا شاكراً وإمَّا كفوراً»**. **«واهدهم إلى سواء**

---

(١) ط ٢ ص ٢٧٢ المناقب للخوارزمي الحنفي.

السبيل ».

وعلى ذلك فقد توجهك المقادير توجيه تأثير وابتلاء لا توجيه جبر وقدر لازم، ولو كان كذلك لحق إثابة المسيء المفسد لابتلائه بالإساءة مع كثرة ضررها على نفسه ولنزوله جبراً عند إرادة ربِّه. وإطاعتك لربٍّ يأمرك بالإساءة هي أكبر من إطاعتك لربٍّ يأمرك بالخير، حيث يثاب المرء على مدى طاعته.

وحسب العرف المنطقي هو أنْ يعرف الفاعل بفعله، والآمر بأمره، ومن يأمر بالمفسدة ويجبر العباد عليها لا يمكن الرُّكون إليه والإيمان بما يأتي عنه. فكيف لنا أن نؤمن بالقرآن وهو من ربٍّ سبق وأنْ أخذنا للمفسدة أخذ عزيز مقتدر.

فالإنسان حسب طبيعة الأَشياء هو حرٌّ في عمله، وللقدر أثره، وللمحيط مفعوله.

وعلى هذا ذهب الإمام في الموت إلى أجل محتوم يفرضه الإنحلال الجسمي نظراً لعمله الدَّائب حسب سنَّة الحياة. وأجلٍ مخروم. وهو الّذي يتأتّى حسب المصادفة، أم لتعرُّض المرء للهلاك كالإنتحار. وقد نصَّ القرآن على ذلك «**ولا تلقوا بأيديكم إلى التّهلكة**» وفي هذا معنى الإختيار الذّاتي، ولو كان لازماً لامتنع الأَمر، ولذلك فإنَّ من يستشهد فقد كتب الله له الشَّهادة من باب الحمد والثناء لا من باب الجبر والقدر اللازم لأنَّ الّذي يذهب مجاهداً مختاراً لهو أفضل ممن يذهب مجبراً.

الإمام واقعيُّ الحكمة:

يعتقد كثير من المؤرِّخين أنّ الفلسفة في الإسلام وليدة التّرجمة في عصورٍ لاحقة لمستهلّ الثَّورة الإسلاميَّة وذلك ممّا أُثر عن الإغريق والرُّومان، وما نقل عن الهند وفارس. وكأنّ التأمُّل والإدراك، والنَّظر والإستنباط بمعزلٍ عن الرِّسالة المحمَّدية العلويَّة وعن العرب والإسلام.

وكأنّ الحكمة أن تركن إلى دير منعزل، أو تقبع في صومعة بعيدة تستطلع الغيب، وتستوحي القدر، ثم تحبك النَّظريات الفلسفية بما يوحيه الخاطر بعيداً عن واقع الحياة كما هي نظرية المثل عند أفلاطون(١).

أو إقرار سقراط بالظُّلم عمليّاً ودفعه نظريّاً عندما تقبَّل الحكم عليه بالموت ونفَّذه بنفسه وكان له طريقٌ للفرار، وله أنْ يكافح في سبيل مثله الإنسانية في أيِّ مكان يرتئيه، وفي أيِّ مجتمع يتقبَّله.

لم يؤخذ على الإمام ما أُخذ على غيره من كبار الفلاسفة الواقعيين.

لم يكن الإمام إلاّ واقعيّ الحكمة. يستنطق المعرفة من المجتمع وإليه من الحياة ولها.

---

(١) نظريّة المثل هي حسب رأي افلاطون لكلّ موجود محسوس مثال عقلي كامل أزلي مطلق غير مشخص وبذلك لم يؤمن بنسبية الجمال والأخلاق مثلاً عند الناس بل لكلٍّ منهما مثال كامل في عالم المثل كلّما قاربه أحدهما كان أفضل وهكذا.

وكلّما أُثر عن سقراط عن طريق تلميذيه (زينوف في ذكرى سقراط) و(افلاطون في المحاورات) ليقصّر عمّا أُثر عن عليٍّ بن أبي طالب بل لا مجال للمقارنة.

ولو كان عليٌّ من غير الأُمَّة العربيَّة لوضع في مصافِّ الآلهة، ولكان أُعجوبة العصور بنشر معالمه، والإفصاح عن حقائقه، ولكنّا نبخس أفذاذنا حقوقهم لعنعنة جاهليَّة، أم لانحرافٍ عقيديٍّ بغيض.

كان الإمام ملكاً في نفسه، متواضعاً في مجتمعه، سعيداً في معرفته، فقيراً في عيشه، بسيطاً في حياته، عظيماً في مدركاته، عزيزاً في عدله، قدِّيساً في إيمانه. نبيّاً في تجرُّده.

هذه مميِّزات المثل الأعلى للإنسانيَّة.

هذه حياة وطبيعة الفيلسوف الواقعي بأسمى صورها.

كلُّ جانب من معرفته تستوحي منه الحياة بأجمل صورها وها نحن نمرُّ على لمحة من واقعيَّته ونتلمَّس صورة من حقيقته.

يوصي بالحق فيحيطه بشموله وبانطلاق حدوده حيث لا يؤمن بنسبية الحق حسب البيئة والمحيط، وحسب الإرادة والهوى، وحسب حدود جغرافية مصطنعة.

«عليكم بكلمة الحقِّ في الرِّضا والغضب، وبالعدل على الصَّديق والعدوِّ».

هكذا يبني الحكمة على صرح من الحق ليثبِّت المجتمع على صعيد الواقع.

يوصي بالحقِّ ويحث على إشاعته ويقرنه بالأخذ على يد الظّالم السَّفيه بتهاونه بالحقوق العامَّة وأخذه الناس بما لا يلزم:

«تعاطوا الحق بينكم وتعاونوا به وخذوا على يد الظّالم السَّفيه».

فقد عبَّر عن الحقِّ، وقرنه بالإنسان، وطلب التَّعاون به، ولم يتركها حكمةً واردة، وفكرةً عابرة، فحسب بل أرساها على دعائم واقعيَّة اجتماعيَّة.

ومن بليغ حكمه، ورفيع نقده الإجتماعيِّ قوله: «**ولا تضيعنَّ حقَّ أخيك اتكالاً على ما بينك وبينه فإنّه ليس لكَ بأخٍ من أضعت حقّه**». يوصي الإمام

بعدم اتّكال المرء على ما بينه وبين أخيه من قربىً أو من حبٍّ وتواصل أو من عرف اجتماعيّ فينتهز ذلك ليضيع حقَّ أخيه وكما هو معروف شرعاً. «المأخوذ حياءً كالمأخوذ غصباً».

فيلزم تعاطي الحقّ على السَّواء ما بين البعيد والقريب ما بين الدّاني والقاصي.

هذا بيان وتفصيل، وأسلوب في العرض سهل ممتنع لسيِّد البلغاء وأمير الفصحاء.

وحكمة بالغة يدركها المرء بدون جهد ويدرك بها الحقّ وفلسفته وحقيقته.

حكمة يستوعبها العالم الفاضل، والجاهل البسيط كلٌّ حسب مقدرته.

وها نحن نأتي إلى طريف قوله في الحكمة موضِّحاً مدى منزلتها عنده حيث يقرنها بالحياة والحياة بدونها موات.

«واعلموا أن ليس من شيءٍ إلا ويكاد صاحبه أن يشبع منه ويملّه إلا الحياة فإنّه لا يجد له في الموت راحة وإنّما ذلك بمنزلة الحكمة الّتي هي حياة القلب الميّت، وبصر للعين العمياء، وسمع للأذن الصمَّاء، وريٌّ للظمآن، وفيها الغنى كلُّه والسَّلامة».

ومجملُ القول أنَّ التتبُّع والإسترسال في البحث لا يقرُّنا على قرار، ولا يأخذنا إلى نهاية فحِكَم الإمام كبحر محيط زاخر بفرائد الكلم لا تدرك حدوده ولا يحدُّ وجوده.

قد تسطّر الكتب، وتكتب المطوّلات، في يسيرٍ من حكمه أو عهدٍ من عهوده أو خطبة من خطبه، ولكنّا التمسنا في بحثنا هذا باقةً واحدةً من جنان معارفه، ونهلنا كأساً واحدة من ينابيع مدركاته.

هذا عليٌّ في واقعيّته، في لمحةٍ من ملامح عبقريّته.

هل أدركه الماضون؟

وهل يأمل اللِّحاق به الحاضرون؟
ماذا ترك لسواه من المصلحين ومن الحكماء الواقعيين.
لم يدركه أحد إذ سما حقّاً إلى شأوٍ بعيد المنال.

هذا عليٌّ أحد مصلحينا، أحد حكمائنا، أحد مرشدينا، أحد رجالنا المؤمنين بالإنسانيَّة العاملين على رفع مستواها.

فهل لعصر النُّور عصر حقّ تقرير المصير - كما يزعمون - من ساسة أو روّاد للحقّ يأتون إليه كما أتاه الإمام؟

وهل من عدل في عصر تتراشق فيه الألسن بالصَّواريخ، وبالطَّاقة الذرِّية المدمِّرة، وتتسالم فيه الأنفس على الإستغلال، وهضم الحقوق، وكسب المغانم، كلُّ ذلك على حساب بؤس الشُّعوب الضَّعيفة وعلى نكدها. هذه مبادىء الإنسان في القرن العشرين، مبادىء كبار السَّاسة، وأساطين الحكم. وتلك مبادىء الرِّسالة العلويَّة الإسلامية في قرون ساحقة موغلة في القدم.

ما أسعد العالم لو أعطى الظَّرف والقدر للقرن العشرين هادياً كعليٍّ يقود أحراره إلى حيث الخلود، إلى حيث الإنسانية المطلقة، إلى حيث يتبوَّأ المرء مكانته تحت الشَّمس.

بعض الشواهد على معرفته

نظرته في الفلك:

لم تكن معرفة الإمام منوطة بالحكمة الحسنة فحسب، أو بالبحث الإجتماعي أو الفقه الشرعي، فقط أو كأديب بليغ وخطيب أريب ليس إلا، وإنّما انطلق بنظره إلى الكون فاستنطقه على أُسلوب الفلكيين المحدثين، فلم يلجأ فيما يقول إلى التورية والإحتمال بل يرسله كمسلّمات قد بتَّ فيها وهي حقاً كذلك، ومن بديع قوله ما وصف به الأرض كما جاء في نهج البلاغة:

« وأرساها على غير قرار، وأقامها بغير قوائم، ورفعها بغير دعائم ».

لو أردنا التأمُّل واستدراج المعرفة إلى شاطيء الحقِّ لألفينا الإمام قد انطلق بعظيم عقله إلى أصدق وصف وأوفى نظر.

يقول: **« وأرساها على غير قرار »** أي وثبّتها على حركتها قاصداً بهاء الغائب تلك الذّات الإلهيَّة، وتلك الطّاقة العقليَّة الكونيَّة، حيث أرست هذه الكرة في فلك لا تحيد عنه، وفي حركة لا قرار فيها ولا وقوف، سابحةً في هذا الكون اللانهائي الحدود - حسب مفهومنا العقلي - بدون سند أو عمد.

جملة ما أوجزها، وما أوسع مضمونها، وما أعظم مرماها وأدقّ قصدها.

هذا الإمام وفي عصر الإسلام الأول منذ أربعة عشر قرناً.

وهذه أُوروبا وفي عصر قريبٍ تحكم على العالم الإيطالي المشهور (غاليلو) بالموت لأنَّه قال بقول الإمام ثمّ تنازلت عن الحكم إلى السِّجن مدى الحياة مذ تنازل مرغماً عن رأيه. ويستدل الإمام على عظيم القدرة وجليل الصِّنعة بانطلاق الأرض في

هذا الكون وإرسائها بهذا المنطق، وليس لها قوائم ترفعها، أو أوتاد تسندها.

ثم يسترسل في الوصف، وينبىء عن منطلق من المشاهدات العقليّة المهمّة في عصر لم تكن مراصد فلكيّة، ولا أبحاث منسّقة علميّة حيث يقول في وصفه للأرض **« وعدّل حركاتها بالرّاسيات من جلاميدها »**.

أفاض الإمام أيّما إفاضة في كلمات مجملة ذات معانٍ واسعة إذ ذكر الحركة بالجمع فاقتضى التعدُّد والتّنويع وفي هذا ذهب أنّ للأرض عدّة حركات أو أكثر وللعلم الحديث الرّأي نفسه.

ثم يلحف الإمام في الوصف، ويكشف القصد، ويطنب في التّوضيح، حتّى لا يبقى من شكٍّ لشاكٍّ حيث يقول: **« فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو تسيخ بحملها أو تزول عن مواضعها »** أي فلكيٍّ وصل شأوه؟

وأيُّ رياضيٍّ أدرك سبره في عصور موغلة بالجهل؟

وهل أضاف العلم الحديث وصفاً أدقّ، وموجزاً أعمّ، وحقائق أنصع من هذا القول وقد قاله في زمن لم تكن للمعرفة أسباب آليّة أو معارف ذات صفة استقرائية أو رياضيّة.

يقول، سكنت الأرض لشعورك بسكونها مع أنّها في مجال حركتها دون أن تميل بمن عليها أو أن تهبط (حسبما هو متعارف) بثقل حملها وهي مع ذلك دائبة الحركة في مواضعها من فلكها.

وممّا جاء في الكافي والبحار عن الإمام. (أنّ الشّمس لو كان وجهها لأهل الأرض لأحرقت الأرض ومن عليها من شدّة حرّها).

ندرك من هذا القول ما يأخذنا إلى إيمان الإمام بوجود غلاف الجوّ الواقي من الإشعاعات الشّمسيّة والّذي يعكس الكثير من أشعّتها ثم يكسر الأشعّة الباقية عن استقامة مسيرها.

وما الزُّرقة في السّماء إلا انكسارٌ لأشعّة الشّمس في جوّ الأرض. وهذا الإنعكاس والإنكسار ما يبعث وجهها عنا ولو كان الحال على خلاف ذلك لانبسطت الشّمس نحونا بوجهها السّافر ولأحرقت الأرض ومن عليها.

ومذهب الإمام هذا يخالف الحسّ والنّظر، والإنسان في قديم الزّمن يستنتج حسبما يرى ويحسّ، والشّمس مائلة بوجهها إلينا، مرسلة بأشعّتها لدينا فهذا رأي غريب النّزعة قديماً وقد حقّقه العلم وأثبته حديثاً.

إمكانيَّاته الرِّياضية:

وممَّا يؤثر عنه من إجابات يطلقها عند السُّؤال بدون أن يلتمس قرطاساً وقلماً فتأتي النَّتيجة صحيحة مع أنَّها تحتاج إلى كثيرٍ من التَّأمُّل وممّا هو مشهور عنه قصَّة الأَرغفة.

إحتكم إليه رجلان كان لأحدهما خمسة أرغفة وكان للآخر ثلاثة فجالسهما ثالث وبعد انتهائهم من أكل الثّمانية أرغفة طرح إليهما ثمانية دراهم، فما يكون نصيب كلٍّ منهما؟.

وممَّا يروى أنَّه لم يرتض هذه المخاصمة وهي في سبيل دريهمات معدودة ولكنَّه أجاب.

«**لصاحب الثَّلاثة درهم واحد ولصاحب الخمسة سبعة دراهم**» وهذا هو الواقع لأنَّ كلاًّ من الثَّلاثة رجال قد أكل رغيفين وثلثي الرَّغيف. فكان ما أكله الثَّالث ثلث رغيف من صاحب الثَّلاثة أرغفة. ورغيفين وثلثاً من صاحب الخمسة أرغفة.

وجاءه ثلاثة رجال يختصمون في سبعة عشر بعيراً. لأحدهم نصفها وللآخر ثلثها ولثالثهم تسعها فقال لهم: «**أترضون أنْ أضع بعيراً منِّي فوقها وأقسِّمها بينكم؟**» فرضوا. فأصبح المجموع ثمانية عشر بعيراً.

أعطى صاحب النِّصف تسعة، وصاحب الثُّلث ستَّة، وصاحب التُّسع اثنين، وبقي لديه بعير وهو الَّذي وضعه وهو بعيره.

كان الشَّرع الإسلامي شديد الإتِّصال بالرياضيَّات لاحتياجه إليها وبالأخص

في تقسيم الإرث وفي جمع الخراج وفرض الزّكاة.

وقد نسبت للإمام كثير من الحلول لمسائل شرعيّة رياضيّة شائكة. ولكنّي ذكرت بعض الشّواهد ذات المرمى الرّياضيّ الصّرف.

ومن وصاياه الطبيَّة:

وفي هذا المجال قد تأتي عنه بعض الوصايا عرضاً ولكنّا نلتمس فيها الصّحة وصدق الرّأي. وفي ذلك قوله لولده الحسن (ع):

«ألا أُعلّمك أربع كلمات تستغني بها عن الطّب؟» فقال: «بـــلى يا أمير المؤمنين».

فقال (ع): **«لا تجلس على الطّعام إلاّ وأنت جائع، ولا تقم عن الطّعام إلا وأنت تشتهيه، وجوِّد المضغ، وإذا نمت فاعرض نفسك على الخلاء».**

وهذا ما أثبته الطّب وأوصى به إذ أنَّ إدخال الطّعام على الطّعام في المعدة يسبّب إرباكها وفساد الوجبتين واختلال العصارات في إفرازها، ثم ينجم عن ذلك سوء الهضم.

وأما إجادة المضغ: فلا ينتفع الإنسان من الموادّ النشويّة كغذاء حتّى تتحوّل إلى موادّ سكريّة بفعل اللُّعاب ولا يتم ذلك إلا بإجادة المضغ.

فزيادة المضغ يثبّت التحوُّل وينشّطه، وكذلك يقوم بسحق الطّعام وتهيئته للهضم وبذلك يساعد المعدة.

وأما إذا ذهبت إلى الخلاء قبل ذهابك إلى فراشك فإنّك تقضي على الإضطرابات المعويّة، وعلى الغازات الّتي لا تدعك تنام نوماً هادئاً.

وإنَّ الإمتصاص المتكرّر للفضلات المعويّة يسمّم الجسم، ويولّد القبض وهذا ما

يحصل عند الإستغراق في النَّوم على الإمتلاء.

ومن أوفى بهذه النّصائح فحقاً إنَّه سيستغني عن الطِّب فيا يمس جهازه الهضمي وكما هو معروف.

« المعدة بيت الدّاء والحمية رأس الدَّواء ».

ومما ينسب له طبيّاً « اجتنب الدَّواء ما احتمل بدنك الدّاء فإذا لم يحتمل الدّاء فالدَّواء ».

وهذه حكمة طبيَّة أثبتها العلم الحديث حيث أنَّ إدخال الدَّواء لأبسط الأسباب لا يبقي للجسم مقاومته على المرض لأنَّ للإنسان امكانيَّة الدِّفاع عن نفسه فيلزمنا تنشيطها فإذا التمسنا الدَّواء كليّا تقاعس الجسم عن اداء واجبه. فلا يستعمل الدَّواء إلاّ عند استعصاء الدّاء.

ثم إنَّ الموادَّ الصَّيدلانية غريبة عن الجسم مَّما قد تسبِّب ترسُّبات وردود فعل غير مستحسنة.

وأخيراً قد يدخل إلى الجسم بسبب خطأ الفحص دواء ليس بحاجة إليه.

ومن محاسن وصاياه: « ابدؤا بالملح في أوَّل الطَّعام فلو علم الناس ما في الملح لاختاروه على التِّرياق المجرَّب »[1].

وهذه وصيَّة قد أوردها الطِّب وأثبتها، لما للملح من خاصية امتصاص ماء الجراثيم والبكتريا الضَّارة، وقابليَّة إطلاق الكلور المعقِّم، ولذلك يُستعمل لحفظ اللُّحوم من التعفُّن السَّريع.

وللإمام وصيَّة طبيَّة قيِّمة: « لا صحَّة مع نَهَم »[2].

وهذا قول مفروغ من صحَّته حيث الإكثار من الطّعام يمدِّد عضلات المعدة فيضعِفها، ويقلِّل من تأثير الإفراز المعوي، وينهك الأَجهزة بكثرة العمل، ويلقي بكميَّة من الشُّحوم في الجسم نظراً لفائض الغذاء مما يجهد القلب، ويسبِّب الضَّغط العالي، وينهك الكبد، ويبعث السُّموم.

---

(١) ص ٤٥٣ المطالعات في مختلف المؤلّفات.

(٢) عن مائة كلمة لأمير المؤمنين جمعها الجاحظ. ف ٢٤ المناقب للخوارزمي الحنفي.

في مجال البحث الفيزيائي:

وله رأي صائب جميل في حالة له أضرابها مما لها صلة بالفيزياء. فقد ذكر الصّدوق في رواية عمر بن شمر عن حفص بن غال الأَسدي قال: بينما كان رجلان جالسين اذ مرَّ بهما غلامٌ مقيَّد. فقال أحدهما: امرأتي طالق إذا لم يكن وزن القيد كذا.

وقال الآخر: امرأتي طالق إذا كان حسبما قلت.

ولما طلبا من مولى الغلام حلَّ القيد لوزنه حلف أيضا بالطَّلاق أن لا يحلّه. ولمّا احتكموا إلى عمر بن الخطاب (رض) أحال الأَمر على عليٍّ (ع) فحلَّ معضلتهم على الوجه التالي مع علمه بعدم حدوث الطّلاق ولكنّه التمسها مسألة تحتاج إلى حل.

أتى بجفنة وأمر بشد خيط في القيد وأدخل رجلي الغلام والقيد في الجفنة ثم صبَّ عليه الماء حتّى امتلأت ثم أمر برفع القيد إلى الأعلى بسحب الخيط فرفعوه حتى خرج من الماء فنقص الماء بقدر حجم القيد. ثم أتى بحديدٍ مشابه لحديد القيد فوضعه في الماء حتى رجع مستوى الماء إلى موضعه ثم أمر بوزنه فهو وزن القيد.

الايمان عند الامام

انبسط الإيمان الدِّيني في قلب الإنسان منذ أن أدرك وجوده، والتمس محيطه وحدوده، كجزءٍ من الإنطلاق الفكريِّ العقائدي.

كان الإيمان ينبسط تارة على مستوى عقليٍّ حكميّ، وتارة على شكل طقوس قد لا يتقبَّلها العقل، ولا يرتضيها المنطق، والناس تأخذهم العقائد، ويتحكَّم فيهم الإيمان إنْ خيراً فخير وإنْ شراً فشرّ.

والعقيدة الدِّينيَّة كقانون طبيعي يلتمسه العقلاء لتشذيب نوازع النَّفس الإنسانيَّة ووضعها في رادع من ذاتها. «**ومن أمن العقاب أساء الأدب**».

فإذا شعر الإنسان بوعد ووعيد يلازمه في ذاته يصبح ورعاً يرعى نفسه ومحيطه.

وإذا نشأ الفرد في وسط صادق في إيمانه، واقعي في نزعته، رقَّت عواطفه، وسمت نوازعه، حتَّى يصبح الحق عادة في نفسه، وطابعاً لأعماله.

والمجتمع الإسلامي حسب تقرير الشَّريعة الإسلامية هو مجتمع متكافل متكامل، في عقيدة تجمع أطراف الحكمة، ورصانة الحكم، في حبك اقتصادي، وعدالة اجتماعيَّة، وقوّة عسكريَّة ضاربة بفرض الجهاد.

وافى النَّبي (ص) الأجل والدَّعوة في شموخ دفعها وكان عليٌّ في مستواها. عليٌّ والدَّعوة متكاملان كلاهما في عنفوان شبابه وقوَّة اندفاعه. لأنَّ حملها ثقيل وأمرها عظيم. وهو العبقريُّ الشَّاب ذو الإمكانيَّات الجسمية الخارقة، والعقليَّة

الواسعة.

عليٌّ مع الدَّعوة متكاملان لكي تنبسط على الأَرض قاطبة حسبما خطَّط لها محمَّد وعليٌّ، لكنَّها بعد الرَّسول اندفعت عسكريّاً على غير مستواها العقيدي وهذا ما سبَّب الإختلاف فيها فيما بعد، وكذلك أودعها إلى ركود الإندفاع العقيدي.

نحن ندرك أنَّ مدار الأَديان قاطبة التعلُّق بذات سامية تنبعث منها مظاهر الوجود وحقائقه، يلتمسها المؤمن مباشرة أو بوساطة كالأَصنام كما يعتقد المشركون.

والإختلاف بين الأَديان السَّماوية اختلاف في كيفيَّة التأليه وصفته، والإستدلال عليه، ومعنى الإيمان، وكيفية العمل به.

وبالطَّبع لا تؤخذ الأَديان لمجرَّد إيمان ذاتي وإنَّما تهيِّئها ظروف وأحوال على لسان إنسان سوي، وبذلك يكون مقياس السُّمو المعنوي للدين متمشيّاً مع مقدار سموّ باعثه وناشره.

ولا أعتقدني مغالياً إذا قلت بأنَّ أمثل إنسان يستحق أن يكون ناشراً لهذا الدِّين، ومثلاً حيّاً له هو عليٌّ بن أبي طالب فهو المواكب الأفضل لخطى باعثه محمد ابن عبد الله (ص)، وهذا ما ذهب إليه عامَّة المسلمين إلا من يسهل الطَّعن فيه.

عليٌّ أفضل مسلم عرف الإيمان، وأظهر خفاياه، ووضَّح مظاهره، وأدرك حقائقه، وتحكَّم في فلسفته ونوازعه، والتمسه في حكومته وتشريعه، وتبنّاه في سنَّته واجتهاده.

نظرة الإمام إلى الله تعالى:

لم ينظر عليٌّ إلى الله تلك النَّظرة الضيِّقة حيث يحدِّد بحد، أو يعدُّه بعد، أو ينزله حيث الصِّفات الإنسانيَّة الَّتي يستوعبها الإنسان من محيطه ومن خلقه وتكوينه. بل ينطلق الإمام في عالم مثاليّ روحانيّ بلا أمد أو حدود حتّى كأنَّك وأنت تقرؤه في عالم إيمانه قد خرجت من عالم جسمك وتأثير حواسّك إلى عالم إلهامي روحاني عقلي ثم تتفحص موقعك فإذا أنت لم تبارح جسمك، ولم يبعدك إيمانك عن حقيقتك، فأنت في واقعك وفي مدركاتك.

يوضِّح لك بأُسلوب منطقي بليغ، واستدلال عقلي رصين، ما هو الله فكأنَّك تتلقَّفه من لسانه، وتتلمَّسه وتتجسَّده، ولكنَّ العقل الإنساني يقصر عن إدراك الغاية حتَّى يشرف على الكمال. والكمال سيبقى حُلم الإنسان على مدِّ الحقوب وانصرام الزَّمن.

ولا يمكن إدراك المطلق الكامل إلا بكامل لتشابه الصِّفات، والإنسان أعجز من أن يدرك نفسه فكيف له أن يدرك ربَّه. **«ومن عرف نفسه فقد عرف ربَّه»**.

وقد سأله (**ذِ علب**) وكان ذرب اللسان بليغاً:

يا أمير المؤمنين. هل رأيت ربَّك؟.

فقال: **ويلك يا ذِعْلب لم أكن بالّذي أعبد ربّاً لم أره.**

قال: فكيف رأيته صفه لنا؟.

قال: **ويلك. لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ولكنّه رأته القلوب بحقائق**

الإيمان.

ويلك يا ذعلب إنَّ ربِّي لا يوصف بالبعد ولا بالقرب، ولا بالحركة ولا بالسُّكون، ولا بالقيامِ قيام انتصاب، ولا بمجيء ولا بذهاب. لطيف اللطافة لا يوصف باللطف...

هو في الأشياء على غير ممازجة. خارج منها على غير مباينة...

داخل في الأشياء لا كشيء داخل، وخارج منها لا كشيء من شيء خارج.

ينبع الإيمان من القلب فيأخذ بالعاطفة ويظهر في الهواجس فيتمكَّن من النَّفس فيشذِّب أخلاقها، ويثبِّت صفوها، ويقوِّم اعوجاجها.

لم تر الله العيون بمشاهدة الأبصار حيث استوعب الكون وجوده لا بممازجة أو مخالطة وإنَّما بقوَّة مسيِّرة شاملة لما هو موجود ولما لم يفض فيه بعد من حقائقه ومن خلقه فهو فراغ لا نهائي كما هو معروف في وسطنا الأرضي، وقد يكون على غير ذلك.

وصفه الإمام بما يمكن للإنسان أنْ يصف ربَّه، ولكنَّه أخرجه من تلك الصِّفات حيث لا يقرن بما يوصف به من صفات بشريَّة والَّتي أطلقها الإنسان على ما هو ملموس ومحسوس والله (**لطيف اللطافة لا يوصف باللطف**).

هكذا يسير الإمام في إيمانه.

لم يلحق في تعبُّده تجسيماً يطلق بحدود، أو كائنا يحدُّ بمكان.

هو الذَّات العاقلة حيث الإنبساط في كون غير محدود، وهو المطلق حيث لا يستوعبه الزَّمان والمكان.

نزع عليٌّ للإيمان منزعاً ما سبقه إليه سابق، ولا لحق به لاحق، لم يؤمن إيماناً يأخذ به إلى قناع الزُّهد أو إلى برقع التَّصوُّف، بل إيمان المتطلِّع العارف، المدرك لمعنى الربوبية، والمحدّد لهذا المفهوم، ناظراً ذلك بمنظاره الواقعي.

يحلِّق ويحلِّق حتَّى يمتدَّ كالجبل الأشمّ، أو كمسير من أحزمة النُّور أصلها ثابت في الأرض وامتدادها في السَّماء، يستوحي المعرفة، ويرتشف الوحي.

يستوعب من ضالته الحكمة ويمتلىء من حقيقته المعرفة متَّصلا بذات الوجود

باحثاً ومفكّراً حتّى يتجرَّد من الدُّنيا لأَجلٍ من فيها، لا تجرّد تصوُّف وانقطاع بتزهد بدون معرفة وإنَّما تجرّد للحقِّ للخير لله من حيث هو مصدر الخير والسَّعادة لا مصدر الباطل والشَّر.

إذا وصف الله أثارك في مشاعرك، وهزَّك في عقلك، وأخذك في عواطفك، وذهب بك إلى عالم مثاليٍّ، بمحيط واقعيٍّ، وبذلك لا تتعدّى أن تكون في حضرة واقعيٍّ يتطلَّب ذات الوجود.

ومما جاء في نهج البلاغة:

«الحمد لله الدَّال على وجوده بخلقه، وبمحدَث خلقه على أزليَّته، وباشتباههم على أنْ لا شبه له، لا تستلمه المشاعر (الحواس)، ولا تحجبه السَّواتر، لافتراق الصَّانع والمصنوع، والحادِّ والمحدود، والربِّ والمربوب، الأحد بلا تأويل عدد، والخالق لا بمعنى حركة ونصب، والسَّميع لا بأداة، والبصير بلا تفريق آلة والشَّاهد لا بمماسَّة، والبائن لا بتراخي مسافة، والظَّاهر لا برؤية، والباطن لا بلطافة، بان في الأشياء بالقهر لها والقدرة عليها، وبانت الأَشياء منه بالخنوع له والرُّجوع إليه. من وصفه فقد حدَّه، ومن حدَّه فقد عدَّه، ومن عدَّه فقد أبطل أزله. ومن قال كيف؟ فقد استوضحه ومن قال أين، فقد حيَزه عالم إذ لا معلوم، وربٌّ إذ لا مربوب، وقادر إذ لا مقدور».

إستدلَّ الإمام على وجود الله استدلالاً استقرائيّاً لا استنتاجيّاً، ولا أمراً غيبيّاً، ولا عقيدة ذات مسلّمات مفروضة، فقد رأى وأمعن النَّظر، وعرف لكلِّ مصنوع صانعاً ولكلِّ مخلوقٍ خالقاً وهكذا التَّسلسل يأخذ بنا إلى وجود خالق أوَل

أزليّ أوحد ولا ضير اذا سمَّيناه الله وأطلق عليه غيرنا أسماء أُخرى.

نزَّهه عن التَّشبيه، ومن شبَّهه فقد ثنَّاه، ومن ثنَّاه فقد أشرك. لم تدركه الحواس فكلُّ مُدْرَك محدود، وكلُّ محدود مخلوق.

هذا الكون الشَّاسع الأَرجاء ما بين أدقّ وجوده، وأوسع حدوده، يسير حسب سنن وقوانين مرعيَّة عامَّة شاملة شمول الكون، منطلقة انطلاق اللانهاية. فلا بد لها من قوَّة مهيمنة جبَّارة مسيِّرة.

لم تدركه الأَبصار بمشاهدها، بل أدركته البصائر بمعارفها.

ابتعدت عنَّا رؤيته لا بلطافة شفَّافة لا تدركها الأَبصار، بل نأى لقصور إدراكنا عن معرفة كنهه.

أبطل الإمام كلَّ وصف غير مجرَّد وكلَّ نعت غير مطلق. بأن الخالق من الأَشياء بالقدرة على تكوينها، وعلى جعل الإختلاف في أشكالها إذ لا قدرة للشّيء على خلق نفسه، فلا بد أن يكون الخالق غير المخلوق، والصَّانع غير المصنوع.

بانت الأَشياء منه حيث تقيَّدت بشموله، ونزعت بإرادته، واختلفت بمشيئته، وهذا ما جعلها غير خالقها ودون صانعها.

لا يطلب وصفه بكيف، ولا يحدُّ مكانه بأين.

حيث لا وصف يدركه، ولا مكان يحدُّه.

عالم لا على اعتبار علم بمعلوم، لأنَّ العلم عرفاً يأتي بعد وجود المعلوم وهو قبل وجوده.

وقادر لا على اعتبار وجود مقدور عليه لأنَّه منزَّه عن القياس وبعيد عن التنسيب وهو قادر قبل وجود ما هو مقدور عليه.

هذا فيض من تعبُّده وطريق أبلج من طرق ارتياده للمعرفة والحكمة.

ومن قوله في وصف ربِّه: «لم يخلق الأشياء من أصول أزليَّة، ولا من أوائل أبديَّة».

فلو خلق الأَشياء من أُصول أزليَّة لوجب التِّعداد فيا هو أزلي، ولبطل القول

بوجود ذاتٍ واحدة أزليَّة. وحينذاك لا يبعد القول بتعدُّد الآلهة، ولبطلت الحجَّة بالتَّوحيد.

وإذا أردنا أن نبحث في أُصول الخلق، وحقيقة التَّكوين فقد أبطل العلم وجود أُصول أزليَّة بوجود العناصر الَّتي يربو عددها حتّى الآن على المائة.

فلو أخذنا العناصر من حيث بناؤها لكانت الذرَّة هي الوحدة المشتركة في ذلك البناء وما الإختلاف فيما بين العناصر إلاّ اختلاف الوزن الذرِّي لكلِّ عنصر، فذرّات العنصر الواحد متشابهة في جميع الصِّفات ومتساوية في الوزن.

ونظراً لتقدُّم البحث المختبري في موضوع الذَّرة أمكن الوصول إلى وجود دقائق تحمل أصغر شحنة كهربائية سمِّيت (الكترون) وأنَّها تنبعث في كلِّ المواد لذلك أمكن التَّثبُّت بأنَّ (الكترون) الوحدة الأَساسيَّة لبناء جميع الذَّرات وأنَّ تفجير القنبلة الذَّرية أثبت عملياً إمكان تحويل المادَّة إلى طاقة.

وقد عرف العلم الحديث الجسم بأنَّه (طاقة مجمَّدة) فأصبح ممَّا لا مجال للشكّ بأنَّه لا توجد أُصول أزليَّة، وإنَّما تسلسل في الخلق، وفي الأصل فيض من ذات الوجود بطاقة شاملة وبروح عامَّة، وبذلك فإنَّ من يقول بخلود العناصر فهو زعم باطل وأنَّ كلَّ ما هو موجود في الكون هو بالأصل طاقة شاملة.

ومن قوله في تعريف الله:

« فاعل لا باضطراب آلة، مقدِّر لا بجولة فكرة، غنيٌّ لا باستفادة، سبق الأوقات كونه، والعدم وجوده، والإبتداء أزله ».

ليس الوجود إلا فيض من طاقة ولكلِّ فيض مصدر.

انبسط الوجود، وتكونَّت السُّدم، وظهرت المجرَّات، وانتظمت العوالم، لا بفعل آلة، ولا بسبق فكرة. التمسه الإنسان لإيمانه بوجود خالق أزلي.

والتمسة الوجود لأنَّه كائن من تطور فيضه.

وسع الكون أمره، والوجود قدرته، حيث أتته طائعة لملكيَّته، مجبرة الى تكوينه وتطويره، خاضعة لسننه وقوانينه.

لا يملك ليستفيد لأنَّه غنيٌّ عن الحاجات.

ويقول الإمام لا تصحبه الأوقات.

وما الوقت إلا ذلك الإنتقال لموقعنا على سطح الأرض نتيجة لدورانها حول نفسها وبذلك يحدث الليل والنَّهار بالنِّسبة لنا إذا أكملنا مع الأرض دورة كاملة.

ونتيجةً لحركة الأَرض بدورة كاملة حول الشَّمس تحدث الفصول الأَربعة.

وليس للوقت من أثر بدون حيِّز وحركة، فالحركة والزَّمان متلازمان حيث الزَّمن مظهر للحركة فإذا بطلت بطل الزَّمن، فلو بطلت حركة الأَرض لم يكن عندنا وجود للزَّمن.

وقد قال الإمام **(لا تصحبه الأوقات)**، **(سبق الأوقات كونه)** حيث لكلِّ موجود زمن يصاحبه كما هو معروف فيما مضى فوجود الشَّيء لازمٌ بوجوده في زمانه.

وهذه لمحة من عبقريته، وناحية من واقعيته، حيث آمن بحدوث الزَّمن وخلقه، ولم يجعله أزليّاً، ولم يجعله ذاتاً بل عرضاً.

ولمّا كان الله منزَّهاً عن الحركة والتَّجسيم، فلزم أن ينزَّه عن الوقت كذلك.

ولمَّا سبق الخلق وجوده وأزله، وبوجود الخلق وجدت الأَجسام وبها وجدت الحركة وبالحركة ظهر الوقت فلزم سبقه للوقت، وهذا ما ذهب إليه الإمام بقوله: **(سبق الأوقات كونه)**.

خلق الله الكون من فيضه فسبقه، وابتدأه بازليَّته فتقدّمه.

هكذا يوحِّد الإمام ويؤلِّه.

أدرك الإمام أنَّ ما وصل إليه بإيمانه قد لا تدركه الصَّفوة العالمة فكيف بالعامَّة الجاهلة ولذلك أثار في الإنسان ناحية من المعرفة لله يتبصَّر بها العالم والجاهل ويدرك كلٌّ منهما بها جهله. كلٌّ يستوعبها حسب قدرته وهي لازمة للإنسان لزوم وجوده، هي هذه العبارة الخالدة الفريدة **« من عرف نفسه فقد عرف ربَّه »**[(١)].

---

(١) ف ٢٤ المناقب للخوارزمي الحنفي ط ٢ ص ٢٧١.

كلمة ما أسهل لفظها وما أوسع مضمونها.

وقد سبق أن قال سقراط (إعرف نفسك).

ومن الَّذي يستطيع أن يعرف نفسه؟

ومن الَّذي يستطيع بتلك المعرفة أن يعرف ربَّه؟ فمعرفة النَّفس فوق الإدراك.

من يعرف نفسه في دقَّة تفاصيلها، وسرعة مشاعرها، وانطلاق تفكيرها، ومستوعب عملها؟

من يدرك الخليَّة الإنسانيَّة في تفاصيل بنائها، وصغر حجمها، وتناهي تكوينها، واختلاف أثرها، وعظمة هندستها؟

من يدرك الأَجهزة الجسميَّة في كنه معرفتها، ودقيق عملها، واختلاف واجباتها؟

من يدرك هذا الإنسان الفاني فيستوقفه مذ يحبو طفلاً، ثم يترعرع شابّاً، ثم ينهض كهلاً، ثم يذوي شيخاً، في عشرات من السِّنين فإذا بلغ من الإدراك مبلغه تناولته يد المنون لا حول ولا قوَّة؟.

من يدرك تلك المشاعر المتضاربة في قرار النَّفس الواحدة.

من خوف وشجاعة، وجزع وصبر، وشقاء وسعادة، وكبرياء وتواضع، وحب وبغض، وما إلى ذلك.

كلُّ البناء الإنساني الشامخ على مدِّ الدُّهور إنَّما هو وليد أفكار البشر، فما هو الفكر الإنساني بكنهه وحقيقته.

ومن أرادَ الإسترسال في ما استوعب الإنسان لضلَّ في تيه لا حدود له.

ومن أدرك عظمة المخلوق أدرك عظمة الخالق.

ومن لا يدرك نفسه وهي الَّتي بين يديه فبالأحرى أن لا يدرك ربَّه.

تعريف الإمام للمؤمن:

عرَّف الإمام الإيمان بالله فأفاض في التّعريف وأحكم القصد، وها نحن نأخذ بوجهته صوبَ المؤمن حيث عرفه فبعثه إنساناً له صفاته ونعوته ومميِّزاته وأهدافه. وممَّا يعرفه به قوله:

« قد لبس للحكمة جنَّتها، وأخذ بجميع أدبها، من الإقبال عليها، والمعرفة بها، والتفرُّغ لها، وهي عند نفسه ضالّته الّتي يطلبها، وحاجته الّتي يسأل عنها ».

دلَّ على المؤمن فأوفى الدّلالة.

دلَّ عليه، أن تكون الحكمة ضالّته يبحث عنها ويبعثها. والحقيقة غايته يسير نحوها، والإنسانيَّة مبدأه وعمله يدأب للذّود عنها.

أن يكون المؤمن حكيماً يسترشد بعقله ويستوحي معارفه ويتّبع هديه.

لم يؤمن إيمان تزمُّت وترهبن. أو إيمان تصوُّف وانعزال، بل إيمان المتأمِّل الحكيم الّذي يبحث عن الحقيقة فيستوحيها شعوره، ويتمثّل بالإنسانيَّة فيحملها شعاراً ومبدءاً، ويتّصف بالأدب الجمّ والخلق القويم فيتّخذه سلوكه وعمله.

هو ذلك المؤمن الّذي يبسط المعرفة فيستنطقها عقائده ومبادئه وإيمانه، ثم يستدلُّ بالعقل والمنطق.

هو ذلك المؤمن المنطلق بمعرفته في هذا الكون يندفع في مراميه مستلهماً وباحثاً.

ثم يستطرد الإمام في وصف المؤمن كما جاء في نهج البلاغة.

« يمزج الحلم بالعلم، والقول بالعمل، تراه قريباً أمله، قليلاً زلله، خاشعاً قلبه، قانعة نفسه، سهلاً أمره...».

« الخيرُ منه مأمولٌ، والشَّرُّ منه مأمون ».

« إنْ كان في الغافلين كتب في الذّاكرين، وإنْ كان في الذّاكرين لم يكتب من الغافلين ».

« يعفو عمَّن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، بعيداً فحشه، ليّناً قوله، غائباً منكره حاضراً معروفه، مقبلاً خيره، مدبراً شرُّه ».

« وفي المكاره صبورٌ، وفي الرَّخاء شكور...».

وأيم الحق إنَّه لوصفٌ للمشاعر الإنسانية المحلِّقة في إلهامٍ طبيعي خلاَّب على صعيد المثل والقيم والحقِّ والوجدان.

إنّه عالم الإنسان الكامل، في المجتمع الفاضل، في الحكم العادل، الماثل بواقعيَّته وحقيقته.

هذا مؤمن الإمام ولكلِّ إنسان قدره ومقدرته على الإيمان.

إنَّها كلمات لو استنطقها المتأمِّل الحكيم، وتبصَّر بها الإنسان السوي، وأدركها العامَّة من النَّاس، لخلقت مزاجاً شعبيّاً رفيعا تجلَّل بأسمَى آيات الأخلاق القديمة.

إنَّها لحكمة بالغة، إنَّها لحكمة تغني كلَّ مصلح وحكيم.

إنَّها حكمة حقّاً إذ كانت منتهى مطاف النبوَّة وخاتمة الوحي بمحمد وبتلميذه الفذِّ عليِّ بن أبي طالب.

وله في الإيمان معنى العقيدة الشَّاملة من حيث الخلق الجمّ، والسُّلوك الإجتماعي السليم.

وممَّا عرف فيه الإيمان قوله:

« الإيمان أن تؤثر الصِّدق حيث يضرُّك على الكذب حيث ينفعك، وأن لا يكون في حديثك فضلٌ عن عملك، وأن تتَّقي الله في حديث غيرك ».

وما الإيمان الَّذي يلتمسه الإمام لمجتمعه وللمسلمين قاطبة إلا الصِّدق في القول

والعمل، وعند الضرّر والنّفع. حيث الصّدق يؤخذ لذاته إذ هو جوهر لا عرض، وهو غاية لا وساطة.

وأن يزن المرء حديثه بميزان قوله، فلا تفريط في القول، ولا تقصير في العمل.

وإذا ائتمن أحد مؤمناً على سرّه فعليه أن يحفظه فيه.

ولا يلوكنَّ المؤمن سيرة غيره في ما لا يرضيه فإنّها مفسدة اجتماعية تشيع التفكُّك والتحلُّل الإجتماعي.

ولو أردنا استقصاء حكم الإمام في الإيمان على صعيد التَّدليل والبحث لطال الذِّكر وكثر الكلام.

وله في هذه الجملة القصيرة ما يأخذنا إلى البحث الطَّويل، **« أنْ لا يكون في حديثك فضلٌ عن عملك »**.

حدَّد بها سلوك المؤمن الإجتماعي بالصِّدق والواقعيَّة.

وحدَّد سلوك المؤمن في الحكم والسياسة تحديداً دقيقاً، حيث لا يرى مبرِّراً للمداهنة، وللمناورات السِّياسيَّة الَّتي تعتمد على الإقناع بالمراوغة والكذب، وهو المؤمن بأنَّ الغاية لا تبرِّر الوساطة.

قد يتبادر إلى بعض النَّاس أنَّ المسلم مجرَّد آلة يقوم بما فرضه الشَّرع الإسلامي بدون نظر أو تفكير، ولكنَّ الإمام وضَّح لنا سبيل المسلم المؤمن أبلجَ واضحاً على غير ذلك.

وقد نعتقد أنَّ المسلم إذا تنسَّك وتصوَّف، وقام ليله وصام نهاره، فقد كتب في أرفع طبقات المؤمنين. ليس الإسلام كذلك.

الإسلام دينٌ اجتماعيٌّ عمليٌّ واقعيٌّ، وضع لكلٍّ عمل حدوده ومقاييسه، ولكلِّ حالة لبوسها، وربط المجتمع بنظامٍ دقيق للأُخوَّة وللتكافل، بضمانٍ اجتماعيٍّ، وضرائب تصاعديَّة، وتجنيد اجباري للذَّود عن المجموع بفرض الجهاد.

« المسلم من سلم النّاس من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه النّاس على أموالهم وأعراضهم، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه ».

ويؤكد قول الإمام واقعيّة الإسلام بتقريره.

« ما المجاهد الشَّهيد في سبيلَ الله بأعظم أجراً مَّمن قدر فعفّ ».

حيث أنَّ للجهاد مثوبة عند الشَّهادة، وحسنة لأداء الواجب، وغنماً بالإنتصار. ولم تكن المثوبة في الواقع إلا بالدِّفاع عن المجتمع، وبسط نفوذ العدل. والمنتصر الَّذي يعتق رقبة من ينتصر عليه، ويعف عمَّن أساء إليه، فموقفه بطولي في مقارعة النَّفس، وهو أكبر الجهاد.

ولم يرد المجاهد إلا المجموع بجهاده، فالإحسان إلى المغلوب على أمره من خير العطف الإجتماعي الإنساني وأفضله، فهو في سياق موضوعه الإنسانيّ.

وعموماً فإنَّ من الإنسانيَّة بمكان من يقدر ويعف، ولذلك أولاه الإمام ما يستحق.

أُنظر لهذه المقارنة العظيمة بين من يقتل مجاهداً مضحِّياً بأعزِّ ما يملك وبين من يتمكَّن من القصاص فيعف وهي صفة اجتماعية إنسانيَّة قد لا نعيرها نظراً.

هكذا يؤمن الإمام بوحدة التَّرابط الإجتماعي.

ومن أقواله في فريضة العلم الَّتي فرضها في إيمانه وكلٌّ أقواله النابعة من معتقده.

« العلم فريضة على الجاهل أنْ يتعلَّم وعلى العالم أنْ يعلِّم ».

« يا كميل العلم دينٌ يدان به »[1].

« أقلُّ الناس قيمة أقلهم علماً ».

وإذا ذهبت الأُمم المتقدّمة إلى إلزام الجاهل بالتَّعليم واكتفت بذلك فإنَّ الإمام ذهب الى ما هو أبعد حيث ألزم العالم أنْ يعلِّم كما ألزم الجاهل أن يتعلّم.

وذكر الإمام عباد الله فخصَّهم بما هو له:

« إنَّ لله عباداً يختصُّهم الله بالنِّعم لمنافع العباد فيقرُّها في أيديهم ما بذلوها، فإذا منعوها نزعها منهم، ثمَّ حوَّلها إلى غيرهم ».

ان من وهبه الله وأمسك ما بين يديه على النّاس فقد ضلَّ في ادراك

---

(١) ج ٣ ص ١٨٧ النهج محمد عبده.

عبادة ربّه، وبذلك باء بضياع ما بين يديه.

فإذا علم العالم نما علمه، وإذا أمسكه سلاه ونساه.

وإذا شحّ الغنيُّ لم يكن له من ماله إلا حراسته، وجهد جمعه ثم تنتقل ملكيّته، إما ليد القدر والضّياع، وإمّا ليد الوارث الّذي له الغنم وعلى المورث الغرم.

فإذا أمسك العالم بعلمه، وشحَّ الغنيُّ بماله، انتقلت وجهة النّاس إلى غيرهما، إلى من يولونه ثقتهم، وعلى ذلك يتطلّب هذا العلم وذلك المال.

ثم إنَّ العالم إذا علم طلبه النّاس وآنذاك يشعر بقيمته وبما يلزمه فيتتبّع ويتطلّع ليسدَّ رغبة مريديه ولكيلا يكون في مكانةٍ لا تليق به. ثمّ إنَّ رواية العلم تثبته وتوسع مدارك راويه.

وأمّا الغنيّ إذا ما شحَّ أمسك النّاس ثقتهم عنه فلا يتطلّبونه في شراء أو بيع، وإذا بذل كثر معارفه، وتوسَّعت دعايته، وبذلك يتطلّبه النّاس فينهل لغناه من مناهل أُخرى.

فالعبد الصّالح من بذلِ ما بين يديه من علم أو مالٍ وهما قوامُ المجتمع.

كان الإمام في أُسلوب إيمانه، وفي حقيقةِ معتقده، يؤمن أنَّ الله لم يعبد لحاجة في نفسه، أو لمجرَّد الإقرار بعبوديّته ووجوده، وإنّما فرض الإيمان لخير الإنسان في معاشه وحياته، في دنياه وآخرته.

ومن قوله - مما يدلُّ على واقعيّته - لقائل بحضرته «أستغفر الله»[1].

«ثكلتك أُمُّك أتدري ما الإستغفار؟».

«الإستغفار درجة العليّين وهو اسمٌ واقعٌ على ستةِ معان:»

أوّلها - النَّدم على ما مضى.

والثّاني - العزم على ترك العود إليه أبداً.

والثالث - أن تؤدّيَ إلى المخلوقين حقوقهم حتّى تلقى الله أملس، ليس عليك تبعة.

والرابع - أنْ تعمد إلى كلِّ فريضةٍ عليك ضيّعتها فتؤدِّي حقَّها.

---

(١) ج ٣ ص ٢٥٢ - ٢٥٣ النهج محمد عبده.

والخامس - أن تعمد إلى اللحم الّذي نبت على السُّحت فتذيبه بالأحزان حتّى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحمٌ جديد.

والسادس - أن تذيق الجسم ألم الطّاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: «أستغفرُ الله».

من أراد أنْ يستغفر ربَّه فليس الإستغفار بكلمة عابرةٍ يطلقها اللسان، ولا نظرة لندامة يبعثها مجرَّد الحزن والأسى. انَّما النَّدامة على من أساء على أنْ لا يعود ثم يؤدِّي النّاس حقَّهم. ومن حقِّهم. حسن الرِّعاية وإقامة العدل ودفع الباطل وبعث الحبِّ والتَّعاطف.

ومن حقِّهم أن تدرك ما لغيرك له، ومالك لك، والنَّاسُ سواسية، وأنْ تدرك الحقَّ وتتصرَّف عليه فإنَّ الحقَّ واسعٌ سعة الإنسانْ ماثل بمثوله.

حُكومَةُ الإمَام

تؤخذ المبادىء، وتعتنق العقائد، وتشرع الشَّرائع، للأخذ بيد المجتمعات لما هو أفضل من حيث معنويَّاتها وماديَّاتها.

ولا يمكن لشريعة مَّا أنْ تتبوَّأ مكانتها دون أن تواكبها المصادفات ويتقبَّلها المجتمع وتدفعها قوَّة الرَّأي والعمل.

وقد حلم الفلاسفة في نظام يحبك المجتمع بحكومة فيها السُّلطات بيد الحكماء حيث التجرُّد للناس وحيث الحقُّ والخير.

وينبئنا التاريخ عن شرائع كثيرة استوفت بعضها حياتها وماشت بعضها الزَّمن وبقي بعضها بين الذِّكر والأمل. ولا زال ركب العقائد، وسنن المبادىء في توالد وتطوُّر وتغيُّر وسيبقى كذلك ما دام وجود وما دام إنسان.

ويتمشَّى عمر الشَّرائع بمواكبة المصادفات والظُّروف وبمواكبتها للتَّطور والتَّقدم، وشخوصها حيث الحقائق الإنسانية الخالدة، كالعدل والحقِّ والخير.

ومن الشّرائع الّتي انبسطت على أرجاء واسعة من الأَرض، وانحسرت أمامها كثير من الشَّرائع، وتجلّت على صعيد القول والعمل(**الشريعة الإسلاميَّة**)، وقد واكبتها الظُّروف في إبّان ظهورها عقيدياً وعسكرياً لأَنها بيد المشرِّع الأُكبر لها، والقائد المحنّك لثورتها، فواكب الفتح العقيدة وسارا في تكافؤ وتكامل.

وبعد أن توفيِّ الرَّسول استمرَّت الثَّورة في انبساطها العسكريِّ دون أن تحمل

في طيّات هذا التوسّع تواكبا في تفهّم للعقيدة، وإدراكاً لحقيقتها، وهذا ما أولج الإسلام والأمة العربيَّة في أحداث جسام عقيدياً وعسكرياً.

ولّما كان عصر الرِّسالة (عصر محمد (ص)) قد أُحيط على قصره بأحداث جسام، ومواقف حاسمة، فلم تؤهِّله ظروفه للقيام بالتثبُّت من التّطبيق العمليّ على الصّعيد العقيدي والإنطلاق بالحكومة الفاضلة الّتي حلم بها محمد وأرسى قواعدها على أُسس ثابتة.

فكان ولا بدَّ أن يتّسم الإسلام بخليفة على مستوى الرَّسول تشريعاً، وعلى مستوى الظّروف قوَّةً وعقلاً وتدبيراً، ولا بدَّ للنَّبي أن يعدَّ العدَّة وأن يفكِّر جدِّياً بمن يستطيع تحمُّل هذا العِبء الثَّقيل، فبلّغ في غدير خم[١]، وفي مواقف أُخرى.

ولكنَّ الوضع لم يواكب الشّريعة الإسلاميَّة في هذا الحال فاندفعت الفتوحات وبها اندفعت الأطماع، وانبعثت الإثرة وحبُّ التّسلط، ثم تبعها حبك المؤامرات، والإجتهاد في النَّص والحديث.

إندفعت النُّفوس الحالمة بالنَّصرِ تعوزها حكمة الشَّرع العقليَّة، وتنقصها المقدرة على تطبيق الشَّريعة عمليّاً، وأضحى العقل المفكِّر وحكيم الإسلام ومجتهده الأكبر ومناضل المسلمين الأفضل في عزلة لا حول له ولا قوَّة إلا في ما لا بد منه.

هذا حال الإمام في أمدٍ ليس بقصير.

إنصرم الزَّمن والنَّاس يبتعدون عن شريعتهم كلّما بعد عهدهم بالرَّسول وقد تجلّى الأمر في عهد عثمان حيث الإثرة والقرابة والإستغلال والجشع.

طغت سياسة الملك على معالم الشَّريعة، وانعدم النَّقد الذَّاتي وحريَّة الرَّأي وذهبت بادرة الإسلام الكبرى «كلّكم راع وكلُّ راعٍ مسؤول عن رعيَّته» أدراج الرِّياح.

إنبسط الحكم الفرديُّ القائم بحكم الأهل والأقرباء وبطانة السُّوء[٢].

إستشرى الفساد، وتبلورت الطّبقية، وانتزعت الحكم طبقة خاصة

---

(١) كتاب الغدير للشيخ الأميني لمن يريد البراهين الظّاهرة والحجج الوافرة.

(٢) كتاب عثمان للدكتور طه حسين.

(أرستقراطيَّة) مستبدة فحكمت، وأثرت على حساب الكادح الفقير الَّذي لا يزال يفتح الأَمصار وينهض بالعقيدة دون أن يعلم ما يجري وراءه، بل لم يدرك هذه العقيدة على حقيقتها، بل لم يعطها حقَّ قدرها والَّتي إذا هضمها أوقفته وجهاً لوجه أمام الحاكم المستبدّ.

إنزوى التَّفكير العلمي الفلسفيُّ الإسلاميُّ، ولم تعد إلا بعض المظاهر الَّتي لا تسمن ولا تغني من جوع يتذرَّع بها الحكَّام تستُّراً على فسادهم، وتمويهاً على النَّاس.

يدفعون النَّاس إلى مظاهر الشَّريعة لتلهيتهم بها، وهم «**يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع**»[1].

وفي خضمِّ هذه الأَحداث الجسام بين إسلام يندفع، وعقيدة تدال، وجور يتسلَّط أتى الإمام وهو المواكب لكلِّ تلك الأَحداث. وما عساه أن يفعل وقد اجتمع الأَمر والنَّهي بيد طغمة فاسدة، وعصابة متسلِّطة لا ترعى ذمَّة ولا تكترث بعقيدة.

أتى الإمام، وقد غرَّر الحكم ومن سار بركبه بالعامَّة فأبعدوهم عن حقِّهم، وبعثوهم عن أصدق قادتهم، وأخلص النَّاس لعقيدتهم.

أتى الإمام، وتسلَّم الأَمر مكرهاً فأشار عليه. بعض من يريد النُّصح ومنهم عبد الله بن العبَّاس بالإبقاء على هذه الطُّغمة الفاسدة حتَّى يستتب الأَمر وتهدأ الحال.

وكيف يستتب الأَمر وتبسط العدالة أمرها بوجود هؤلاء وليس لهم إلاّ مصالحهم، وما كان عثمان إلاّ فريسة سائغة لنهمهم وجشعهم!؟

وكيف يبقي عليهم وهو الثَّائر على سلوكهم، والمدرك لواقعهم!؟

وكيف يسوغ لعليٍّ وهو المثل الأعلى للإنسانيَّة والحقِّ والخير أن يداهن في ما لا يرضي الله، ولا يصلح للمجتمع!؟

وكيف يماطل على حساب المسلمين ومصالحهم!؟

وكيف لعليٍّ أن ينقض عهداً يوصلهم فيه بإقرارهم في أماكنهم!؟ وإذا أقرَّهم

---

(١) ج ١ ص ٣٠ النهج محمد عبده.

فقد نزَّهم، وإذا نزَّههم فقد مكنهم، وآنذاك يتعاظم خطرهم، ويتوسّع نفوذهم.

وهل لهؤلاء من الحصانة الإنسانيَّة العقيديَّة ما يؤهِّلهم إلى مستوى حكم الإمام للإنسجام معه في حكومة فاضلة يعمُّ فيها الخير والعدل؟.

وهل أنَّ موضوع الحكم موضوع أشخاص وطبقة خاصة أم هو موضوع الأُمَّة ومن يخالف الإجماع فقد ضلَّ، وللخليفة أن يبعد من لا يراه أهلاً للتمشِّي مع سياسته، وهذا ما هو معمول به حاليّاً فلرئيس الجمهوريَّة أن يقصي من لا يراه أهلاً لمنصب مَّا ويستبدل من يشاء وذلك لأنَّه يمثِّل الأُمَّة بانتخابها له، وإنَّ الإمام هو الوحيد الَّذي رشَّحه النَّبي وقدَّمته الأُمَّة بكامل حرِّيَّتها وبذلك اجتمعت فيه شروط الخلافة كاملة.

وهل يمكن لعليٍّ أن ينحدر إلى مستوى تلك الطُّغمة ليحصل التَّكافؤ في الحكم على حساب الأُمَّة والمسلمين؟.

وهل يسوغ لعليٍّ بعد هذه الإعتبارات، وحسب ما هو فيه من الصِّفات أَن يذهب بالسُّلطان هانئاً غانماً، ويمنح هؤلاء المفسدين رفدهم وجشعهم وهو القائل كما جاء في نهج البلاغة؟:

«لم تكن بيعتكم إيَّاي فلتة، وليس أمري وأمركم واحداً: إنِّي أُريدكم لله وأنتم تريدوني لأنفسكم! أَيُّها الناس، أعينوني على أنفسكم، وأَيم الله لأنصفنَّ المظلوم من ظالمه، ولاقودنَّ الظَّالم بخزامته حتّى أُورده منهل الحقِّ وإن كان كارها»[1].

هكذا ينطلق الإمام في بيانه، وهكذا يفصح عن دخيلة نفسه، وهكذا يُشعر العامَّة ما يلزمه ويلزمهم، فلا يُمكن لصاحب الحقِّ الَّذي لا تشوبه شائبة أَن يكون على غير ما هو عليه، فقد التزم الإمام بالحقِّ أَيَّما التزام، ولسنا في مجال التوسُّع في الدِّفاع عن هذه البادرة ولكنَّا لو استظهرنا أوامره في حكمه بدقَّة وتجرُّد ما رأيناه إلا مصيباً ومدركاً.

هذه نزعة الإمام في ولايته، وهذا مبدؤه في خلافته، وهذا تكوينه الذَّاتي حيث لا مفرَّ له منه **«لأنصفنَّ المظلوم من ظالمه ولأقودنَّ الظالم بخزامته حتّى**

---

(١) ج ٢ ص ٢٦ النهج محمد عبده.

أورده منهل الحقّ وإن كان كارهاً ».

يذكرهم بحالهم. ويناظرهم بواجباتهم. ولكنّهم يستعجلون الغنم فيفقدونه. وهو يريدهم لدرء الظُّلم. وإحقاق الحقّ حتّى ينطلقوا أحراراً فيما أفاء الله به عليهم.

واذا كان هذا رأيه في أحد أعلام الفساد (كما جاء في نهج البلاغة) فهل له أن يواكبه أو يغضّ طرفاً عنهم:

« والله ما معاوية بأدهى منّي. ولكنّه يغدر ويفجر ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى النّاس. ولكن لكلّ غدرةٍ فجرة، ولكلّ فجرةٍ كفرة، ولكلّ غادر لواء يعرف به يوم القيامة. والله ما أُستغفل بالمكيدة ولا أُستغمز بالشديدة ».

ثم يذكر معاوية في كتاب له إلى عمرو بن العاص كما جاء في نهج البلاغة. **« فإنّك جعلت دينك تبعاً لدنيا امرىء ظاهر غيُّه، مهتوك ستره، يشيّن الكريم بمجلسه، ويسفّه الحليم بخلطته ».**

هكذا يستنبط المتتبّع لسيرة الحكم في مسيرته الكبرى أنّه يهدف إلى الإنسانيّة. إلى طهر النّفس وصفاء السّريرة، الى التّجرُّد للمجموع.

وقد قال (بيكون) الفيلسوف المشهور ما معناه:

إنّ من الرّجال من يطمع أن يبسط سلطانه على أُمّته وهو أخسُّ الرِّجال. ومنهم من يطمع أن يبسط سلطان أُمّته على الأمم وهذا وسط الرِّجال. ومنهم من يريد المجموعة البشريّة حيث يحيطها بمعناها الإنساني فهو من النّاس إلى النّاس جميعاً وهذا خير الرِّجال.

وهكذا نزع معاوية للتّسلط على الأمّة بغدره وفجوره.

وانبسط عليٌّ للمجموعة البشريّة قاطبة بتجرُّده وإنسانيّته.

لم يكن لعليٍّ إلا أن يمحق الباطل ليقيم الحقّ. وأن يستأصل الجور ليثبت العدل.

ولكنَّ الباطل والجور والشَّر أزمعت أن تثيرها حرباً عواناً دفاعاً عن مصالحها ولها جذور قد امتدَّت وأبعدت بما كان لها من رعاية سابقة، وتثبيت لاحق فكان من الصَّعب جتذاذها ووقفَ لها أبو الحسن موقفاً جبَّارا عنيداً لا يفتأ يذود عن الحقِّ والعدل والخير.

لا تهزُّه الهزائز، ولا تهدُّه النَّوازل.

كاد ينتصر بعد معامع طاحنة لولا أن اغتالته يد أثيمة وهو في محرابه حيث شاء الله أن يضعه في أعظم بيتٍ من بيوته، وأن يرفعه من أحد بيوته المعظَّمة.

أفاض الفلاسفة في ما أفاء الله من الحكمة وسداد الرَّأي إلى تنظيم المجتمعات والأخذ بها إلى حيث الحقُّ والخير، بحكم صالح تتمثّل فيه العدالة الإجتماعيَّة والرِّعاية المتبادلة. ومن أبرز من أعار المجتمع نظرته الفلاسفة من الإسلام والَّذين تمخَّض عنهم عصر ما بعد الفتوح. وإنَّ أوَّل من اشتهر من المسلمين بالفلسفة يعقوب الكندي، وتبعه الفارابي وكانا من روَّاد الإفلاطونيَّة الحديثة. ثم جاء إخوان الصَّفا وكانوا يعملون على تخليص الشَّريعة ممَّا دنَّسها من جهالات وبدع وأضرابُ هؤلاء كثير ممَّن كان يربط في نظرته الفلسفية الإجتماعيَّة الشَّرعيَّة ما بين تعاليم الإمام وما بين الحياة الفاضلة والحكم الصَّالح.

وقد اختار الفارابي في كتابه (آراء أهل المدينة الفاضلة)[1] الملكيَّة الدِّينية المنبثقة من أقوال الشِّيعة وجمع بينها وبين آراء أفلاطون في الجمهوريَّة.

ولو سبرنا تاريخ الحركات التَّحررية الإصلاحيَّة، والثورات الإجتماعيَّة البنَّاءة في الإسلام منذ صدره لرأيناها ترجع بوجهتها وأصالتها إلى آراء الإمام، وإلى الأُسس الَّتي وضعها لتكوين مجتمع فاضل في حكم فاضل.

إستطاع الإمام بذكائه الخارق، وببصيرته الفذّة، وبمقدرته الفائقة على الإدراك واستنباط الأحكام، واحاطته التَّامة بالكتاب والسنّة أن يجتهد في حكومة صالحة لأيِّ ظرف وزمانٍ وتتمشَّى مع الشَّريعة بدون انفصال، ولذلك لم يؤخذ عليه ما أُخذ على غيره.

ولو أردنا استقراء نظامه في الحكم لرأيناه يتمشّى وأحدث الدَّساتير العالميَّة إذا لم يبزَّ الكثير منها نصّاً وروحاً لما يمتاز به من بُعد في النَّظر، وصدق في العدل.

---

(١) مبادىء الفلسفة لاحمد امين ط ٤ ص ١٥٢.

الحكم الفاضل
في الإنسان الفاضل:

كان الإمام يجسِّم الحكم ككيانٍ مجتمع الأطراف، معقود الحواشي، حيث الإنسان الصَّالح للتّطبيق الصَّالح، وحيث الفرد الصَّالح في المجتمع الصَّالح.

فلا يلتمس في حكومته إلا من كانت لديه اللّياقة الذاتية للحكم حسب سلوكه الطّبيعي والإجتماعي، وحسب إيمانه العقائديّ فيما أُوكل إليه القيام به، وفي ذلك قوله كما جاء في نهج البلاغة (إذا قويَ الوالي في عمله حرَّكته ولايته على حسب ما هو مركوز في طبعه من الخير والشّر).

ويرى الإمام أَنَّ المجتمع الفاضل موكول بالحكم الفاضل، ولا يتأتّى الحكم الفاضل بدون ولاة أمر فضلاء يدركون موضعهم ويعملون بما يدركون.

« من أراد أن يكون إماماً لغيره فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليبدأها بسيرته قبل لسانه ».

الناس على دين ملوكهم وسيرة ولاة أمرهم فإذا تسامح الحاكم مع نفسه ولم يتقيَّد بما فرضه على الناس من واجب تَسامح الرَّعية في العدل اتكالاً على سيرة وليِّ الأمر.

ولم يجعل الإمام خلافته مطلقة ولا حكمه لازماً بلا قيد أو شرط وإنّما قيَّد نفسه بأكثر مما فرضه على غيره، وأطلق للنّاس حرّية النّقد والتّعبير وما ذلك إلاّ لنزاهة الخليفة بفسحة المجال للأُمَّة على نقده، وبهذا يصلح الرَّاعي والرَّعية.

ولم يجعل للخليفة من الحقِّ إلا مقدار ما عليه من الواجب.

ومن أجرى الحقَّ في الرَّعية جرى إليه، والحقُّ لازم به ولازم عليه. وعلى ذلك ما ورد عنه في نهج البلاغة.

«أما بعد فقد جعل الله لي عليكم حقًّا بولاية أمركم، ولكم عليَّ من الحقِّ مثل الذي لي عليكم، فالحقُّ أوسع الأشياء في التَّواصف وأضيقها في التَّناصف ولا يجري لأحد إلا جرى عليه ولا يجري عليه إلا جرى له».(١)

وممّا جاء عنه في نهجه: «أتأمروني أن أطلب النّصر بالجور في من وليت عليه؟ والله ما أطور به، ما سمر سمير، وما أمَّ نجم في السَّماء نجماً. لو كان المال لي لسوَّيت بينهم. فكيف وانّما المال مال الله! ألا وإنَّ إعطاء المال في غير حقّه تبذير وإسراف...»(٢).

هكذا يكون الحكم الفاضل في الإنسان الفاضل.

أأجور لأحكم!؟

وما قيمة النّصر إذا أطفأ شعلة الإنسانيّة في قرار النّفس وما الزّهو والكبرياء بجميل إلا لنفس عطّرها الحقُّ. واستوعبها العدل. فترفعت عن الظّلم. وتنزّهت عن الباطل.

فوالله ما آمر بجور ما سمر سمير. ما تغنّى صادح بنغمة الحبّ والعطف. وما تجاوب قلبان بنعيم الخير والعدل.

فوالله ما آمر بجور ما ترفّع نجم يحدو نجماً في أمّ السّماء عالياً تسمو به عزّة العدل وشموخ الإنسانيّة.

هذا نجم مُحمد يشقُّ عباب الكون بسنى نوره وانطلاق أشعّته.

وهذا نجم عليّ يشقُّ عباب الكون يتبع نبيه ومرشده. فما عسى لهذا الإمام أن

---

(١) ج ٢ ص ٢٢٣ النهج محمد عبده.

(٢) ج ٢ ص ١٠ المصدر نفسه.

يعمل في ما لا حلَّ له به والمال مال الله، والناس عياله وهو خليفته وأمينه على عدالته في خلقه، ولو كان المال له لما اختلف في ما أفاض، والتناصف أوسع الأمور في العدل، والحقُّ موكول بالحاجة، ومن أخذ فوق حاجته بوجود المحتاج فقد أسرف واستغلَّ، وليس له أن يساعد على الإسراف والإستغلال.

هذا رأيه في من يلتمس رعاية الناس وولايتهم. أن يكون خفيراً على مصالحهم، مدافعاً عن حرِّيتهم راعياً لذممهم محافظاً على أموالهم.

مِمَّا أَدَّب به ولاته:

دأب الإمام على تأديب الولاة تأديباً اجتماعيّاً رفيعاً على أرفع مستويات الحكم الفاضل ومن كلام له في ذلك إلى واليه محمد بن أبي بكر كما جاء في نهج البلاغة:

« فاخفض لهم جناحك، وألنْ لهم جانبك، وابسط لهم وجهك، وآس بينهم في اللّحظة والنّظرة، حتّى لا يطمع العظماء في حيفك لهم، ولا ييأس الضُّعفاء من عدلك عليهم... »[1].

لم تكن صفة الولاية عند الإمام صفة آمر يُنفِّذ الأَحكام ويطبِّق النُّصوص ويرعى العدالة فحسب بل هي صفة أخلاقيَّة اجتماعيَّة تنميها ولاية الأَخلاق الفاضلة على الوالي حيث تنبسط ولايته على المجتمع.

يوصي الوالي بخفض جناحه للمجتمع وهي التفاتة جميلة رائعة بليغة تنُمُّ عن مدى إدراك الإمام للأُمَّة ومدى شعوره بما يلزمه لها، فقد قارن ما بين ولايةِ الأَبوين على الابن وولاية المجتمع على الوالي وجاء في القرآن خطاب أخلاقي موجَّه للأَبناء **« واخفِض لهما جناح الذُّلِ من الرَّحمة »**.

هذه نظرة الإمام القدسِية إلى المجتمع حتّى رفع رعايته إلى مستوى رعاية الأَبوين.

ومِمَّا أَلزم به ولاته من التجرُّد عن الهوى والإبتعاد عن العاطِفة ما جاء في

---

(١) ج ٣ ص ٣١ النهج محمد عبده.

نهجه. «**أمّا بعد، فإنّ الوالي إذا اختلف هواه منعه ذلك كثيراً من العدل. فليكن أمر الناس عندك في الحقّ سواء، فإنّه ليس في الجور عوضٌ من العدل. فاجتنب ما تنكر أمثاله...**»[1].

لم تكن وصايا الإمام فيما يزمع عليه من حكمة منوطة بدستور بين دفتين فحسب بل يربط الحكم بفلسفة الخير والحقّ. وبأثر عوامل النّفس كالهوى والعاطفة. وهذا ما يضع القضاء في أرفع مقام.

على الوالي أن لا يجمع بين حكمه وهواه لتباين الهوى.

ولكلٍّ من الجور والعدل أمران متباينان. وأثران مختلفان. فلا يعوّض أحدهما بالآخر إذ لا يغتفر الجور على قلّته بالإكثار من العدل. والنّتيجة لا تبرّر الوساطة حيث احتمال النّتيجة الطّيبة تأتي في آن احقاق الجور ولا يمكن أن يؤخذ ما هو محتمل على ما هو واقع حيث ثبت تحقيقه. وقد تكون النّتيجة على خلاف ما هو محتمل.

والجور منقصه محمول على منقصته. ومن يستسغ الجور يبعد احتمال ورود الحقّ على يديه.

ولم يأخذ الولاة بما فرض من العدل. وما طلب من الحقّ فحسب بل شدّد في الحساب. وضيّق الخناق. وقطع سبب الإثرة. وبوادر الرّشوة قبل أن تشتدّ وتطغى. وفي ذلك من كتاب له إلى عثمان بن حُنيف الأنصاريّ واليه على البصرة كما جاء في نهج البلاغة:

«**أمّا بعد ياابنَ حُنيف: فقد بلغني أنّ رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك الى مأدبة فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان، وتنقل إليك الجفان! وما ظننت أنّك تجيب الى طعام قومٍ عائلهم مجفوّ، وغنيهم مدعوّ، فانظر الى ما تقضمه من هذا المقضم فما اشتبه عليك علمه فالفظه، وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه. ألا وانّ لكلّ مأموم إمام يقتدي به**

(١) ج ٣ ص ١٢٧ النهج محمد عبده

ويستضيء بنور علمه، ألا وإنَّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه، ألا وإنّكم لا تقدرون على ذلك، ولاكن أعينوني بورعٍ واجتهاد، وعفّة وسداد...»(1)

لم يبارك الإمام دعوة بسيطة التمسها واليه. ولم يغض عنها طرفا بل كتب منذراً وناصحا. وما قيمة هذه الدّعوة حتّى يثيرها زوبعة وبهذا الإهتمام. ولكنّه شعر بمغبّتها وما انطوت عليه ولو كانت لذات الله لدُعي إليها من هو أولى بها وأحوج إليها.

فعلى الوالي أن يلتمس ما يشعره بطيب القصد. وحسن الطويّة فينال منه. ولا يمنع الإمام أبدا دعوة لذاتها. بريئة في حقيقتها. سليمة في تقديمها.

ثم يقول له: وإنّ لك من إمامك قدوة وإن كنت عاجزا عن اللحاق به فلم تعجز أن تنظر وتتأمّل ثم تتورّع وتجتهد. ولكلّ حسب إمكانيّاته وطاقته. ولا تنل إلا ممّا تؤمن بطيبه وطيب الطويّة في تقديمه.

ويُستدل من هذه الرّسالة على أنّ الإمام لم يترك ولاته وشأنهم حتّى من له به أشد الثّقة بل يضع عليهم من يخبره بأمرهم لكيلا يحصل تفريط في حقّ المجتمع.

ومن كتاب له إلى أحد عمّاله وولاته (كما جاء ذلك في النّهج) لما أدرك ما استحوذ عليه مما بين يديه.

«أما بعد، فقد بلغني عنك أمرٌ إنْ كنت فعلته فقد أسخطت ربَّك، وعصيت إمامك، وأخزيت أمانتك. بلغني أنَّك جرّدت الأرض فأخذت ما تحت قدميك، وأكلت ما تحت يديك فارفع إليَّ حسابك، واعلم أنَّ حساب الله أعظم من حساب

---

(1) ج ٣ ص ٧٨ النهج محمد عبده.

الناس ». [1]

ما أحوجنا إلى مثلك يا ابن أبي طالب فقد بلغت القلوب الحناجر، وبلغ السّيل الزُّبى. وطغى الجرح بصديده، فتعفّنت كلُّ أجهزة الجسم وتسمّمت مشاعره.

إرتسمت على العيون غشاوة، وعلى الأفئدة بلادة، وعلى العقول سنة، وعلى العواطف تصلُّب. وعلى الهواجس مسكنة.

ذهب مكظومنا بنار وجده، ومدركنا بلهب معرفته، وعالمنا بشواظ عمله. وجاهلنا بدياجير ظلمته. وظالمنا بزهوه وكبريائه وتهتُّكه.

أصبحنا كغارق تتلّقفه الأمواج العالية، تُثيرها زوابع عاتية فإذا ما رفعته موجةٌ فابتدره الأمل ساخت به إلى قاع البحر موجةٌ أُخرى.

من لنا بحكم كحكمك. وتجرُّد كتجرُّدك. وعدل كعدلك، نرشف منه معين الحرّية. ونستنشق منه عبير المساواة بحقٍّ تقرير المصير على صعيد التحرُّر غير المجزوء المائل بالعدل والحقّ.

تحاسب أحد ولاتك لأنّه خان ما بين يديه فله أن يلتمس غيرك إذا أخذته نزعته اللا إنسانية إلى سبيلها.

ومن كتاب له إلى خائن آخر وهو زياد بن أبيه كما جاء في النهج.

« وإنّي أقسم بالله قسما صادقاً لئن بلغني أنّك خنت من فيء المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً لأشدَّنَّ عليك شدَّةً، تدعك قليل الوفر، ثقيل الظّهر، ضئيل الأمر، والسّلام ». [2]

ليس للإمام أن يُدين إلاّ بما يدرك ويحيط وقد أدرك ما يريد زياد من ولايته. وقد أدرك أنّ لزياد نفساً لم يطهّرها السُّمو بولاية. ولا يرفعها الحكم إلى حيث

---

(١) ج ٣ ص ٧٢ النهج محمد عبده.

(٢) ج ٣ ص ٢٢ النهج محمد عبده.

الأمان على المجتمع بما جُبِل عليه وأخذ به. وكأنَّه أوكله أمراً يستصلحه به، وما أوكله ولايةَ البصرة أصالة وإنّما وكالةً إذ كان نائباً لعبدالله بن العباس حبر الأُمة ورفيق وتلميذ عليٍّ.

ذهبنا في تأديبه لولاته بما ذهب إليه وما يفرضه الإمام عليٌّ يلتزم به المسلمون قاطبة حيث انقطعت خلافة الخلفاء الرَّاشدين به فله أن يأخذ على من سبقه وليس لأحدٍ أن يأخذ عليه وهذا ما خلَّد تعاليمه شرعاً.

لكلِّ امرىءٍ ما أبلى
- كلٌّ حسب جهده - :

لم يكن عليٌّ في حكمه مقيَّداً بسياسة سلطانٍ أو ملك يغدق مرَّة ويشح أُخرى لمأربٍ في نفسِه ولسياسةٍ اقتضاها للحفاظ على سلطانه، بل وضع لكلِّ حالة لبوسها، ولكلِّ قضيَّة أُسسها، يستدل بها الرَّاعي والرَّعيَّة كقاعدة قانونيَّة، يبسط فيها العدل ولكلِّ إنسانٍ الحق في طلبه.

ومِمَّا يوصي به ولاته كما جاء في النَّهج:

« ثم اعرف لكلِّ امرىءٍ منهم ما أبلى، ولا تضيعن بلاء امرىءٍ إلى غيره ».

هذه قاعدة تصلح لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، على صعيد الحكم، وعلى صعيد المجتمع، وتتجلى فيها عدالة الحكم بأجلى صورها حيث يتناسب الرِّبح (مهما كان نوعه) تناسباً طردِيّاً والجهد.

وليست القيم الإنسانيَّة منوطة بالحسب أو المال وإنَّما بالإنسانيَّات الماثلة بالمعرفة، أو الظَّاهرة بحسن الطويَة، وسلامة الضَّمير.

وعلى هذه القاعدة تتناسب قيمة المرءِ بمقدار ما يجهد المرء به نفسه لرفع مستوى مجتمعه، والأَخذ بيده لما هو أفضل.

فلا ترفيع لموظف بدون حسن بلاء، وأداء واجب، وإخلاص في العمل، ومن يتقاعس في أداء ما هو منوط فيه من عمل فلا يستحِق التّرفيع.

وللعمال القائم بأداء واجبه من الرِّبح ما يشعره بإخلاصه وحسن بلائه.

وها أنا أذكر دليلاً ماديّاً للإمام فيما ذهبت إليه:

وصل إليه قوم يلتمسونه بالأمر إلى عامله (قرظة بن كعب) أن يسخرهم في كراء نهر قد درس فكتب إليه.

(أمّا بعد: فإنَّ قوماً من أهل عملك أتوني فذكروا أنَّ لهم نهراً قدْ عفا ودرس، وأنّهم إن حفروه واستخرجوه عمرت بلادهم، وقووا على كلِّ خراجهم وزاد فيء المسلمين قبلهم، وسألوني الكتاب إليك لتأخذهم بعمله، وتجمعهم لحفره والإنفاق عليه، ولست أرى أن أجبر أحداً على عمل يكره، فادعهم إليك، فإن كان الأمر في النّهر على ما وصفوا فمن أَحبَّ أن يعمل فمره بالعمل، والنّهر لمن عمل دون من كرهه، ولأن يعمِّروا ويقووا أحبّ إليَّ من أن يضعفوا. والسّلام).

أَخرج الإمام العمل من طور الإجبار إلى حيث الشُّعور بالحاجة. وهذا منطق عمليّ حكيم، إذ يحفز المرء على أداء واجبه حسبما تمليه عليه نفسه وهواجسه. فهو حرٌّ في عمله مقيَّدٌ به لحاجته.

ثم أخرج الدّولة من خسارة الإنفاق. وهذه سياسة اقتصاديّة رصينة.
ثم التمس البحث، والإستدلال قبل البتِّ في العمل.
وأوضح السَّبيل وقرَّر الرِّبح قبل المساهمة (ولكلٍّ حسب جهده).

ثم حثَّ على عمارة الأَرض وبناها على قاعدة زيادة الإنتاج. وما يصيب المجتمع والدَّولة من غنم بذلك.

وقد يُسائل سائل عن حال من تعوزه الطّاقة على أداء العمل. ولكنّ الإمام قد وضع لكلٍّ حالة لبوسها، وفرض لهؤلاء نصيبهم من بيت المال كما يأتي ذكره.

---

(١) علي وحقوق الانسان - جورج جرداق ص ٢٠٧.

مفهوم الحرِّية:

لم يكن مفهوم الحرِّية لدى الإمام منوطاً بالعمل والإنتاج كما أسلفنا بل بسط الحرِّية في الأحوال كلِّها حتّى في بيعته وحتّى في خروج الجيش للحرب ثم يتطلّب الفرد أن يقوم بواجبه الإجتماعي حرّاً على ضوء عقيدته، وعلى هدى ما يلزمه، فإذا فارق الفرد المجموع خرج عن كونه منه فليس له ماله.

لم يجعل للحرِّية مفهوماً بوهيميّاً بدائيّاً تمليه العاطفة ولا حرِّية للفرد على حساب المجموع، ولم يحد الحرِّية ولم يحدِّدها بعقيدة أو مبدإ، ولا بقبيلة أو وطن، ولا بإثرة وقرابة، وإنّما حسب ما تمليه عليه الإنسانية، وحسب ما يطلبه المجتمع.

بايعه المسلمون قاطبة إلاّ نفر فلم يأخذهم على بيعته. ويدلُّ على ذلك ما جاء في نهج البلاغة في طلحة والزُّبير « **فبايعاني على هذا الأمر، ولو أبيا لم أكرههما كما لم أكره غيرهما** ». ويخاطب أصحابه - كما في نهج البلاغة - لمّا اضطربوا عليه في أَمر الحكومة للخروج للحرب: « **وقد أحببتم البقاء وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون** ».

قد يتبادر إلى الذِّهن بأنَّ الإسترسال بالحرِّيّة على هذا المفهوم قد يقوّض الحكم، ويهدم السُّلطة، وقد لا يستتب هدوء الحكم بدون شدَّةٍ ولين لذاتهما.

ثم أَن ليس للجيش أن يخيَّر فيما ترسمه الدَّولة، بل أَن يُؤمر فيطيع.

وليس لفردٍ أَن يُترك حرّاً في عدم مبايعته في ما يخالف المجموع.

ولكن حسب مفهومنا الحديث للحكومة إنّما هي جماعة من الشعب يخوِّلها

تنفيذ ما يراه. وليس للسُّلطة الحاكمة حقّ ممارسة أيّ ضغط. أو أيّ هدر للحرّيات. فحرّية الرّأي والتّعبير يلزم أن تصان. لأنّ الحكومة فئة من الشّعب خوّلها ما يلزمه فإذا استبدّت به انفصلت عنه حيث استعلت بمفاهيمها الخاطئة دون إرادته.

فلو تطرّقنا إلى المفاهيم الحاضرة في الإنتخابات والّتي استوعبتها الأمم المتمدنة كليّاً أو جزئيّاً لرأينا أنّ حرّية الانتخابات بشتّى فروعها للرئاسة. أو لمجلس الأمّة. أو في النقابات أو الجمعيات وما إلى ذلك. فإنّها تعتمد أساساً على عدم إجبار الفرد على انتخاب شخص بعينه ولو اجتمعت الأمة كلّها عليه ولكن يلزمه ما يلزم الجميع. وقد التزم عليٌّ بهذه القاعدة ولم يلتزم بها من لم يبايع كمعاوية إذ ثار على خليفة أجمعت الأُمة عليه.

وهذه قاعدة قانونيَّة أُصوليَّة لا مجال للطّعن فيها. وأكاد أقول إنّ أوّل من طبَّقها تطبيقاً عمليّاً كُليّاً هو الإمام عليّ. وهذه من بوادره المهمة في تطبيق الحريَّة. وكلُّ بوادره على شاكلتها.

وأما الإسترسال في حريَّة الجند فقد بيَّن سببه وحكمته بما نصّ في رسالته إلى بعض أُمراء جنده كما جاء في النّهج:

(فإن عادوا الى ظلِّ الطّاعة فذلك الذي نحبّ، وإن توافقت الأُمور بالقوم الى الشّقاق والعصيان فانهد بمن أطاعك الى من عصاك؛ واستغنِ بمن انقاد معك عمَّن تقاعس عنك، فإنَّ المتكاره مغيبه خير من مشهده، وقعوده أغنى من نهوضه).[1]

يقول الإمام في رسالته هذه « فإنّ المتكاره مغيبه خير من مشهده » وذلك هو الواقع لأنّ المفهوم العقيدي للجيش هو الأساس في قوّته واندفاعه لتحقيق رسالته. ولا تلتمس العقيدة بالشّدة والضّغط. وإنّما يستوعبها المرء فيراها ماثلة فيه وماثل

---

(١) ص ٦ ج ٣ النهج محمد عبده

فيها. وهي رمز لوجوده فيندفع بكلّ قوّته وحيويته للذود عنها.

وقد كتب الله الغلبة للمسلمين لا بعدّتهم وعديدهم إذ كان أعداؤهم في كلّ موقف أقوى عدّة، وأكثر عدداً. وإنّما كانت غلبتهم بقوّة العقيدة ورجاحة الإيمان. وما المتخاذل المتقاعس بذي عقيدة في كلّ ما يقوم به ولا سيما في الحرب. إذ يكون مغيبه أولى لأنّه لا بدّ أن يثبط عزائم الباقين.

والمتكاره يلزم دائماً الإستغناء عنه في كلّ ما ترجوه منه لأنّه لا يأتي بما يجيد. وإذا أدرك المتكاره الإستغناء عنه ثاب إلى رشده، وركن إلى صوابه. وآنذاك يتلطف بما الناس فيه أسوة. وحينذاك لا يفتأ أن يتمثّل بفريضة الجهاد على أحسن وجه.

هذا مفهوم القائد المحنّك.

وهذا مفهوم الواجب في الجهاد المقدّس.

وهذا مفهوم الفروسية بأسمى صورها.

لم يأخذ جيشه إلا بما يرتضيه، ولم يدفعه إلا بما يراه، ومن لم يشأ الحرب فله أن يقعد وليس القعود بذي حُسنى.

لم يترك المتخلف وشأنه بل عليه أن يستعتب خليفته عن سبب قعوده ونصرته. لأنّ لكلّ خاذل سبباً فيلزم النّظر في وجاهة هذا السّبب وإلاّ فمن نقض عهد المجموع نقضوا عهده، وتركوا رفده، وبذلك لا يمكن أنْ يعيش حيث لا يعيشُ المرء بدون تبادل التعاون.

ولربّما رأى الخاذل في الخليفة ما لا يمكن نصرته عليه. فعليه أن يدينه أمام المجموع ليُحق الحق ولا سيما عندما يطلب الخليفة نفسه إدانته.

وفي هذا ما كتبه إلى أهل الكوفة عند خروجه من المدينة إلى البصرة:

«أمّا بعد فإنّي خرجت من حيّي هذا إما ظالما وإما مظلوماً، وإمّا باغياً وإمّا مبغياً عليه. وإنّي أذكّر الله من بلغه كتابي هذا لما نفر إليّ فإن كنت محسناً أعانني وإن كنت مسيئاً استعتبني».

هذه لفتة من لفتات الإمام الَّتي تتجلّى فيها الموهبة السياسية والعسكرية، إذ يطلب الشخوص إليه ولم يدع حجة لمتخلّف لأَنَّه بين أمرين، إما ظالماً في حربه فعليهم استدراك الأَمر، وإقامة الحجة، وتقديم العتب، وإِمَّا مظلوماً، فقد وجب عليهم نصرته، والقيام بين يديه.

وفي كتابه هذا لم يأخذ بأَمر لازم، ولا اشتد بطلب، وإنَّما استرسل في الحجة والدَّليل، وبسط الأَمر جلياً واضحاً أَن يلحقوا به على أَيَّة حال، إمَّا لإدانته، وإمَّا لنصرته.

ولو طلب مجرَّد اللحاق به لكان أَمراً لازماً استبدادياً مِمَّا قد يثيرهم، وقد يتقاعس بعضهم محتجاً بعدم اقتناعه بشروعيَّة هذه الحرب. ولكنَّه قطع كلَّ سبيلٍ على المتخلِّفين.

ومن لم يدِنْهُ أو ينصره فقد تخلَّف عن واجب الجهاد المقدَّس.

ومن الأُمور المُسلَّم بها عادة أَن يستعتب المتخلف، ويُدان المتقاعس، وما سمعنا بقائد يضع نفسه مدانا يطلب من جنده أَن يستعتبوه، ولا خليفة يقدِّم نفسه لشعبه أَن يدينوه إلاَّ عليّ بن أَبي طالب.

وقد أَدركنا أَنَّ مما يؤمر به الجيش أَن تكون الطّاعة العمياء أُولى واجباته، ولا تَتأتّى الطّاعة العمياء مع العقيدة وسلامة الإحترام. والجيش غير العقيدي لا قيمة له.

وإنَّ تضحية الجند لهي أَغلى تضحية. ولمن يضحّي بنفسه أَن يكون على بصيرة من أَمره لأَنَّ الإنسان مخلوق لحرِّيته وخيره وخير المجموع لا أن يكون آلة مدمِّرة موجهة فحسب. ولم يطلب الإمام استعتابه إلا لأَنّه مؤمن بصدق رسالته وصحة دعواه وإلا فإنّه كسواه يأخذ النّاس بالجبر والحيلة والرَّهبة والإغتيال.

ذهبت في رأيه في الحرِّية إجمالاً في أمرين في جيشه وفي انتخابه، وحقّاً إنّه في أَعماله كلها وسلوكه كلّه يدلُّ على مفهوم واسع للحرِّية، وها هو ذا يُعطي رأيه الكامل بكلمة موجزة يثير بها ويستنهض. كلمة خارجة من أَعماق النَّفس ومن سلامة الضَّمير.

« لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً ».

هذه آية الإنسان حيث الرَّاعي والرَّعية.

هذه آية الإنسان حيث انبثقت به ارادته، وتمثّت به حقائقه، وتمثّل بما امتثلت له هواجسه، فهو مجبول على التّحرر بإنسانيته ووجوده، وليس له أن يكون عبد غيره لأَنَّ الحرِّية تؤخذ ولا تعطى وليست الحرِّية بمنحة تمنح، أو هديَّة تقدَّم، وليست هي من الحقوق المكتسبة، وإنّما هي حقٌّ طبيعيّ يسعى إليه الإنسان ما وسعه، ويسترجعه إذا سلب بما أُوتي من حولٍ وقوَّة.

وليست الحرِّية بمفهوم محدود بل هي معنّى شامل يضم الحق في حرِّية الرَّأي وحرِّية التّعبير، يضمُّ الحقَّ في المستوى الإقتصادي والإجتماعي اللائق بالإنسان.

وها هو الإمام يطلق شموله الإنساني على كلِّ ذي رمق أن يعيش في الحياة وأن يستوفي حقّه في الرِّبح والغذاء.

« لكلِّ ذي رمق قوَّة ولكلِّ حبَّة آكل ». هذا الشُّمول لكلِّ دابَّة فوق الأَرض لها قوَّتها. والدَّابة كلّ ما دبَّ على الأرض من إنسان أو حيوان.

وعلى ذلك اللاإنسان أن يسلب قوته؟

أو يرعى الإمام سُلاَّب الحقوق؟

وبالطَّبع لا يكون ذلك أَبداً. فهو الرَّائد الأَمثل للإنسانية في أرفع مستوياتها. وهو الثّائر على التّخلف في مختلف ضروبه.

في التنظيم الإقتصادي الإجتماعي:

وله حِكَمه البالغة في التّنظيم الإقتصادي، ونظرات بعيدة الهدف قد لا يدركها القارىء الآخذ بالسِّيرة العلوية بدون تعمُّق وبعد نظر.

يرى الإمام التكامل والتكافل والتّكافؤ أُموراً ضروريَّة لنمو المجتمعات حيث فرض الإسلام قاعدته المشهورة.

« كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيّته ».

ويرى أنَّ عدم التّكامل والتّكافؤ استرسال الأغنياء بالمتع والكماليّات مع وجود الفقراء الّذين لا يستوفون حاجيّاتهم الضرورية وفي هذا يقول:

« فما جاع فقيرٌ إلا بما متِّع به غني ».(١)

يرى الإمام أنَّ المجتمعات لا تصلح بدون تكافل وتكافؤ فلا يصح لغنيٍّ وهو من مجتمعه أن يفيض على ملذّاته ومتعه ويترك أخاه رهن الحاجة. إذا ما تناولنا الموضوع من جانبه الإنساني الشّخصي، وإذا تناولنا الموضوع من وجهته الحكومية، فلا يُمكن للتّباين الطّبقي أن ينمو ويترعرَع في مجتمع تسوده عدالة التّوزيع، وتكافؤ الفرص فإذا قُضي على العدالة ظَهر الإستغلال ونما التّباين.

ولو تتبَّعنا قوانين الأُمم ذات السِّيادة لرأيناها تتبنّى فرض الضّرائب

(١) ج ص ٢٣١ النهج محمد عبده.

التّصاعديَّة المباشرة على ذوي الثَّراء في حياتِهم، وعلى تركتهم بعد مماتِهم، للتَّخفيف عن كاهل المستهلك الفقير بتخفيض الضّرائب غير المباشرة عليه، وإقرار الضّمان الطِّبي، والإجتماعي له، وقد ذهب الإسلام إلى ذلك. ولم تكن هذه الإجراءات بظالمة لأَنَّها من حقِّ التّكافل والتَّضامن الإجتماعي، ومن حق المجتمع على الفرد، ولم ير هذه الضَّرائب منحة يقدِمها الغني بل هي حق مضيَّع في ثراء فاحش.

« ما رأيت نعمة موفورة إلا وإلى جانبها حق مضيَّع ».

كثيراً ما كنت أُسائل نفسي عن معنى هذه العبارة ولكنِّي ما كنت التمس لها تحليلاً يتقبَّله عقلي لأَنَّ كثيراً من النِّعم الموفورة قد توافرت بطرقٍ أقرَّها الشَّرع، ولَمّا أَطلت التفكير، وتعمَّقت في القصد، أدركت أَنَّ النّعم الموفورة من ثراءٍ فاحشٍ، أَو جاهٍ واسعٍ، أَو راحةٍ دائمةٍ حقّاً إنَّها لا تتأتّى مجرَّدة عن هدر حقوق، وكسب مغانم. فالثَّراء الفاحش قد يتأتّى من استغلال فلاّحٍ يكدح، أو عاملٍ يتعب، أَو عن إرثٍ سبق الإستغلال فيه، أو عن كسب سار الإحتكار به، أو غبن في ارتفاع الأَسعار.

وقد تتأتّى النعم الموفورة لخليفة أوملكٍإستغلّسواه فالجند يفتح، والشَّعب يكدح، والخليفة في متعة يستوفي السُّمعة، ويحتكر النِّعمة، ويستولي على ما أفاءَ الله بالفتح، ومن تعب الشَّعب فيسيِّره كيفما يشاء وإلى من يريد لا **(كلّ حسب جهده)** كما ذهب إليه الإمام.

وما زلنا نسير بالتَّاريخ على هذا النَّهج فنبعث التُّراث العربي الإسلاميَّ إلى حفنة من بني أُميَّة أو بني العبَّاس، ولو تفحصناهم عن كثب لرأيناهم أسوأ من وجد، وأَقلَّ من بذل، وأَوفى من نهب، في مسيرة هذه الأُمَّة العريقة ذات التّاريخ العظيم.

فالنِّعمة بحدِّ ذاتها يباركها الإمام، ويسعى لتعميمها، ولكنّه يقصد النّعم الكثيرة في قوله والّتي تخرج عن حدِّ الإحتياج.

ففي القرآن الكريم « قل من حرَّم زينة الله الّتي أخرج لعباده والطيِّبات من الرِّزق » ثم إنَّ كثيراً من نعم الثَّراء قد أُخذت على ما فيها من حقّ إذ لم يوفّ

المثرون الله حقّه فكنزوا الذّهب والفضّة واحتكروا قوت النّاس.

وفي القرآن الكريم: « والّذين يكنزون الذّهب والفضّة ولا ينفقونها في سبيل الله، فبشّرهم بعذاب أليم ».

مراحل
الجهاد في سبيل التَّحرر:

لم يقر الإمام الخنوع والخضوع للأمر الواقع لأنّه شدَّ التّحرر بالجهاد والجهاد بمراحله وبمختلف أساليبه حيث يقول كما جاء في نهج البلاغة ج ٣.

(أَوَّل ما تغلبون عليه من الجهاد الجهاد بأيديكم، ثم بألسنتكم، ثم بِقلوبكم، فمن لم يعرف بقلبه معروفاً، ولم يُنكر مُنكراً، قُلِب فجُعِل أَعلاهُ أَسفله وأسفله أَعلاهُ)[١].

فإذا لم تأخذ القوَّة للغلبة فعلى المرء التماس اللسان للنِّضال، والقلب للعقيدة والأمل والذِّكرى.

ومن لم يستطع أَنْ يدافع عن نفسه بيده وقوّته فعليه أَن يركن إلى حجَّته وبرهانه، فإذا لم تسعِفه القوَّة، ولم يدرِكه البيان، فعليه أَن لا ينسى حقَّه، ولا يُهمل أمره، بل عليه أَن يجعل لجهاده ودفع المنكر عن مجتمعه موضعه في قلبه كي تذكّيه العقيدة ويثيره المبدأ، لأنَّ الحقَّ في القلب نورٌ يهتدي به المظلوم ليبدِّد ظلام الباطل ما وسعته المصادفات، وما مكّنه الزَّمن ولا يُمكن للظالم اجتثاث ما في القلب.

---

(١) ج ٣ ص ٢٤٤ النهج محمد عبده.

في المجال العسكري:

وله في هذا المجال حكمته في قوّاده، وحكمته في قيادته.

ومن كتاب له إلى أُمراء جيوشه كما جاء في النَّهج ج ٣.

«ألا وإنَّ لكم عندي أَن لا أَحتجز دونكم سرّاً إلا في حربٍ، ولا أَطوي دونكم أَمراً إلا في حكم، ولا أُؤخر لكم حقّاً عن محلِّهِ، ولا أقف به دون مقطعه، وأن تكونوا عندي في الحقِّ سواء...».

الحرب خدعة وتخطيط وما يُفضي به المحارب من ذلك قد يدركه الأَعداء ومن لا يكتم سرَّه في حرب، ولا يخفي خططه فقد فرَّط في جيشه وأَسباب نصره.

فعلى القائد المحنّك أَن يستشير أَركان حربه، ويستنجد بأُمراء جيوشه، ثم يكون لديه مجمع القول، وفصل الخطاب، وخلاصة الخطط فيفضي بها آن تطبيقها.

وعلى الخليفة أَو الرَّئيس الأعلى ان يلتمس أُمراء جيوشه في ما يراهم أهلا له في حرب وقراع، وليس لهم من أمرٍ في تشريع وقضاء. فعلى الخليفة أن يطوي دونهم حكمه على اعتبار صِفتهم العسكرية، فهو لا يرى من الحكمة أَن يتدخل الجيش في سياسة الحكم.

وهكذا يجعل الإمام للحكم حرمته، وللقضاء استقلاله، وللجيش قدسيته ومهمّته.

وعلى الخليفة أَن لا يفرِّط في حقِّهم، ولا يمنع رفدهم، ولا يُباين بينهم، فإنّهم

عنده سواء.

كلمات خطّها يَراع الإمام فأفضت بما لم تفض به طوال الكتب. وهذا ما تبنّته أحدث الدساتير العالميَّة في عصرنا هذا.

وله في الحرب خططه، ولأُمراء جيوشه وصاياه، اقتطفت بعضاً من وصيَّته لمعقل بن قيس الرِّياحي حين أنفذه إلى الشّام كما جاء في النَّهج ج ٣.

« فإذا لقيت العدوَّ فقف من أصحابك وسطاً، ولا تدن من القوم دنو من يُريد أن ينشب الحرب، ولا تباعد منهم تباعد من يهاب البأس، حتّى يأتيك أمري، ولا يحملنّكم شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم والإعذار إليهم ».

هذه وجهة حكومته وهذا أمره، في جنده، وحسن كياسته في حربه.

يوصي أَمير جنده أَن لا يُثير الأَعداء باقترابهم منهم. ومن طبيعة الإنسان أن يُسْتثار إذا قاربه عدوه، وهذه بادرة نفسانية كثيراً ما يحتاجها القائد.

ولا تبتعد عنهم لظنِّهم بخوفك منهم ورهبتك لهم، وهذا ما يجعجع راحتهم ويزعزع ثقتهم بأنفسهم.

ولا يأخذك بعضهم إلى حربهم قبل أن تدعوهم إلى السِّلم، فإن جنحوا له فاجنح إليه وإلا فقد (أَعذر من أَنذر).

ومن أَدبه العسكري، وفروسيَّته الفذّة، وسموِّه الأَخلاقي في أشدِّ أُوقات الحرب ما تعطيناه وصيَّته لعسكره قبل لقاء عدوِّه في صفِّين.

(لا تقاتلوهم حتى يبدأوكم فإنّكم - بحمد الله - على حجة، وترككم إيّاهم حتّى يبدؤكم حُجَّة أُخرى لكم عليهم. فإذا كانت الهزيمة بإذن الله، فلا تقتلوا مُدبراً، ولا تصيبوا معورا (الّذي يعجز عن حماية نفسه بعد زجها) ولا تجهزوا على جريح، ولا تهيجوا النِّساء)[١].

هذه سُنَّة الخلافة والولاية في الحقِّ والخير، وهذه بسطة الخلافة في العدل.

هذه آداب الفارس المغوار، وهذا شمم الشُّجاع المؤمن بقدسيَّة قضيَّته، وكلٌّ

---

(١) ص ١٦ ج ٣ النهج محمد عبده.

يعمل حسب معتقده، وحسب إنسانيَّته.

لا تبدؤوهم فأنتم على الحقِّ لأنَّكم عنه تدافعون وإذا بدؤوكم فحقُّ الدِّفاع مشروع وهذا حقٌّ آخر.

فإذا مكنكم الله منهم فلا تقتلوا مولِّياً هارباً، ولا تصيبوا خائفاً ضعيفاً يعجز عن الدفاع عن نفسه.

وهكذا وضع الإمام للحرب آدابها، وللحجة على الخصم أسبابها، فلو سبرت كلَّ حروبه لرأيته ابتدأ الضَّمائر فأثارها، ورجع للذِّكرى الطَّيبة إن وجدت فأَحجبها (كما فعل مع الزبير) وللوعد والوعيد فأطنب فيه. فإذا لم تفد الحجج، ولم يفلح اللسان، ولم يعط البيان، يلجأ إلى السَّيف مضطراً، وللحرب مرغماً.

ثم كانت له وصاياه لجنده في الضَّرب والقراع نقتطف منها مستهل وصيَّة منه.

(فقدِّموا الدَّارع، وأخِّروا الحاسر، وعضُّوا على الأَضراس، فإنّه أنبى للسُّيوف على الهام والتووا في أطراف الرِّماح فإنّه أمور للأَسنة...).

وهكذا يوصي أَن يتقدَّم في الحرب من وضع للحرب لامتها ليكون في الطَّليعة، ويتأخر من أتى حاسِراً إذ ليس لديه ما يقيه إذا غافلته الضَّربة. ثم ليشد الضَّارب على أَسنانه لتأخذ الضَّربة منتهى قوَّتها ووقعها، وهذا ما هو ملتمس عندنا فإنَّ الضَّربة القوية يواكِبها شدٌّ على الأَسنان، وإطباقٌ قويّ للفكين. وإذا شخص نحوكم رمح فميلوا عن مرماه لكيلا يصيبكم سنانه.

ثم إنَّ الإمام لم يكفه ما يقدِّمه لإطفاء جذوة الحرب بل يندب ويرثي أعداءه وهم ليسوا بأهلٍ للرِّثاء بما قدَّمه لهم من نصحٍ وقد رثى طلحة عندما مرَّ به مقتُولاً.

ومن عظيم كياسته في الحرب، وتمكنُّه مِنها، ومقدرته الفذَّة في التَّخطيط لها أنَّه لم يخسر قط في أيَّة معركة خاضها أو قيادة تسلَّمها، ولم يقف أمامه قط أيُّ شجاع مهما أُوتي من القوَّة والبأس والإقدام مع أَنَّ للعرب السَّبق في هذا المجال حسب طبيعة حياتهم، ولم يبدأ أبداً بحربٍ لا بقيادة ولا بمنازلة، وله فلسفته في ذلك وحكمته الإنسانيَّة الَّتي لا تُفارقه وفي ذلك ما أوصى به ابنه الحسن «لا تدعونَّ إلى مبارزة وإن دُعيت إليها فأَجب فإنَّ الدَّاعي باغٍ والباغي مصروع».

سِياسته الإقتصاديَّة:

قد تدفع الأُمَّة بمقاليد الحكم إلى عسكري أو اقتصادي أو إلى سياسي حسب مقتضيات الحاجة.

ولم يسبق للتَّاريخ إلا ما ندر أن أنجب إنساناً كانت لديه المقدرة على كلّ أسباب الحكم وبجدارة فائقة. ولو استقرأنا كلَّ نواحيه لرأيناه كذلك، وقد صح عليه أن يكون ملتقى العبقريَّات.

ومن بديع سياسته الإقتصاديَّة، وعظيم وصاياه إلى عمَّاله على الخراج كما جاء في النَّهج ج ٣.

«أمَّا بعد، فإنَّ من لم يحذر ما هو صائر إليه لم يقدِّم لنفسه ما يحرزها. واعلموا أنَّ ما كُلِّفتم به يسير وأنَّ ثوابه كثير، ولو لم يكن في ما نهى الله عنه من البغي والعدوان عقابٌ يخاف لكان في ثواب اجتنابه ما لا عذر في ترك طلبه، فانصفوا النَّاس من أنفسكم، واصبروا لحوائجهم، فإنَّكم خزَّان الرَّعية، ووكلاء الأُمَّة، وسفراء الأئمَّة. ولا تحسموا أحداً عن حاجته، ولا تحبسوه عن طلبه، ولا تبيعنَّ للناس في الخراج كسوة شتاءٍ ولا صيفٍ ولا دابَّة يعتملون عليها...».

لم يؤمن الإمام بالسِّياسة الإقتصاديَّة المرتجلة، بل وضع سياسة اقتصاديَّة تأخذ المستقبل بالحاضر، وتعدُّ للظُّروف الإستثنائيَّة عُدَّتها.

قد استهلَّ رسالته بحكمة استيفاء الضَّرائب، وبالمبرِّرات القانونيَّة والعقليَّة لخير الحاضر والمستقبل. فإذا لم تحذر الدَّولة نوائب المستقبل واختلاف الظُّروف

وتبقى لديها فائضاً من اعتمادها المالي فسوف تضايقها الأزمات في تغيُّر الأَحوال، ولا حول لها ولا قوَّة على درء ذلك.

وعلى الدَّولة أَن تعمل لكفايتها في حاضرها ومستقبلها، وقد أَوجز الإمام في اللفظ وأَطنب في المعنى.

« فإنَّ من لم يحذر ما هو صائر إليه لم يقدِّم لنفسه ما يُحرزها ».

وعلى الجباة أن يوفوا عملهم حقَّه فهو سهلٌ في جهدِهِ، عظيم في نفعه، كبير في ثوابه.

ولم يكن القصد من إيفاء العمل حقَّه أَن يؤخذ الفرد بالشدَّة والجبر لكيلا يحصل تفريط في مال الدَّولة وإنَّما القصد الطَّلب بالحُسنى، والعمل بأدب، وترك البغي لأَنَّ بتركِهِ مثابة للمرء إذا لم يكن في أدائه عقاب.

وعليكم بالإِنصاف من أَنفسكم حيث أَنَّكُم وُلِّيتم على أَموال الرَّعية فلا تخونوها، ولا تُقسروهم على ما لا يستطيعون، ولا تجهدونهم حيث لا يتمكَّنون، ولا تجبروهم حيث لا يرتضون. واصبروا على قضاء حوائجهم فإنَّكم خزَّان لأَموالهم تصرفونها على حوائجهم.

هذه سنَّة التَّطور، وهذه لمحة من سناء عبقريته وواقعيته، فقد سبق من قبله وأعجز من بعده بتفكيره الدِّيمقراطي السَّليم. المال من الشَّعب إلى الشَّعب وما الحكومة إلا خزَّان له تدفعه للأُمَّة حسب احتياجها، فهو ضريبة المجتمع على الفرد، وكلٌّ حسب طاقته ولكُلٍّ حسب حاجته.

وما رأَينا قطّ في سيرة الدَّساتير العالمية حتَّى النَّهضة حكماً أَوفى بهذه الدِّراية، وحاكماً أَعطى هذه الحقوق وهذه الحقائق الرّاهنة والّتي ما استوعبتها وحصلت عليها بعض الشُّعوب وفي القَرن العشرين إلا بعد نضالٍ مرير وحروب طاحنة بين السُّلطة والشَّعب استطاعت أَن تتسلَّم زمام حقِّ تقرير مصيرها وتدفع بعيداً بتلك الحكومات ذات نزعة التسلُّط والَّتي تؤمن بأَنَّ على الشعب أَن يدفع ضريبة الدَّم والمال دون أَن يعرف كيف يصرف ذلك وإِذا عرف فليس له حقُّ الإعتراض بل للسُّلطة الحرِّية المطلقة في التَّصرف في النّاس وفي أَموالهم **« واصبروا لحوائجهم فإنَّكم خزَّان الرَّعية »** وقد أَدركنا عند تمحيصنا للتَّاريخ بأَنَّ الشّعوب أَخذت حقوقها

أخذاً ولم تمنحه الحكومات أو الأحكام حتّى أرست عالم الحكم على صعيد إرادة الشّعب فإذا حظت السُّلطة بتلك الإرادة فازت بالثِّقة وبقيت في الحكم. ولكنَّ الإمام هو الحاكم وهو المدافع عن هذه الحقوق، وهو المثير للأُمّة بالمطالبة بحقّها، وهكذا فقد انفرد الإمام بهذا الأُسلوب من الحكم في ما سبق ولحق.

وله في جباية المال سلوك منطقي خلقي سليم يعتمد على المناظرة والإقرار بهدوء واحترام. وما على الجابي إلا أن يقوم بواجبه، فإذا أقرَّ الفرد بما وجب عليه من حقّ في ماله دفعه، وإلا فليس للجابي أن يعنت في الطّلب. أو أن يجبر أحداً على الدّفع بل للدّولة ما تراه في من رفض الدّفع، وعليها أن تقرّر حسب الأَحوال.

وها أنا أقتطف بعضاً من وصية يوصي بها عمّاله على الصّدقات (الزّكاة) كمثلٍ لما أسلفت.

«ثُمّ امضِ بالسّكينة والوقار حتّى تقوم بينهم فتسلِّم عليهم، ولا تخدج بالتَّحية لهم. ثم تقول، عباد الله أرسلني إليكم وليُّ الله وخليفته لآخذ منكم حقَّ الله في أموالكم نهل لله في أموالكم حق نتؤدُّوه الى وليِّه. فإن قال قائل، لا، فلا تراجعه، وإن أنعم لك منعم فانطلِق معه، من غير أن تخيفه، او توعده، أو تعسفه، أو ترهقه فخذ ما أعطاك من ذهب او فضَّة فإذا كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه...».

ليس لله في مال الفرد ما يستخلصه لنفسه، ولكنَّ الإسلام اعتبر حقَّ الله هو كلّ ما فرضه الشّرع للمجتمع من ضرائب، وهي لبيت المال تُوزّع على الرّعية بالعدل.

والزّكاة: من أهم الضّرائب المفروضة في الإسلام. وقد أطلق الشّرع الإسلامي عليها الزّكاة تسمية أخلاقيّة ذات معنًى فاضل واعتبرها الإمام مع وجوبِ دفعها

من النِّعم الَّتي يقدِّمها الفرد لمجتمعه حيث يقول «وإن أنعم لك منعم فانطلق معه» ويقصد بالمنعم دافع الزَّكاة وهذا من جميل الأَدب العلوي الرَّفيع.

ولم يكن هذا الأُسلوب في جباية الضَّرائب بمتبع والضَّرائب في عرف السُّلطات في ما سبق خالصة للخليفة وبطانته، ولمن يرتضيه، ولما يرضي سياسته، ويبقي حكمه.

لم تعتمد وصايا الإمام قط على قضايا آنية يحول الزَّمن بتقدُّمه على الأَخذ بها، وإنَّما هي قضايا عامة خالدة تعتمد على قضايا خلقية منطقية مطلقة، فهي ليست بأَحكام ذات صفة شخصية يتخلَّص منها المجتمع حال تخلصه من باعثها، بل أَحكامه كلِّيات تعتمد على العدل والحقِّ والخير وعلى رعاية المجتمع من حيث هو منبع السُّلطات.

عهد للأشتر النّخعي[1]:

هذا عهدٌ ساخت الأمم، وانصرمت العهود بما فيها من عقائدٍ وأحكام، وبما احتوت من نظم وشرائع وما زال هذا العهد بكراً ماثلاً بقيمه، وبخلود أحكامه، وقد سجّله الإمام إلى مالك الأشتر عندما أرسله لولاية مصر، وها أقتطف منه نُبذاً قصيرة للعرض والإستدلال.

« وليكن أحبَّ الأمور إليك أوسطها في الحقّ، وأعمَّها في العدل، وأجمعها لرضا الرَّعية. فإنَّ سخط العامة يجحف برضا الخاصة وإنَّ سخط الخاصَّة يغتفر مع رضا العامة.

وليس أحدٌ من الرَّعية أثقل على الوالي مؤونة في الرَّخاء، وأقلَّ معونة في البلاء، وأكره للإنصاف، وأسأل بالإلحاف، وأقلَّ شكراً عند الإعطاء، وأبطأ عذراً عند المنع، وأضعف صبراً عند ملمَّات الدَّهر من أهل الخاصَّة.

وإنما عماد الدِّين وجماع المسلمين، والعدَّة للأعداء العامة من الأمة، فليكن

---

(١) ص ٩٢ ج ٣ مالنهج محمد عبده.

صفوك لهم. وميلك معهم ».

تأمَّل أيها القارىء في هذه الحكمة البالغة والأَنظمة الخالدة.

وتروَّ في هذا الأُسلوب الأَدبي الرَّفيع حيث السِّياسة، وفلسفة الحكم، وعلم الإجتماع، وحقائق العقيدة والدِّين والإيمان.

« وليكن أَحب الأُمور إليك أَوسطها في الحقِّ ».

وخير الأُمور أَوسطها، به تجتمع الأَطراف، وإليه ترجع الجهات، وهو قطب الرَّحى ومركز الثِّقل، وليس فيه إفراط ولا تفريط، وليس فيه اندفاع ولا تقاعس، وليس فيه شح ولا تبذير، وليس فيه تهوُّر ولا جبن، إنَّما هو الكرم، والشَّجاعة وكما جاء قرآناً مبينا **(وجعلناكم أُمَّة وسطاً)** ولتكن من الحقّ وسطاً حتَّى تجتمع إليك أَطرافه، وتتمثَّل بك عدالته. فبالوسط مركز الثِّقل ومجمع القوَّة.

وعليك برضا العامَّة لأَنَّ لكلِّ إنسان رأيه، ولكلِّ امرىءٍ حرِّيته، ولكلِّ مواطن صوته، والعامَّة الكثرة السَّاحقة من الشَّعب فالمعوَّل على رضاهم، والدَّولة منُوطة بإرادتهم، فلا جدوى من رضا الخاصَّة (وهم القلَّة) بسخط العامَّة والعكس وارد.

وهكذا يمثِّل الإمام في حكمه العدالة الإجتماعية على أَرفع مستوياتها.

ثم أَفرد الخاصَّة بما هم فيه، وخصَّهم بما هم عليه، هم أَبطأُ النَّاس عطاءً في الرَّخاء، وأَقلُّ النَّاس مساعدةً للدَّولة في الشَّدائد.

لا ينصفون الناس من أَنفسهم، ولكنَّهم يندفعون بما يريدون، ويلحُّون إذا طلبوا.

إذا أُعطوا لا يشكرون، وإذا منعوا النَّاس حقَّهم لا يعتذرون، أَقلُّ النَّاس صبراً وأكثرهم غُنماً.

هكذا عرفهم الإمام، وكأَنَّما أفرغ في جُعبة الدَّهر كلَّ حقائِقهم حيث لا متَّسع لمضيف. نراهم بين ظهرانينا حيث هم كما يراهم أبو الحسن لا زالوا ملأَ العين والسَّمعِ بهذه العادات، بها يتَّسمون، وبهذه الأَخلاق يَتَّصفون.

ثم أفرد للعامة من النّاس تحليله فوضعهم موضعهم حيث يستحقُّون، ونعتهم بما هم له أَهل فتدبّر قوله: «**وإنَّ سُخط الخاصَّة يغتفر مع رضا العامّة**».

فليتروّ الإنسان ويتعمَّق في النَّظر إلى أَنَّ تلك المفاهيم ما سبق أن طرقها طارق في عهود سالفة، وما حملها إنسان على هذا المحمل عملاً وقولاً غيره.

لو تصفّحنا كلَّ ما أُثر عنه من مبادىء لرأَيناها تحمل هذه النّزعة، وتتّجه هذه الوجهة.

تبني حقوق الشُّعوب دولٌ وأَفراد فما بارحوا ما بعثتهم به دولهم، ولم تكن قدسيَّة الشُّعور بحقوق الإنسان إلا نزعةً إنسانيَّة يفرضها الضَّمير حيث وُجد إنسان وحيث اقتضى حق، فإذا التمسها المرء لمأربٍ في نفسه ذهبت إنسانيَّته، وبارحته قيمه، وسرعان ما يدرِكه النَّاس فتذهب سفسطائيته أَدراج الرِّياح، وهذا هو شعور الشُّعوب في عصرنا الحاضر، نحو من يلتمس قضاياها فيخونها.

ومن عهده:

(وأَشعِر قلبك الرَّحمة للرَّعية، والمحبَّة لهم، واللطف بهم، ولا تكوننَّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أَكلهم فإنَّهم صنفان: إمَّا أخ لك في الدِّين، أو نظير لك في الخلق...).

لم يطلب احترام الشَّعب حسب مقتضيات أَمر من الخليفة صادر، وإنما طلب الشعور بتلك الرَّحمة، والإحترام المبني على روح المحبَّة، ليكون ذلك عن سبب منطقي، وشعور ذاتي.

ولا تكوننّ عليهم كالوحش الضَّاري تغتنم الفرص للإيقاع بهم، والإستيلاء على ما بين أيديهم، حيث النّاس تجمعهم وإياك إمَّا العقيدة، وإمَّا صلة النوع والمشاعر والمظاهر.

فالمرعي نظيرك في خلقه، وسميّك في شكله.
لم يعدم الإمام أثر المبدإ، ولم يأْخذ بالمبدإ على حساب الإنسانيَّة.
آمن بالإسلام كمبدأ، وآمن بالإنسانيَّة كشعار لذلك المبدأ.
هذا إسلام عليّ وهذه حكومته الفاضلة.
أَبان الإمام ما للطّبقة الخاصَّة (الارستقراطيَّة - كما تُسمَّى الآن) من أهداف

وثوابتاً قد وصل بمعرفتها إلى الصَّميم، واستشفّها حتّى أبان باطنها من ظاهرها، وها هي ما زالت كما وصفها ولا عبرة بالشّواذ. ثم عطف على العامة من الناس، فوقف عندها متأمِّلاً وفاحصاً ومستوفياً فأعطاها حقّاً لم تحلم به حتّى في القرن العشرين في دول ذات سيادة وحقّ تقرير المصير.

وما زال نضال العامة في حقّ تقرير مصيرهم سائراً في وجهته، مواكباً لعصره، ولو كُتب لعليٍّ أن يأخذ مكانته في عصره لحقّق للبشريَّة أفضل حكم حلم به الإنسان، ولكانت البَشرية تسعد بذلك البناء الشّامخ الإنساني على مدى العصور، ولتسنّمت البشريَّة ذُرى مجدها الباذخ منذ أمد.

« إنَّ شرَّ وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً...».

لا يستوزر السُّلطان الجائر إلا من يرتضيه على مفاسده وشروره.

ولا تصح الوزارة بدون مسايرة للخليفة أو السُّلطان - ومن رضي عمل قوم حُشر معهم - ومن استرسل بالشّر تعوَّد عليه وانطبع به فلا يصحُّ استيزاره.

« ولا يكوننَّ المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء...».

قد تأخذ الوالي قيمة المرء الإجتماعيَّة إلى غضِّ النّظر عن إساءته، وقد يلتمس الوالي العذر لمن له أثر من علمٍ أو رئاسة أو مال. ولكنَّ الإمام يرى العدل بشموله، بما وُضع له، بغضِّ النّظر عن أيّ اعتبار، فالعدل مستقل بأحكامه، غاية لذاته.

« ولا تنقضنَّ سنَّة صالحة عمل بها صدور هذه الأمَّة...».

« وأكْثر مُدارسةَ العلماء، ومناقشة الحكماء، في تثبيتِ ما صلح عليه أمر بلادك وإقامة ما استقام به النَّاس قبلك».

« ثم اعرف لكلِّ امرىءٍ منهم ما أبلى، ولا تضيفنَّ بلاء امرىءٍ إلى غيره، ولا تقصرنَّ به دون غاية بلائه».

« ولا يدعونّك شرف امرىءٍ إلى أن تعظِّم من بلائه ما كان صغيراً، ولا ضعة امرىءٍ إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً ».

ثم انظر في أمور عمَّالك فاستعملهم اختباراً، ولا تولِّهم محاباة وإثرة...

وتفقَّد أمر الخراج بما يصلح أهله فإنَّ في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم، لأنَّ النَّاس كلَّهم عيال على الخراج وأهله.

وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلابِ الخراج لأنَّ ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ».

لا أُريد أن أَسترسل في تحليل هذا العهد، لأنّه جامع شامل لأسباب الحكم ويستوعب البحث فيه طويلاً. وإذا أردنا أن نبسط منه بدون تحليل وتدقيق فإنّه وافي القصد واضح المعالم سهل البيان.

وها أنذا أُقدّم باقة أُخرى من دوحة العهد المقدّس لتكون نبراساً للإنسان يهتدي بهديه.

ثم انظر في حال كتَّابك فولِّ على أمورهم خيرهم...

ثم استوصِ بالتُّجار وذوي الصّناعات وأوصِ بهم خيراً...

واعلم - مع ذلك - أنَّ في كثيرٍ منهم ضيقـاً فاحشاً، وشحّـاً قبيحـاً، واحتكاراً للمنافع، وتحكُّماً في البياعات، وذلك باب مضرَّة للعامَّة، وعيب على الولاة، فامنع من الإحتكار...

(ثم الله الله في الطَّبقة السُّفلى من الَّذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزَّمنى...).

(واجعل لذوي الحاجات منك قسماً تُفرِّغ لهم فيه شخصك...).

(وأمَّا بعد فلا تطولنَّ احتجابك عن رعيَّتك...).

(ثم إنَّ للوالي خاصَّة وبطانة فيهم استئثار، وتطاول، وقلَّة إنصاف في معاملة فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال...).

(وإنْ ظنَّت الرَّعية بك حيفاً فاصحر لهم بعذرك...).

(ولا تدفعنَّ صلحاً دعاك إليه عدوُّك لله فيه رضاً...).

(ولكن الحذر كلَّ الحذر من عدوِّك بعد صلحه...).

(فلا تغدرنَّ بذمَّتك ولا تخيسنَّ بعهدك...).

(إيَّاك والدِّماء وسفكها بغير حلِّها فإنَّه ليس شيء أدنى لنقمة، ولا أعظم

لتبعة، ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدة، من سفك الدّماء بغير حقّها...).

(وإيّاك والإعجاب بنفسك...).

(وإيّـاك والمنّ عـلى رعيّتـك بإحسانك...).

(وإيّاك والعجلة بالأمور قبل أوانها...).

(وإيّاك والإستئثار بما النّاس فيه أسوة...).

وهكذا يسترسل الإمام في معالم حكمته، ومبادىء حكومته، اقتطفت هذه الباقة العطرة لأُقدّمها كمثلٍ لفلسفة الحكم الصّالح لكل زمان ومكان.

فلو مررت ببحثك واستقصائك على كلّ الأُسس العامة للدّساتير العالمية الحديثة ثم عطفت بنظرك على دستور الإمام هذا لرأيته أكثر موضوعيَّة، وأفضل استقرائيَّة، وأشدَّ حبكاً وأفضل حكماً.

قد لا يدخل في خلد إنسان أنَّ بشراً سويّاً يؤتى هذه المقدرة في التّشريع، وهذه النّزعة الخالصة في تثبيت الحقّ، وهذا الإندماج الكامل بالرعيّة والعامّة من النّاس، وهذا الإتّجاه الصّريح في الفعل والعمل مع التّجرد التّام.

ولكن لا مجال للشّك فهو عليٌّ بن أبي طالب فريد نسجه، ووحيد تكوينه. فمن أيِّ سبيل وصلته رأيت نفسك في تيه من عظيم معارفه، ومختلف نواحي عبقريّته.

ومن أيِّ نهرٍ انحدرت وصلت إلى محيطٍ يزخر بمدركاته ومعارفه.

ومن أيِّ عين من عيون حكمته وردت ذقت ماءً زلالاً لا تشوبه شائبة، ولا يعكّر صفوه كدر.

هو عهد خصَّه لأحد ولاته، بل هو العهد المقدَّس الّذي يربط الإنسان بحكومته برباط الحب والإعتزاز، وتبادل المصلحة وحسن الجوار.

هو عهد الرّاعي الأمثل لرعيته، بل هو عهد الرّعية على الرّاعي، حيث هو

السَّبيل الأَبلج لارتهان السُّلطة الحاكمة بإرادة الشَّعب الّذي وكل إليها هذا الأَمر رعايةً لمصلحته.

وليكن أخصُّ النَّاس بالحكم أَفضلهم بالإختيار، لا لوساطة، ولا لرشوة، ولا لإثرة أَو قرابة.

ثم يولي وصيَّته الخراج وأَهله فالأُمَّة عليهما عيال، وبهذا قد أعطى لدافع الضَّريبة قيمته، وأَعطاه ما يؤهِّله لدفعها، ووضَّح للضَّريبة طريق صرفها إذ أَوصى بعمارة الأَرض، وتيسير الرِّبح، ولم يكن هدف الحاكم سلب ما بين أَيدي النَّاس، وإنَّما النَّظر في حالهم، والعمل على تطوير حياتهم.

ومن عظيم لفتاته، وجميل نظره في الإحتكار وفي التُّجار الملتمسين له كلمته الخالدة العبِقة بروح الإنسانيَّة.

(فامنع من الإحتكار).

فإنَّ من التُّجار من يدفعه طمعه، ويستولي عليه جشعه، أَن يضيِّق على الأُمَّة، ويشح على الشَّعب بعسر المعاملة، وحبس ما يحتاجه النَّاس بالإحتكار، ثم يبيعه بأَسعار باهضة مما تُسبِّب التَّزعزع الإجتماعي والإقتصادي، فامنع هؤلاء وإن لم يمتثلوا فنكِّل بهم.

واقطع بطانة السُّوء فلها الغنم، وعلى الشَّعب الغرم.

وإذا ما ظنَّ الشَّعب فيك سوءاً فابرز إليه بروز الشُّجاع في الصَّحراء لا ظِلَّ يظلّله، ولا قائم يخفيه لدفع الشُّبهة عن نفسك والإعتذار إلى الرَّعية بتجرُّدك.

وقد شبَّه الوالي الّذي يدفع عن نفسه مواطن التُّهم بالشُّجاع المقارع لنزوة الكبرياء، ومظاهر التَّسلط بالسُّلطة، لبروزه إلى الشَّعب بعذره، وبيراءته، حيث للشَّعب القول الفصل.

(فاصحر إليهم).

عليه أَن يظهر على حقيقته، ويقف مجرَّداً عن ظلال الحكم، يوضح ما استبطن لا أَن يلتمس القوَّة لقرع البغي لأَنَّ ذلك أَولى بتعميم إشاعة السُّوء، وأَسهل لنشرها، ولا يمكن مقارعة الأُمَّة فإنَّها سيِّدة الموقف.

وإِيَّاك أَن تطلب لنفسك أَكثر مِمَّا هو مفروض لغيرك فالنَّاس سواسية وأَنت أَحدهم لك ما لهم سوى سلطة اختصِصت بها فلها قيمتها، ولك منها غنم السُّمو المعنوي، والرِّفعة الإجتماعيَّة فإِيَّاك أَن تنال أَكثر مِمَّا النَّاس فيه سواسية.

كان عليٌّ في حكومته يؤثر العامة على الخاصَّة، ويؤثر الصَّالح من النَّاس على الطَّالح وذلك حسب ما مركوز في كلٍّ منهم. بدون أيِّ اعتبار ماليّ أَو سياسي أو قبيلي. وكان سمو الإنسان لديه بسموِّ إنسانيَّته.

كانت بطانته تسمو بسموِّه، وكان خلصاؤه يتمثَّلون بمبادئه، وكان أَقرباؤه يتَّسمون بمثاليَّته وتجرُّده، لم يأخذ أَحد عليهم حُكماً في جور، ولا ترفُّعاً في ولاية، ولا استِغلالاً للرَّعيَّة، ولا ابتعاداً عن الحقِّ والعدل.

فمن قرَّبه إنَّما آثره بما يستحق، لا أثرةَ لقرابة، ولا إيثاراً لبطانة، ولا تعزيزاً لزمرةٍ لأَجل تثبيت حُكْمٍ وسياسة سلطان.

لم يكن مِمَّن يستعبد فيأخذ النَّاس بالقوَّة والجبر والمناورات السِّياسية.

شاءت الأَحوال وارتأَت الظُّروف أَن تجنح هذه السِّياسة في ملتطم أمواج البغيِ والعدوان على صَخرةِ الباطل الَّذي استشرى وعمَّ.

وقف الباطل كلُّه موقفاً عنيداً، وواتته ظروف سابقة، وأَحوالٌ لاحقة شوَّهت القيم، وسمَّمت المفاهيم، وارتادت بالباطل كُلَّ موردِ فاستطاعت إقصاء أَخلص رجال الثَّورة الإِسلاميَّة، وإبعاد أَبرز الذَّائدين عن بيضة الإسلام كعليٍّ والمقرَّبين منه.

جاء عليٌّ إلى الخلافة وجاءت الإثارة عليه باسم الإسلام، وباسم الإيمان، لا باسم الجاهليَّة والشِّرك، ولهذِه الطَّامة الكُبرى، حيث يُبارز عدوَّه وقد تمنَّع بإظهار الولاء للعقيدة نفسها وهو منها براء فكيف لعليّ أن يقنع الأُمَّة بما ذهب إليه هؤلاء ثم يحملها على حربهم، والقضاء على أُحدوثتهم وهم على أَشدِّ القوَّة إذ لهم الثَّراء الكبير، والدِّعاية الواسعة، والإثرة السَّابقة من قِبَلِ السُّلطة كأَمثال معاوية وطلحة والزُّبير وعمرو بن العاص وأَضرابهم.

هؤلاء الَّذين لا تمنعهم وصولِيَّتهم من زج الأُمَّة في كلِّ معضل للوصول إلى

أهدافهم غير المشروعة. والنَّاس بأفعالهم لا بأقوالهم، وكلُّ عملٍ لهؤلاء يعطي دلالته، وقد عرفنا الإمام مجرَّداً عن المصالح الخاصة في كلِّ ما أُثر عنه، وقد أثاروها عليه حرباً شعواء ليس لهم من مأرب إلا مصالحهم الخاصَّة، وهذا ما حمل المتتبِّع المجرَّد يضعهم حيث هم. ولم يستطع أحد أن ينسب للإمام عدا التَّجرد للصَّالح العام.

وكيف؟ والإمام يحارب هؤلاء بالإنسانية المطلقة، وبالعدالة المنزَّهة وبالحقِّ الصَّريح، والنّاس تأخذهم الرَّشوة، وتدفعهم الحظوة، وتنالهم المداهنة، ولا بد لهم من رئيسٍ على هذه الشَّاكلة، يُباين فيقدِّم من يريد أن يقدِّم لتثبيت سلطان، ويؤخر من يُريد ان يؤخر لتحقيق استعباد، ولكنَّ الإمام صاحب عقيدة وإيمان.

وإنَّ للرُّؤساء والقادة والولاة منعة ومتعة وجاهاً وعطاءاً ما ليس للعامة منه نصيب، والحال أنَّ الرَّعية الخاصَّة منهم والعامَّة عند الإمام سواء.

والإمام ينظر النَّاس بالإسلام، والإسلام بالإيمان، والإيمان بما أَفضى به الرَّسول وبلَّغ، والحال أنَّه لم يبق من الإسلام إلا المظاهر، وأمر المسلمين بيد من أبعدهم الرَّسول بل ولعنهم أمثال مروان وليس لأهل الحقائق الشَّرعية والقِيم الثَّورية[1] الإسلامية مِن رأيٍ يؤخذ به، ولا أثر يُعتدُّ بذكره عدا من أُخذ على رأيه، وعُفي على أثره أمثال أبي ذر وعمَّار وعبد الله بن مسعود.

وقف الإمام أمام هذا التيَّار الجارف الَّذي طوى الأُمَّة من أقصاها إلى أقصاها موقفاً عنيداً جبَّاراً.

ولكن أيُّ عظيم مهما وصلت به العظمة، وأيُّ شجاعٍ وقائد مهما وصل به الإدراك، وبلغ من البأس وحصانة الرَّأي، فلا يستطيع أَن يثبت أمام هذا التيَّار الجارف دون أَن يتزَعزع عن مبدئه، أَو يشذَّ عن إنسانيته إلا الإمام عليّ، وهكذا استبسل أَبو الحسن ووقف تِلك المواقف الرَّائعة ليُرجع الأُمَّة إلى حظيرة ثورتها وإسلامها.

وقف لكلِّ تلك النَّزعات اللا إنسانية موقفاً جبَّاراً عنيداً، ثم اندفع يهدُّ حصناً

---

(١) لمن يريد التوسع (عثمان) للدكتور طه حسين.

بعد حصن، ويقوِّض سدّاً بعد سدّ، ويُزيل الأَطواد الشّامخة بقوَّة الحقِّ والعدل، حتَّى كاد ينتصر نصراً حاسماً على الظُّلم والفساد، وعلى طبقة خاصَّة أُحرقت الحرث والنَّسل، ولم يبقَ إلا معاوِية المزَعزع في صفِّين، ولكن ضربةٌ من يدِ أُثيمةٍ أماتت هذا الطَّود الشَّامخ، وأَزالت هذا الصَّرح العتيد، وهو في محرابه حيث نذر نفسَه لَه.

لم نغفر ولن نغفر تلك الزَّلة الكبرى لمناوئيه لأَنَّهم ناوؤوا العروبة والإسلام، والإنسانيَّة جمعاء وما زالت تِلك التَّبعة ماثلة وستبقى.

فلو لم يكن لمحمد وللعروبة غير هذه العبقريَّة الفذَّة، وهذا الإنسان المعجز، لَحقَّ لهما أَن يفخرا، ويطاولا الأُمم.

فهو تلميذُ محمد وابن يعرب فعلينا أَن نقدِّمه على مستواه العالمي الإنساني وليست له حاجةٌ بأَقلامنا، ولكن ما أَحوجنا إليه وإلى رشده وتعاليمه.

هذا عليٌّ في حكومته سرت فيها راشفاً من كلِّ معين ثمالة، وحاملاً من كلِّ شعلة قبساً، وآخذاً من كلِّ حديقة وردة، ومتناولاً من كلِّ شجرة ثمرة ليكون ذلك عبرةً واعتباراً.

بعض أَحكام الإِمام:

نقل صاحب المَناقب عن الزَّمخشري في المستقصى، ونقل ابن مهدي في النُّزهة عن ابن سيرين وعن شريح القاضي: أَنَّ أمير المؤمنين رأى شاباً يبكي فسأَل عنه. فقال أَبي سافر مع هؤلاء ولم يرجع حين رجعوا وكان ذا مال عظيم فرفعتهم إلى شريح فحكم عليّ:

فتمثَّل الإِمام بهذا البيت:

أوردها سعد وسعد مشتمل يا سعد ما تُروىٰ على هذا الإبل

ثُم قال: إنَّ أَهون السَّقا التَّشريع.

فاستقصى الإِمام الحقيقة وخالف شريحاً في حكمه حيث أَنَّه طلب البينة ولا يمكن إثباتها من فتىً لم يدرك وجهته، والحال على القاضي بأُسلوبه الخاص أن يلتمس البيِّنة، ويستقصي في الحقيقة ثم يجمع الأدلَّة للإدانة، وقد التمس الإمام في هذه الحالة طريقة مُثلى.

دعا أَحدهم وسأَله عن كلِّ ما يتعلَّق بسفرهم وما شأن القتيل معهم. ثم كبَّر وكبَّر من كان معه، وكان ذلك على مسمع من المتَّهمين الباقين دون أَن يحضروا حديث صاحبهم فظنُّوا به قد أَقرَّ بجريمتهم.

ثم أَمر به إلى السِّجن، واستدعى آخر منهم وعند دخوله فاجأه قائلاً: (زعمتم أَنّي لا أَعلم ما صنعتم؟).

فأَقرَّ هذا ثم دعا الجميع فأَقرُّوا وأَلزمهم الإمام بالمال والدَّم.

ومما يروى أنَّ الإمام أول من فصل بين الشُّهود في الإسلام، وأول من سجل محضراً وثبَّت شهادة بالتَّسجيل.

ومن طريف حِكَمه وحكمته القضائية ما رواه الصَّدوق بإسناده عن سعيد ابن طريف عن الأَصبغ:

قال: أَتى رجل إلى أَمير المؤمنين فقال: (إنِّي زنيت فطهِّرني) فأَقبل عليٌّ على القوم فقال:

«أيعجز أَحدكم إذا قارف هذه السيِّئة أن يستر على نفسه كما ستر الله».

فقال الرَّجل: **«يا أَمير المؤمنين إنِّي زنيت فطهِّرني».**

فقال: **«وما دعاك إلى ما قلت؟».**

قال: **«طلب الطَّهارة».**

قال: **«وأيُّ طهارة أَفضل من التَّوبة؟».**

واحتجَّ عليه الأَشعث بتعطيل حدٍّ (كما سبق) فأَجابه الإمام:

(إذا قامت البيِّنة فليس للإمام أَن يعفو، وإذا أَقرَّ المرء على نفسه فذلك للإمام إن شاء عفا، وإن شاءَ قطع «أيْ حدَّ»).

كان الإمام في موضوعه هذا بعيد القصد حسن التناول، لم يسأَله لماذا زنى لأَنَّه يُدرك حقيقة الإنسان إذا اشتدَّت به الحاجة، وأَلمَّت به النزوة وواكبته الأَحوال فقد تخرجه من سلطانه على نفسه فيقترف ما يسيء لها.

ولم يقرِّعِ الرجل أَو يندِّد به في مجتمعه وبين قومه حيث رآه بإقراره وتوبته لا ينبغي أَن يهان.

ولم يلح بالإبتعاد عن هذه المفسدة بمقدار الحاجة بالتَّستر على فاعلها، حيث التَّستر يعظِّم من شناعتها ويحيطها بسوء مغبَّتها، وأما الإسترسال في ذكرها فيقلِّل من سوء مغبَّتها، فإذا أَكثر النَّاس من ذكرها تشجعوا على اقترافها واستثاروا لطلبها. وبإعفاء الإمام هذا قد شجع على الإقرار، والإقرار استغفار وتوبة مِمَّا يُخفِّف عن كاهل القضاء جهد الإثبات، ويُشجع المرء على التَّوبة والشُّعور بالكرامة

وهذا ما يجعل لدى الإنسان رادعاً من نفسه ومحاسباً من ضميره.

وعن كتاب مناقب الخوارزمي:

أنَّ عمر رضي الله عنه أمر برجم امرأة حامل اعترفت بالزّنى فقال له عليٌّ (ع): **«هذا سُلطانك عليها فما سلطانك على ما في بطنها. فلعلّك انتهرتها أو أخفتها»**[1].

وكان إذا عُرضت عليه قضيَّة قد حدثت في الجاهلية ولم يبتَّ فيها، فكان يأخذ بما كان مُعتبراً عند العرب في ذلك العهد، لأنَّه حكم في مسألة إرث كانت في الجاهلية وأدركها الإسلام فقضى بها بما كان معتبراً في ذلك العهد. وهذا ما هو معمول به حالياً حيث القوانين لا تتَّخذ مفعولاً رجوعياً[2].

وقد قضى أن يحجر الغلام المفسد حتَّى يعقل، ويحبس الفسَّاق من العلماء، والجهال من الأطباء، والمفاليس من الأكرياء، حيث العالم أولى بالصَّلاح، والأطبَّاء أولى بالمعرفة، والمفاليس أولى بعدم التَّعهد بالقيام بما لا طاقة لهم به.

فالعالم لاتِّساع مداركه أولى بالتَّمتع بصفات الصَّلاح فإذا بادر إلى المفسده تبعه خلق كثير.

والطَّبيب يلزمه العلم لتعلُّقه بذات الإنسان، بحياته، لا بعرض زائل من متاعه، فإذا فرَّط لجهله فقد جنى جناية لا يمكن تعويضها.

وأمَّا المفاليس من الأكرياء فقد يأخذون النَّاس إلى حيث يطمئنونهم بما ليس لهم القدرة عليه. وقد يتعهدون بالتزامات فيقبضون الأجر ولا يستطيعون الأداء وهؤلاء كما هو معروف في حاضرنا تحكم عليهم المحاكم بالإفلاس ويوضعون في القوائم السُّود تحذيراً من معاملتهم.

ومن طريف حكمه: كما روى الطَّبري[3]:

أنَّ ثوراً قتل حماراً فقال عليه السَّلام: إن كان الثَّور دخل على الحمار في

---

(١) المناقب للخوارزمي الحنفي ط ٢ ص ٣٩.

(٢) قضاء أمير المؤمنين للتستري ص ١٦١.

(٣) قضاء أمير المؤمنين - للتستري ص ١٥٦.

مستراحه ضمن أَصحاب الثّور، وإن كان الحمار دخل على الثّور في مستراحه فلا ضمان عليهم.

وذلك هو الواقع حيث أَنَّ حرمة الإقامة، وحصانة البيوت لازمة حتّى في مثل هذه الحال.

فلو قتل الحمارُ في محل إقامته فقد دلَّ ذلك على تفريط أَصحاب الثور في رعاية بهيمتهم، وهذا ما يلزمهم الدِّية لصاحب الحمار، وإذا كان العكس فلا دية حيث أنَّ خسارتهم جزاء تفريطهم في عدم رعاية بهيمتهم.

وقد قضى لرجل ضرب امرأة فأَلقت علقة فحدَّد لهذا الإجهاض أربعين ديناراً وتلا قوله عزَّ وجلَّ:

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالةٍ من طينٍ، ثم جعلناه نطفة في قرارٍ مكين، ثم خلقنا النُّطفة علقةً، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ».

جعل الدِّية تتمشّى مع تطور خلق الطِّفل أثناء الحَمل حتّى يتماثل كاملاً.

إذ قال: **في النُّطفة عشرون ديناراً.**

وفي العلقة أَربعون ديناراً.

وفي المضغة ستون ديناراً.

وفي العظم قبل أَن يستوي خلقاً ثمانون ديناراً.

وفي الصُّورة قبل أن تلجها الرُّوح مئة دينار.

وإذا ولجتها الرُّوح كان فيه أَلف دينار.

والمقصود بولوج الرُّوح التَّحرك لاستقبال الحياة فكانت هذه المسألة بمجموعها من أبرع التَّطبيقات الشّرعية وأَعظم الإستنتاجات العقليّة.

وقد أتيت بهذه الطّرف القَليلة لأجلِ الإستدلال وقد أَلَّف كثير من الفضلاء كُتباً مطوّلة في ما أُثِرَ عنه في أحكامه وقضائه، وقد ذكر السَّلف كثيراً منها مشتتة في كتبهم.

التراث الحضاري الاسلامي
العربي والإمام علي (ع)

لم يكن لِلأُمَّة العربية تاريخ حضاري مستوعب لمعارِفهم ومداركهم قبل الإسلام لضياع أَثر تسجيله، أَو لإِهمال تسجيله في حينه، أَو لتشتتهم في أَمصار متفرِّقة متباينة متباعدة.

أَدركَتنا من هذه الأُمَّة لغة مستوعبة للمعرفة، متكاملة القصد، قويَّة في السَّبك، ذات موازين دقيقة، وتصريف قويم، وموسيقى لفظيَّة شائقة، وخط جميل بحروف مختزلة إلى عدد في التَّشكيل يسير، وكتابة مختزلة بوجود علامات الإعراب من فتحة وضمَّة وكَسرة مِمَّا تعوّض عن حروف لازمة مكانها كما في اللغة الإنكليزيَّة أَو الفَرنسيَّة وغيرهما.

إحتفظت اللغة العربيَّة بظاهرة الإعراب وقد فقدتها اللغات الأُخرى حتَّى السَّامية الحاضرة كالعبرية والحبشية.

لم تكن هذه اللغة قريبة النشأة عن صدر الإسلام بل ذات وجود قديم، وذات تطوُّر عريق حسبما نراه في لغة القُرآن والحديث ونهج البلاغة بل وكلٍّ ما أُثر عن السلف في عصر الإسلام الأَول وقبله.

عرف العرب القراءة والكتابة واستوعبوها، ولكن لم تؤثر عنهم مسجلات مخطوطة محفوظة تعطينا صورة واضحة لمعالمهم حتَّى أَتى الإسلام، وفجَّر الطَّاقات العربيَّة الخلاَّقة، وفتح بهم الأَمصار، وأَشاع بهم حضارة ذات مفاهيم واسعة، مما جعلهم يتَّجهون بكلٍّ ما لديهم من معنويات وماديات لهذه الوجهة مع اسدال

التّتار عن ماضيهم، بل عدم إعارته النّظر الكافي، وكان القضاء على أثر العهد الجاهليّ أوفى من الإحاطة به خوفاً من الركون إليه والرجوع لوضعه ولا سيَّما وقد أفاء الإسلام عليهم الخيرات من فوقهم ومن تحت أرجلهم، وقد أخذهم الإسلام إلى حيث يرتضون.

وبالطَّبع إنَّ ما يضيِّعه الأوائل يصعب على الأواخر إدراكه.

أتى الإسلام حاملاً بطيِّه ثورة شاملة في مختلف مفاهيم الحياة.

أتى بفلسفة جديدة مبنيَّة على خطوط عريضة من الإلفة والحرِّية والعدالة. وعلى تنظيم عسكري عظيم مبني على الواجب المقدَّس في فرض الجهاد، وعلى تخطيط اقتصادي دقيق حيث المسلمون سواسية في كلِّ ما أفاء الله به عليهم، إذ جعل كلَّ ما أفاء الله بالفتح ملكاً لعامة المسلمين إلا ما نشأ الإسلام فيه نشوءاً ذاتيّاً كالمدينة.

وقد فرض الخمس والزَّكاة، وحثَّ على الصَّدقات، وجعل في الإرث حقّاً معلوماً. وفرض القيمومة من الفرد على المجتمع، ومن المجتمع على الفردِ «كلُّكم راع وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته».

هذه الثَّورة الكبرى لم يكن ليستوعبها استيعاباً كاملاً غير الإمام عليّ، بل كان المثل الكامل الأوحد لها، فتمثَّلت فيهِ وتمثَّل فيهَا، وكان المنطلق الأفضل لمختلف مفاهيمها.

كان عهد الرَّسول عهد حرث وسقي وبذر قليل أمده، جليلة أحداثه، واسعة معالمه، فلم يعط ثمره كاملاً على المستوى العقيدي والثقافي الواسع، فلا بد من خليفة له ما للرَّسول قوَّة وحنكة وإيماناً وعقيدة.

ذهب الرَّسول إلى لقاء ربِّه وبقي الإسلام مندفعاً للفتح بين مجاهدٍ لوجه الله، وبين عربي حالم، وبين محتطب لغنم.

شاءت الأحوال أن يُبعد الإمام في هذه الحقبة من الزَّمن المهمَّة الحرجة إبعاداً عن المجال العسكري والإداري والقضائي.

إستسلم الإمام إيثاراً لجمع الشَّمل، وحبّاً للوئام ثم ركن إلى التأمُّل والتَّفكير

ودراسة الأَوضاع عن كثبٍ، ثم قارب الحكم وماشاه وبذلك ابتدأ يرتق فتقاً، ويبدي نصحاً، ويرأب صدعاً.

ولمَّا لم تكن لنزعة التَّسلط والحكم عند الإمام من موقع في نفسه، واندفاع في طبعه، فقد انقطع للمعرفة والتَّفكير.

شهادة معاصريه:

أورد الثّقات من المؤرّخين ما كان عمر بن الخطّاب (رض) يردّده في عليّ:
(أقضانا عليٌّ) ص ٧٨ الصّواعق المحرقة لابن حجر الشّافعي (ج ٢ ص ١٩٨) الرّياض النّضرة.

(لابقيت لمعضلةٍ ليس لها ابو الحسن) ج ٢ ص ٤٨٤ في الإستيعاب لابن عبد البر ص ٨٢ ذخائر العُقبى للطّبري الشّافعي.

وجاء في الإستيعاب بسنده عن عائشة (رض) أنّها قالت في عليّ **(أما إنّه أعلم النّاس في السُنّة)**.

ولّما سأل عطاء عائشة (رض) عن عليٍّ قالت: **(ذلك خير البشر لا يشك فيه إلا كافر)**. كما جاء في كفاية الطّالب للكنجي الشّافعي ص ١١٩. وفي ينابيع المودةِ للقندوزي الحنفي ص ٢٤٦.

ولّما قال: (محفن بن أبي محفن لمعاوية جئتك من أعيا النّاس). قال له: **(ويحك كيف يكون أعيا النّاس فوالله ما سنَّ الفصاحة لقُريش غيره)**(١).

ولّما سمع معاوية بقتل عليٍّ بن أبي طالب قال: **(ذهب الفقه والعلم)**.

ولما سئل حبر الأمّة - عبدالله بن العبّاس وهو من أكبر المصادر والمراجع الإسلاميّة عن مقدار علمه من علم ابن عمّه عليّ(٢)؟ أجاب: **(كَنسبة قطرة من**

---

(١) سيرة أمير المؤمنين للأمين ص ٥٦.

(٢) سيرة أمير المؤمنين للأمين ص ٥٧.

المطر إلى البحر المحيط).

وأمَّا شهادة الرَّسول الَّذي واكب الإمام وربَّاه وأنشأه فهي أفضل الشَّهادات.

فقد جاء عن الكنجي الشَّافعي في الكفاية ص ٩٨ وعن ابن حجر في الصَّواعق المحرقة ص ٧٣ وعن الخوارزمي الحنفي في المناقب ف ٧ ط ٢ ص ٤٠ وعن الخطيب البغدادي في أماكن متعدِّدة. وعن مصادر أُخرى كثيرة قال الرَّسول: (أنا مدينة العِلم وعليٌّ بابها).

وجاء عن الشَّيخ سُليمان القندوزي الحنفي في ينابيع المودة ص ٢٥٤ (عليٌّ باب علمي ومبيِّن لأُمَّتي ما أُرسلت به من بعدي).

وقد نصَّ القُرآن (وأتوا البيوت من أبوابها). وعليٌّ باب علم الرَّسول ومن الرَّسول انطلق الإسلام. وهذا دليل قاطع ونصٌّ واضح على أنَّ المفسِّر الأفضل بل الأوحد لما جاء عن الرَّسول هو عليٌّ بن أبي طالب.

(وما ينطق عن الهوى إنْ هو إلاَّ وحيٌ يوحى).

وقد ورد في ينابيع المودة ص ٢٥٣ نقلاً عن مودة القربى للهمداني الشَّافعي وفي الكوكب الدُّري ص ١٣٣ كما جاء عن عمر بن الخطَّاب وولده عبدالله (رض) في حديث طويل عن الرَّسول في مرض وفاته، وفي آخره.

(وإنِّي أَوْصيت عليّاً وهو أفضل من أتركه بعدي).

وبالطَّبع إنَّ الفضل الَّذي أولاه به الرَّسول لا لقربىً أو نسب لأنَّ ذلك ممَّا يخالف الإسلام بل للعلم والعقيدة والجهاد.

وجاء في المناقب للخوارزمي الحنفي في الفصل الرَّابع عشر بسند متصل قال رسول الله: (عليٌّ منِّي وأنا منه ولا يَقضي عنِّي إلا أنا أو عليٌّ).

وقال: (أَقضى أُمَّتي عليٌّ بن أَبي طالب)(1).

وقال: (أعلم أُمَّتي من بعدي عليٌّ بنُ أَبي طالب)(2).

اقتطفت هذه النُّبذة القصيرة عن أبرز رجال المسلمين وأشدِّهم اتصالاً بالإمام

---

(١) و (٢) ف ٧ المناقب للخوارزمي.

ومواكبةً له ولشهادة العدول الأَثر البالغ في إثبات القصد.

وكذلك عن ألدّ أَعداءِ الإمام وأَكثرهم بغضاً له كمعاوية.

فلو تتبّعنا تاريخ التُراث الحضاري الإسلامي والعربي لأَوصلنا المطاف إلى الإمام عليٍّ بن أبي طالب حيث المدارس الثقافيّة الإسلاميّة والعربيّة بشتّى فروعها تتصل بمعارفه وتتفيّأ ظِلاله وتؤمن بعبقريته وسبقه.

رجع إليه الفقه والإجتهاد وسند الحديث والسُّنة وصحة الفتوى وصواب التّفسير.

في السُّنة:

شهد عبدالله بن العبَّاس وهو من أكبر رواة الحديث، ومن أفضل مراجع السُّنة بتتلمذه على الإمام، وأخذه منه، وقد أقرَّت عائشة، وهي من أبرز رواة الحديث ومراجع السُّنة بقولها: (**أما إنَّه أعلم النَّاس في السُّنة**)[1].

وعن عبدالله بن مسعود كما ذكر الحاكم في (المستدرك) وكما جاء في (أُسد الغابة) وفي الإستيعاب (**أَنَّ أقضى أهل المدينة عليٌّ بن أبي طالب**). وبالطَّبع إنَّ المدينة محتوى الرِّسالة، ومهبط الوحي، ومنزل أبرز الصَّحابة.

رجعت إليه المذاهب بشتَّى مفترق سبلها، والنحل بمختلف آرائها، وقد أفاض الماضون في ذلك، فقد ذكروا أنَّه قرأ أبو حنيفة على جعفر بن محمد، وهذا ينتهي بقراءته وسند حديثه إلى الإمام عليٍّ بن أبي طالب. وكذلك مالك بن أنس.

وقد أخذ وتتلمذ مالك بن أنس على ربيعة، وهذا على عكرمة، وهذا على عبدالله بن العبَّاس، وهذا أخذ عن الإمام عليٍّ.

وقد قرأ الشَّافعي على محمد بن الحسن تلميذ أبي حنيفة، وعلى مالك بن أنس.

وقد قرأ أحمد بن حنبل على الشَّافعي وكان يقول: (**ما جاءَ لأحدٍ من أصحاب رسول الله من الفضائل ما جاء لعليٍّ بن أبي طالب**)[2].

وقد اشتهر الشَّافعي بولائِه لعليٍّ، وشدَّة تمسُّكه به، وكثرة الإفاضة فيه، من

---

(١) سيرة أمير المؤمنين - للأمين ص ٦٥. المناقب للخوارزمي ط ٢ ص ٤٦.

(٢) المناقب للخوارزمي ط ٢ ص ٣.

القول والشعر. فقد جاء عن الشّافعي: **(ما أقول في رجل - يقصد الإمام - أخفت أعداؤه فضائله حسداً، وأخفت أولياؤه فضائله خوفاً، وقد شاع من بين ذين ما ملأ الخافقين)**(١).

ومن شعر الشّافعي في الإمام كما جاءَ في النّصائح الكافية لمحمد بن عقيل الشّافعي ص ٢١٨.

قالوا ترفّضت قلت كلاّ ... ما الرّفض ديني ولا اعتقادي
لكن تولّيت دونْ شكٍّ ... خيرَ إمامٍ وخير هادي
إن كان حبُّ الوصي رفضاً ... فإنَّني أرفض العبادِ

وقد أورد في بيته الثّاني ممّا لا يدع للشّك سبيلاً في اقتدائه بالإمام وتشيعه له وأخذه عنه كأفضل مرجعٍ وسند، وخير إمام وهاد .

وأمّا رجوع الشّيعة على اختلاف مشاربهم إليه فوارد، دون الإلتجاء لدليلٍ، حيث أنَّ لفظ التّشيع يعطي الدّليل ذاتاً لا عرضاً.

وأمّا المعتزلة فكبيرهم واصل بن عطاء تلميذ أبي هشام عبدالله بن محمد بن الحنفية بن عليٍّ بن أبي طالب.

وأمّا الزّيدية فمرجعهم إلى زيد بن علي بن الحسين بن عليٍّ بن أبي طالب وهم من فرق الشيعة.

وأمّا أهل الطريقة والتّصوف فإليه ينتمون، وبه يقتدون، كما ذكر ذلك عن الشبلي والجنيد والسري ومعروف الكرخي وغيرهم كثير.

وإنَّ الخرقة الّتي هي شعار أهل الطّريقة والتّصوف إلى اليوم يسندونها إليه بسند متصل.

وأمّا علم القراءة وأئمته، فرجوعهم إلى أبي عبد الرّحمن السّلمي، وهذا يرجع إليه وممن تتلمذ عليه.

وقد أفاض ابن أبي الحديد المعتزلي في هذا الموضوع وأوفاه حقه في شرحه لنهج البلاغة.

---

(١) رواه الخياباني في وقائع الأيام ج ٣ ص ٤٧٤ نقلاً عن الأنوار البهية.

وها أنا أختتم هذه اللَّمحة من عبقريته بما أفاض الرَّسول وهي شهادة دونها كلّ شهادة كما جاء في (الرِّياض النَّضرة لمحبِّ الدِّين الطَّبري الشافعي ج ٢ ص ١٩٨).
(أنَّه أقضى أُمتي عليٌّ)[١].

فلو أردنا الإسترسال في الإستدلال، وبسط الحجج، وذكر الشَّواهد، لطال بنا البحث.

فالتُّراث الإسلامي تراث العقيدة والإيمان تراث الإمام عليٌّ، فهو المرجع الأكبر والسَّند الأَوضح، والدَّليل القاطع، والوصيُّ المبَلِّغ.

(١) وجاء في مناقب الخوارزمي ط ٢ ص ٣٩.

في اللغة:

أمّا العلوم العربية اللغوية من بلاغه وفصاحة وخطب ورسائل ونحو فمرجعها إليه ثابت، فقد رجع إليه أساطين البلاغة والفصاحة في الأُمة العربية. يتفيَّؤون ظلاله، ويترشفون نهل رسائله وخطبه، وقد شهد بذلك أفضل كتاب العرب، وسادة القول والبيان.

فقد أفصح الكاتب المشهور من العهد الإسلامي الأول عبد الحميد بن يحيى بقوله: (حفظت سبعين خطبة من خطب الأصلع ففاضت ثم فاضت) بما يستدل منه على تتلمذه على الإمام وأخذه منه.

وقد ذكره الخليل بن أحمد العلاّمة المشهور صاحب علم العروض وأول واضع للقاموس العربي ومن أكابر علماء اللغة في صدر الإسلام بقوله (احتياج الكل إليه « يقصد الإمام » واستغناؤه عن الكلّ دليل على أنّه إمام الكلّ).

وقال ابن نباتة: (حفظت من الخطابة كنزاً لا يزيده الإنفاق إلا سعة وكثرة. حفظت مئة فصل من مواعظ عليّ بن أبي طالب) وقد أفاض الجاحظ أبو عثمان العالم المشهور في ذكر الإمام عليٍّ، وبما له من سبق في البلاغة والفصاحة وكان ذلك في كثير من كتبه.

وقد ذكر المسعودي في مروج الذّهب: (أنّه حفظ النّاس عن الإمام عليٍّ أربع مئة ونيفاً وثمانين خطبة يوردها على البديهة).

فنهجه واضح الحجة، بين الدّليل على ما اتّصف به من أدب رفيع، وفصاحة

وبلاغة وحيدة.

كان الإمام مشرّعاً للفصاحة وسانّاً للبلاغة.

كان يمتاز بدقّة السَّبك، وحسن الأُسلوب، وإحكام الحجَّة، وسهولة اللفظ، وجزالة المعنى، وبساطة التَّعبير، والإحاطة بالقصد.

في النَّحو:

كان أوَّل واضع لعلم النَّحو، وأوَّل بانٍ لأُسسه في الأُمة العربية.

فقد نقل الحموي في أُدبائه عن الزَجاج بسند عن أبي الأَسود الدُّؤلي، وقد ورد هذا الخبر عن موارد أُخرى، وبأساليب متقاربة، وهذا ما نص عليه الحموي:

قال أبو الأسود الدُّؤلي: (دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) فرأيته مفكراً).

فقلت: (فيمَ تفكر يا أمير المؤمنين؟).

قال: (إنِّي سمعت ببلدكم لحناً، فأردت أن أضع كتاباً في أُصول العربية).

فقلت: (إنْ فعلت هذا يا أمير المؤمنين، أحييتنا وبقيت فينا هذه اللغة). ثم أتيته بعد أيَّام فألقى إليَّ بصحيفة فيها:

(بسم الله الرَّحمن الرحيم. الكلام كلُّه إسم، وفعل، وحرف.

والفعل: ما انبأ عن حركة المسمّى

والحرف: ما أنبأ عن معنىً ليس باسم ولا فعل).

ثم قال لي: (تتبعه وزد فيه ما وقع لك، واعلم يا أبا الأسود أنَّ الأشياء ثلاثة. ظاهر، ومضمر، وشيء، ليس بظاهر ولا مضمر).

قال أبو الأسود: (فجمعت أشياء وعرضتها عليه وكان من ذلك حروف النَّصب منها، إنَّ وأنَّ وليتَ ولعلَّ. ولم أذكر لكنَّ).

فقال: (لِمَ تركتها؟).

فقلت: (لم أحسبها منها).

فقال: **(بل هي منها فزدها فيها).**

وذكر الزَّجاج أنَّ الشَّيء الَّذي ليس بظاهر ولا مضمر فهو المبهم.

لم يكن الإبتداء بهذه البادرة النَّحوية الفريدة بسهل فهو ابتداء المؤسِّس المبتكر، وهو يدل على تفهُّم عميق، ودراية فريدة، وعمل خالد للامة العربية، وللغتها. ومِمَّا يذكر أنَّه قال لأبي الأسود أُنح هذا النَّحو فسمِّي بالنَّحو.

الإمام أول من صنَّف في الأُمة العربية:

كان الإمام أول من صنَّف وألَّف في الإسلام كما ذكر ابن شهر آشوب. فقد صنَّف القرآن حسب تنزيله.

وقد جاء في المناقب للخوارزمي الحنفي بسند متصل عن عليٍّ قال: (لمّا قبض **رسول الله (ص) أقسمت أن لا أضع ردائي على ظهري حتّى أجمع ما بين اللوحين، فما وضعت ردائي على ظهري حتّى جمعت القرآن)**[1].

وصنَّف كتاباً لفاطمة سمِّي: (بمصحف فاطمة) يتضمَّن أمثالاً وحكماً ومواعظ وعبراً وأخباراً ونوادرَ.

وصنَّف كتاباً باسم (الصَّحيفة) في الدِّيات وقد أكثر الإمام أحمد بن حنبل في مسنده الرِّواية عنه.

وقد ذكره البخاري ومسلم ورويا عنه. وقد أورده ابن سعد في آخر كتابه المعروف (بالجامع). ولكن يا للأَسف لم يردنا من هذه المؤلَّفات شيء فقد ضاعت.

في حكمه وسياسته:

وأمّا سنَّته في الحكم والسِّياسة فقد أفردت لها بحثاً مستفيضاً ممّا هو واضح الحجَّة، مستوفى البيان لسياسة الحكم الصَّالح.

---

(١) المناقب للخوارزمي ف ٧ ط ٢ ص ٤٩.

التاريخ الهجري:

ذكر الحاكم في المستدرك وابن الأثير في تاريخه ما ملخَّصه:

إنَّه لما طلب عمر بن الخطاب (رض) إرساء التاريخ الإسلامي على قاعدة إسلاميَّة واختلف القوم أشار عليٌّ (ع) بأنْ يكون يوم هجرة النَّبي (ص) ابتداءً للتاريخ، وسمّي آنذاك بالتاريخ الهجري، وكما هو معمول به حتَّى الآن.

استقطب عليٌّ كلَّ الحركات العلمية والأدبية في الإسلام.

استلهمه الفلاسفة والحكماء، واستوحاه الشُّعراء، واقتدى به الأُدباء، وانبعث بالإفاضة عنه المؤرِّخون، وكتَّاب السِّير.

تشيَّع له الإسلام كلُّه، وقرن كثير منهم إسلامهم بالتشيُّع له، مع ما اتصف به أكثر ملوك العرب بالنَّيل منه، ومن عترته، وممَّن يواليه، وينشر خبره، ويبعث ذكره، والأخذ على كلِّ مشايع له أو مناصر.

الشِّعر العربي والإمام:

لم يسبق لتاريخ الشّعر في أيَّة لغة وفي أيَّة أُمَّة أنْ أُلهمته عترة بفيض من الشُّعراء، وفيضٍ من الشّعر، بأرفع معانيه وأشد عواطفه غير العترة العلويَّة ولا سيّما عليٌّ ربُّ هذا البيت، وسيِّد هذه الأُسرة. فالشِّعر العربي قد فاض بالدواوين الكاملة، وبالقصائد المطوَّلة في هذا البيت، وقلَّ من الشعراء العرب من لم يمدح الإمام، أو لم يرفع مستوى شعره بمدح الإمام، حتّى قيل لأجود الشِّعر في اللغة العربية (**كوفي شيعي**) وإذا أجاد الشاعر قيل(**يترفَّض في شعره**).

فالشعر العربي والإسلامي مدين للإمام بالإلهام والعاطفة، وبنزعة التَّحرر ونبل القصد، ومن أبرز الشُّعراء المتشيِّعين بإسلامهم وبولايتم أبو الأسود الدُّؤلي والفرزدق والكُميت والحميري ودعبل وديك الجن وابو تَّمام والبحتري وابو نواس وأبو فراس الحمداني وابن الرُّومي والمبرّد والمتنبّي والمعرّي ومهيار الدَّيلمي وأضراب هؤلاء كثير ممن مضى غير من لحق.

وأمّا الشُّعراء المسلمون قاطبةً فمدحهم ظاهر إلا قليلاً منهم من لم تلهبه العترة العلويَّة بأفضل الشّعر وأجوده.

وخذ قبساً من إمام من أئمّة المسلمين ورئيس مذهب من مذاهبهم هو الشَّافعي حيث يرتفع ويرتفع بالإمام إلى مقام ما أجلَّه من مقامٍ حتّى يسم مؤلِّهيه بذوي الألباب وقد قرأت له في ينابيع المودَّة للشَّيخ سليمان الحنفي القندوزي في باب (٤٨) ص ١١٥ طبع بومبي. يقول الإمام الشَّافعي (رض) - اقتطف من قصيدته

هذين البيتين للإستدلال:

قيل لي قل في عليٍّ مدحاً　　حبُّه يطفىء ناراً مؤصدة
قلت لا أُقدم في مدح امرىءٍ　　ضلَّ ذو اللب إلى أن عبده

ومن قصيدة في ديوان عبد الباقي العمري الموصلي سليل عمر بن الخطاب ووليد الموصل (ط ٢ ص ١٠٣) وقد أنشدها في الرَّوضة الحيدريَّة واصفاً قبة الإمام عليٍّ:

جللت مرقداً جليلاً تجلَّت　　فوقه هيبة المليك الجليل
فعلى قبَّة السَّماء إذا ما　　فضَّلوها أقول بالتَّفضيل
هي باءٌ مقلوبةٌ فوق تلك　　النُّقطة المستحيلة التَّأويل
كرة مستديرة فوق قطب　　دبَّر الكائنات بالتَّعديل

الفلاسفة والمتكلّمون:

أمّا الفلاسفة والمتكلّمون في الإسلام فكلٌّ أخذ منه وكثير اتخذ التّشيع نحلته كهشام بن الحكم وجابر بن حيّان (أبو الكيمياء في الإسلام، وأول واضع لعلم الجبر، وما زالت هذه التّسمية في كلّ اللغات سارية).

والفلاسفة النّوبختيون (الفضل وإسماعيل وموسى وعليّ) والرّازي والفارابي وإخوان الصّفا وغيرهم كثير. وقد ذكره الشّيخ الرّئيس ابن سينا (الطّبيب والفيلسوف المشهور). فقال: (كان عليٌّ من العلوم في المحلّ الّذي لا يحلّق إليه البشر).

وقال المناوي في فيض القدير: (قد شهد لعليٍّ كرّم الله وجهه بالأعلميّة الموافق والمخالف، والمعادي والمحالف).

حقا إنَّ الإمام قد جمع ما لم يجتمع لغيره فلم يك قطُّ أنْ يجتمع الأضداد من محبٍّ غالٍ، ومبغض قالٍ، على مدح امرىءٍ مهما أُوتي من المقدرة، وفصل الخطاب، وسعة العلم إلا في مدح عليٍّ.

عليٌّ ونهج البلاغة في ما ذهب إليه بعض المرجفين:

التُّراث الفكري زاخر بالمواهب، عبق بالإنتاج، واسع بالمدركات، متمثِّلٌ بالعبقريَّات، ماثل بالنَّقل والرِّواية.

لكلِّ تراثٍ منتج يتميَّز ذلك التّراث به ولا سيَّما في مجال الأدب والسِّياسة فلا يصح السَّند إذا لم يستوف الأثر دلائله، وبراهينه الكامنة فيه، والمنطلقة منه.

وإنّ لكلِّ أديب نفحته الأدبيَّة الَّتي تعبق بمعتقداته، وآرائه، ومثله، وسياسته، ووجهة تفكيره.

ثم إنَّ للزَّمن أثره، وللمحيط فعله، في كلِّ نتاج أدبي، فالأدب آخذ من بيئته لا محالة.

ولو أردنا الإستقصاء في نهج البلاغة، وإطالة النَّظر فيه، لرأيناه قد استوفى حججه، واستكمل براهينه الكائنة فيه، لأنَّه يحمل الرُّوح العلوية في كلِّ سطر منه، وبكلِّ تعبير فيه، ويعطي الدَّلالة السِّياسية والإقتصادية والعقيدية والأدبية للإمام، ويمثِّل روح عصره بما تمخَّض عن أحداثٍ جسام.

ولم يكن الشَّريف الرَّضي ممَّن عركتهم الأحوال غير المواتية، وادلهمَّت بهم الأوضاع، لأنَّه كان والحكم في وئام ومع الأحداث في سلامة. ولم يكن الشّريف قد ارتفعت به الأُمَّة الإسلامية حتَّى كان قطب رحاها، ومنطلق وجودها وعلاها، ومعين إسلامها ومعتقدها، وإنْ كان على جانب كبير من المعرفة، والمنزلة الإجتماعية.

لم تلجئه الظُّروف للمقارعة باللسان والقلم، ولم يولِّه وقته الخلافة أو القيادة، وإنَّ نفحة الظُّروف على غير ما هو فيه، فهي نفحة الثَّائر في أشدّأحوال الثَّورة

ومن درس سيرة الرَّضي، وأدرك حقيقته، عرفه أنَّه على جانب كبير من الصَّلاح والتَّقوى، مما هو بعيد عن الكذب والإنتحال والتَّقوُّل.

ذهب بعض المؤرِّخين إلى أن قسماً من النَّهج قد سطره براع الرَّضي. وذهب بعضٌ إلى أنَّه من وضع الرَّضي وكانت لهم حججهم الَّتي سأوردها جميعاً، وسأذهب إلى تفنيدها.

ومن أهمِّ الحجج الَّتي تذرَّع بها هؤلاء ما ورد في النَّهج من تقريع وتأنيب لبعض من واكب الإسلام في إبّان ظهوره كمعاوية وطلحة والزُّبير وأضرابهم. وورد فيه بعض العتاب لبعض كبار الصَّحابة مع علم هؤلاء المؤرِّخين بأنّ ما يورده الإمام فهو حجة قاطعة وإدانة واردة وإلا فلا مبرر لحديثهم.

ولست أُطيل الرَّد على هذه الفقرة فإنَّ ما ورد هو صدىً لتلك الحروب الطَّاحنة لوقعة الجمل وصفِّين والنَّهروان وهذا لا غبار عليه وإنَّ ما أورده الإمام لقليل إذا قيس بالدِّماء الَّتي أُريقت، والنُّفوس الَّتي انتهكت، والثَّائر على خليفة زمانه كافر، فإذا أردنا أن نبعد قول الإمام فيهم فليس باستطاعة أحد أن يبعد التَّاريخ الحافل بتلك الأَحداث.

ولم يتعرَّض للخلفاء الرَّاشدين إلا تلميحاً وعتاباً وهو الصَّدى القائم ليوم السَّقيفة، وكان ذلك في خطبته الشَّقشقيَّة.

ولو أردنا الإسترسال في ما يحمله الإمام من اعتقاد جازم في حقِّه بالخلافة، وسبقه إليها، لأدركنا أنَّه لم يرد في النَّهج ما يُسيء، ولم يقل الإمام مقالة عثمان في عمر (رض) كما أورده الدّكتور طه حسين في كتابه عثمان (لقد وطأكم ابن الخطاب برجله،وضربكم بيده، وقمعكم بلسانه، فخفتموه ورضيتم منه بما لا ترضونه منِّي، لأنِّي كففت عنكم يدي ولساني).

ولم يرد في الخطبة الشَّقشقيَّة إلا ما أثبته التاريخ.

وأمّا تعرُّضه لعثمان فهو تعرُّض النَّاصح المؤمن باداء رسالته على أكمل وجه،

وقد وافانا التاريخ بما وصل إليه الحال في عهده، وللإمام كامل الحق أن يدافع عن حظيرة الإسلام ومبادئه.

(كلُّكم راعٍ وكُلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته).

ونحن لا نعدم الخلاف ولا نذكره إلا لنبسط التاريخ واضحاً صحيحاً ليكون لنا عبرةً لجمع الشَّمل، وإبعاد الخلاف، وعلينا أن نعتزَّ بمن هو أفضل، وكلُّهم عرب مسلمون منّا إلينا فعلينا أن لا نعدم الحق والوجدان. وإنَّ كلَّ ما أورده النَّهج بحقٍ لدليل على النَّفحة العلويَّة وعلى ملامسة للأحداث.

وقد ذكر بعض الناقدين أنَّ في النَّهج من التَّنميق الأَدبي في السَّجع، وتزويق اللفظ ممَّا لم يعهده العصر الإسلامي الأول. وفيه من دقة الوصف والإحاطة بالقصد كوصفه للطَّاووس والنَّملة والجرادة ممَّا يخرج عن دائرة ذلك العهد، وأدب ذلك الزَّمن. وفيه من الحكمة والمنطق بأساليب بيانيَّة لم تُعرف قبل عهد التَّرجمة، وقبل نقل تراث اليونان والرُّمان والفرس والهنود.

أمَّا موضوع التَّنميق الأدبي والسَّجع فلم يكن وارداً في نهج البلاغة إلا عرضاً، وحسبما تقتضيه الاصول البلاغيَّة، وأقلَّ ممَّا ورد في القرآن. كما ورد في سورة الرَّحمان وسور أُخرى كثيرة.

وأمَّا ما فيه من دقَّة في الوصف والإحاطة في القصد فإنّي أذكر قول معاوية لمحفن عندما قال له: (أتيتك من أعيا النَّاس)، أجابه معاوية: (ويلك فإنّه ما سنَّ الفصاحة لقريشٍ غيره). وبالطَّبع إنَّ لربِّ الفصاحة والبلاغة أُسلوبه الخاص، وسموّه المتنع، وإعجازه الفريد، واستقلاله بوضع أُسس بلاغيَّة أدبيَّة لم يعهدها عصره، وهذه من أوليات ما يلزم أن يؤمن بها الباحث وإلا فعلامَ أجمع المؤرِّخون قاطبةً على سموِّه الأدبي البلاغي الفريد ممَّا لم يعهد لسواه. وقد ذهب كثيرٌ من المؤرِّخين وكتَّاب السِّير إلى ذكر كلام الإمام فوضعوه كأرفع كلام عربي بعد القرآن والحديث وقد ورد ذلك قبل أن يخلق الشَّريف الرَّضي.

وإنِّي أقول: كما أنَّ للقرآن مميِّزاته وحدوده الَّتي لا يمكن أنْ يصل إليها كلام. فللنَّهج كذلك مميِّزاته وحدوده الَّتي اختص بها فلا يمكن أنْ يصل إلى شأوها كلام.

ولم يكن للإمام إلا ما أورده الشَّريف الرَّضي في النَّهج فحسب وإنَّما ورد كثير

مما لم يرد في النَّهج، ولا يقل روعةً وأسلوباً عنه. وإنَّ معظم ما ورد في النَّهج لهو معروف قبل الشَّريف الرَّضي حسبما وصل إليه المحقِّقون[1].

وقد ذكر المسعودي في مروج الذَّهب، وهو قبل الشَّريف الرَّضي: (أنَّ النَّاس حفظوا عن الإمام عليٍّ أربع مئة ونيفاً وثمانين خطبة يوردها على البديهة).

ولم يتناقلها النَّاس ويولوها حفظهم إلا لسموِّها، ورفيع أدبها. وليس للمؤرِّخ أنْ يسجل إلا ما وصل إليه، وقد يتعدَّاه الكثير. وإنَّ زمن المسعودي ليس ببعيد عن زمن الإمام، وذلك مما يجعل الثِّقة واردة في روايته.

وإنَّ أبرز ما في النَّهج مما سوَّلت نفوس بعض الحاقدين عدم نسبته إليه هو عهده المشهور لمالك الأشتَر عندما ولاه مصر، والَّذي تسيخ العقول أنْ تأتي بمثله حيث وضع به معالم الحكم على ممرِّ العهود، ممَّا لا ترتضيه الحكومات المتعاقبة ذات النَّزعة الفرديَّة ولا سيَّما بني أُميَّة وبني العبَّاس، وهذا العهد قد رواه بعض الثِّقات قبل الشَّريف الرَّضي ومنهم صاحب كتاب (تحف العقول) المتوفَّى سنة ٣٣٢.

ولو فرضنا أنَّنا لم نصل إلى هذا العهد إلا عن رواية الشَّريف الرَّضي فهل يصح لنا نسبته إليه. وهو الَّذي لم تتجسَّم أمامه تلك الأَحداث والإنقلابات الرَّائعة في صدر الإسلام، ولم يهضم الحكم ويمسَّه، ويندفع إلى قراره، ويدركه كإدراك الإمام.

وهل أُثر عن الشَّريف الرَّضي ما يماشي ذلك أو يقاربه.

وما هو المبرِّر إلى هذه النِّسبة وقد نقل لنا المؤرِّخون قاطبةً أنَّ الرَّضي لا يداني الإمام ولا يقاربه بانطلاقه الفكري والبلاغي.

وهل يصح نسبة الخبر لناقله مع إقراره على نقله، وإفصاحه بجمعه، مع العلم أنَّ تلك النَّزعة الشَّعبية، والنَّظرة إلى الحرِّية في الحكم لم تكن باقية إلى عهد الشَّريف الرَّضي، والَّتي طمستها عهود أُميَّة وبني العبَّاس، حتَّى أصبحت الخلافة ملكاً مطلقاً استبدادياً فردياً وأنَّ تلك النَّفحة التَّحررية العلوية قد رسمتها طبيعة الصَّحراء وحياةُ العرب، وقوّمتها ووضعت لها السنن والقوانين الثّورة الإسلاميّة،

---

(١) مستدرك نهج البلاغة للشيخ هادي كاشف الغطاء.

وتبنّاها الإمام عليّ لما له من العروبة والإسلام ولكنّها تلاشت على ممرّ عصور الحكم الفردي، وممارسة الضّغط والإرهاب، وأخذ الناس بالبطش حتّى أصبح الفرد العربي والفرد المسلم دميةً لا حول له ولا قوّة إلا ما يفرضه الخليفة وعائلته وبطانته. ولذلك فإنَّ أُسلوب النَّهج برسائله وخطبه ووصاياه الثَّورية لا يتأتّى للرَّضي وهو في وضعه المعروف.

ولا يخفى أنَّ ما يمكن الرَّضي الحفاظ عليه من تراث الإمام لا يتأتّى لسواه لأنَّه سليل العترة العلويَّة، وأبرز وارث لها ولمأثورها وبالأخص بما برزت به العهود السابقة له، من طمسٍ لمعالم الإمام، والأَخذ بأقصى العقوبة على من يذكر فضائله، أو يروي خبره، أو يُعرف بولائه له، وهذا ممّا يدع ما يصل إليه لا يصل إلى غيره، بل قد يمتنع وصوله إلى غيره.

ونحن ندرك أنَّ ما لا يريده الحكم يصعب على المجتمع الوصول إليه، والإحاطة به.

وأمَّا ما قيل عن انطباع بعض حكم الإمام وآرائه بما أُثر عن الإغريق والفرس فقد لا يتعدَّى التَّوارد في الآراء، وليست الآراء بوقفٍ على أُمَّة.

وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ عهد التَّرجمة الفكرية وصل العرب منذ العهد الإسلامي بالفتح والإختلاط، وقد تكون له جذوره من العهد الجاهلي لاتصال العرب بفارس والشَّام. والدَّليل على ذلك ما ورد في القرآن من الكلمات الدَّخيلة كالصِّراط وقيل إنَّها روميَّة أو لاتينية والقسطاس والفردوس وإبليس والجن والبرج والرَّبانيون وما إلى ذلك. وبالطَّبع إنَّ أخذ هذه الكلمات وتعريبها له مضمونه الفكري، ومعناه اللغوي. وأما التَّرجمة المنسَّقة المسجلة المبنيَّة على تحديد النَّقل فقد وصلت متأخرة عن العهد الإسلامي الأول، ونشطت على عهد المأمون.

وبما امتاز الإمام به من حدَّة في الذَّكاء، ومن نظر ثاقب بعيد المدى، ومن قوَّة في الإدراك والتَّعبير فقد استوعبت من مخالطته الفرس والرُّوم وسواهم لتواردهم على دار الخلافة والإسلام وهذا وارد لكلِّ إنسان حسب مقدرته.

ثم إنَّ الإمام عاصر فتح الشَّام وفارس، وبقي بعد ذلك بزمن طويل ممّا تصحُّ

التّرجمة الفكريّة الشّفهية بإسلام كثير من الأجانب ممن أدرك الثّقافة الإغريقيّة الرُّومانية والفارسيَّة والهنديَّة. وكثير منهم طبعها بلغته الجديدة لغة القرآن والسنَّة وهي العربيَّة.

ولنضرب على ذلك مثلاً واحداً: ذكر ابن شهر آشوب أنَّ أوَّل من صنَّف في الإسلام عليٌّ بن أبي طالب ثم سلمان الفارسيُّ الّذي أشار بحفر الخندق. فيستدل أنَّ سلمانَ كان على مستوىً كبير من العقل والإدراك، وكان من حواري الإمام ممّا تصح ترجمته الفكريَّة ودليلٌ على ذلك إشارته بحفر الخندق، وهي خطَّة عسكريَّة فارسيَّة لم يعهدها العرب، فهو وأضرابه قد حمل للأُمَّة العربيَّة كثيراً من معالم بلده وأوطانه ومجتمعه الأوّل.

ثم إنَّ حكميات الإمام وآراءه لم تكن منوطة بالنَّهج وماثلة بين دفتيه فحسب، بل إنَّ ما جمعه الأوائل والأواخر كثير وأكثره مِمَّا لم يذكره الشَّريف الرَّضي[١].

فقد جمع الشّيخ عبد الواحد التميمي كتاباً من حكم الإمام القصيرة يقارب نهج البلاغة سمَّاه (غرر الحكم ودرر الكلم).

وقد افتخر الجاحظ. وهو من أكبر العلماء العرب، ومن العهد الإسلامي الأول بأنَّه جمع مئة كلمة لأمير المؤمنين[٢].

وقد جمع القاضي القضاعي من كلام الإمام كتاباً أسماه (دستور معالم الحكم).

وجمع الطَّبرسي صاحب تفسير مجمع البيان كتاباً من حكم الإمام سمَّاه (نثر اللآلىء) وقد ذكر المفيد وهو أُستاذ الشَّريف الرَّضي في كتابه (الإرشاد) كثيراً من كلام وخطب الإمام.

وجمع نصر بن مزاحم خطب الإمام في صفِّين وكتبه إلى معاوية في كتاب (صفِّين).

---

(١) من أراد استيعاب الموضوع فاليراجع (مصادر نهج البلاغة وأسانيده) تأليف عبد الزَّهراء الحسيني الخطيب.

(٢) ذكرها الخوارزمي الحنفي في المناقب ف ٢٤ ط ٢ ص ٢٧١ - ٢٧٣.

وجمع إسحاق الأنصاري كتاباً من كلام الإمام سمّاه (**مطلوب كلّ طالب**).

وجمع القاضي الإمام أبو يوسف كتاباً من كلام الإمام سمّاه (**قلائد الحكم وفرائد الكَلِم**).

وأمَّا أبو الفضل بن مزاحم الكوفيُّ المتوفَّى ٢٠٢ هـ وهو قبل الرَّضي بأمدٍ بعيد فقد جمع من خطب الإمام كتاباً سمَّاه (خطب عليٍّ). في النَّهج بعض منه.

وألحق ابن أبي الحديد في تفسيره للنَّهج ألف كلمة على مستوى النَّهج بلاغة وفصاحة وحكمة مما لم تكن فيه.

وهكذا لو أردنا الإسترسال لطال بنا البحث مَّا نحن لسنا بصدده وإنَّما هي عجالة نريد بها إحقاق الحقِّ وإزهاق الباطل.

ولست مِّمن يؤمن بتحريف التَّاريخ تبع الهوى، ولست مِّمن يؤمن بالإسترسال بزيفه فإنَّ الواقع لا بد أن يظهر من خلال البحث والتَّدقيق.

وإنَّ أول واضع للشك هو قاضي القضاة شمس الدِّين الإربلي صاحب (وفيات الأعيان) المولود في إربل سنة ٦٠٨ والمتوفَّى بدمشق سنة ٦٨١ من الهجرة وإنَّ من تبعه لفَّ لفَّه وأخذ منه وهم عدد يسير.

وهو أول من جمع واعتنى بشعر يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأُموي، ولا يخلو ذلك من نزعة أُمويَّة.

ولم يسند شكه برواية أو رأيٍ ولكنَّه أورده مزعزعاً مضطرباً على هذه الصُّورة وذلك في ترجمة الشَّريف المرتضى:

(وقد اختلف النَّاس في كتاب «نهج البلاغة» المجموع من كلام الإمام عليٍّ بن أبي طالب (ع) هل جمعه؟ أم جمع أخيه الرَّضي، وقد قيل: إنَّه ليس من كلام عليٍّ، وإنَّما الَّذي جمعه، ونسبه إليه هو الَّذي وضعه).

هذا كلام ظاهر زيفه حيث أنَّ المؤرخين قاطبةً لم يسند أحد منهم «النّهج» إلى المرتضى وقد ذكره الرَّضي في كلِّ مؤلَّفاته. فيا للعجب لمؤرِّخ لا يدرك ذلك ولو قال مقاله في ترجمة الرَّضي لهان الأمر.

وكلّ ما أورده المرجفون لا يتعدَّى الحجج الواردة الذِّكر والّتي لم تثبت أمام

الإجماع، والتواتر، وسند النقل، والبراهين المادية الثّابتة.

لا أخالني بعيداً عن الصّواب إذا قلت أنّ الّذي حدا بذلك القاضي على الشك هو أنّ كلام الإمام كان يتناقله الناس متفرّقاً ومجزّءاً ممّا لم يستوعب أثره ولما جمع الرّضي كثيراً منه ضمن سفر جليل عظيم الأثر التمسه النّاس وشاع فأصبح النّقد وارد.

لربّما يكون وضع الشّك وارداً لإقرار الشّك في نسبة النّهج للإمام، إذ ما يرد عن الإمام يلتزم به الإسلام وإنّ النّهج يحدّد مفهوم السُّلطة تحديداً دقيقاً، ويشيع الحقوق العامّة، ويبعث الحرّية والعدالة الإجتماعيّة ممّا لا يرتضيه الخلفاء والولاة ولا يستسيغه قضاتهم فإذا بطلت نسبته للإمام أو بعض منه ممّا رآه ذلك القاضي فقد ابتعدت مفاهيمه عن الجماهير.

عليّ ومفهوم التطوّر

لكلِّ مصلح سنته في التَّطور، ولكلِّ عبقريٍّ رأيه في التَّحول، والعالم منذ بدئه دائب التَّحول، دائب التَّطور قبل أن يخلق إنسان، وقبل أن يسير نجم في فلك.

هذا الإنسان الكائن الضَّعيف المتكوِّن من خلاياً متناهية في الصِّغر، متناهية في الضَّعف، دائبة الفناء دائبة التَّكوين. هذا الإنسان على ضعفه، وقصير أمده يخرج لهذا العالم بطاقات عقليَّة جبَّارة، وإمكانيَّات عظيمة مذهلة تأخذ به إلى ما هو أفضل، وتسير به إلى ما هو أحسن.

ظهرت تلك الطَّاقات بصورة اندفاعات جماعية أو فردية في أزمان متفاوتة على هيئة عوالم من المعرفة كان أحد أولئك العوالم عالم النَّبي محمد بالإسلام.

وكان أحد اولئك العوالم عالم الإمام عليٍّ بمعالم الإسلام.

لم يأت محمد ليثبِّت أُمَّة على ما هي عليه، ولا ليرعى خلالاً تماسكت من قبله، ولا ليشيِّد عقيدةً على خطأ شاع في مجتمعه، وإنَّما أتى ليبدِّل ويؤسِّس، ليهدم ويبني، ليحوِّل ويطوِّر.

والتَّطور عرفاً هو التَّحول من حالٍ إلى حالٍ أفضل.

فلو لم يؤمن الرَّسول إيماناً كاملاً بتطوير المجتمعات الإنسانية لبطلت رسالته على صعيد مجتمعه، وعلى صعيد باقي المجتمعات.

فكلُّ الثَّورات الإجتماعية البنَّاءة - ومنها ثورة الإسلام - استطاعت أن تربط حلقات الماضي بالحاضر وبالمستقبل برباط من التَّطور والتَّقدم. وهذا

المفهوم التّطوري الكامن في الشّريعة الإسلامية من أهم الأَسباب لبقائها ماثلةً قويَّةً إلى عصرنا هذا وما زالت فيها طاقاتٌ كامنة قويَّة لم يفجرها أحد. وإنَّ أمثل ما تمتاز به الشَّريعة الإسلاميَّة في تطورها هو انطلاق مفهوم الإجتهاد فيها.

والتَّطور بعرف الرِّسالة الإسلاميَّة إنَّما هو تطور أخلاقي اجتماعي اقتصادي، تطور معنوي ومادي، مثالي وواقعي.

فالإنسان المسلم المحمدي هو غير الإنسان الجاهلي بكثير من عاداته وأخلاقه ونظام حياته. وكأنَّك تراه من بيئة لا تمت إلى بيئةِ الجاهليَّة.

كلٌّ ذلك قد جرى على عامَّة المسلمين، فكيف بإنسانٍ نشأ في انطلاقة الطَّفرة المحمدية التَّطورية، وكان الأَول في مجالها الفكري والعملي بما يمتاز به من عبقرية مبكرة، وذكاء خارق، وقبول منطقي للحياة.

اعتمد عليه الرَّسول طفلاً ولم يبلغ الحلم، ولم يعتمد على غيره، وما أكثر الأَطفال، وما أعزَّ الرَّسول أن يولي وجهته شطر الأَطفال، وهو العظيم الملهم، والرَّسول المرسل ولكنَّ هذا الطِّفل العبقري هو بحق المتمِّم الأوحد للنبوَّة والمكمِّل الأفضل للرِّسالة، ذي المواهب العقلية والجسمية الخارقة.

رأى عليٌّ الإسلام وهو طفل فاستهوته معالمه، واستحوذت عليه مفاهيمه، فأتى المعرفة الإسلاميَّة يلتهمها من فم الرَّسول التهاماً ويعبّها عبّاً. ولمّا استوعبها أخذت عليه مجامع قلبه، ونبرات لسانه، ومرامي مدركاته، ومعالم عقله، وهواجسه، فدافع عنها دفاع المستميت، واستبسل دونها استبسال الأَبطال، فكانت هذه أوَّليات استعداده الثَّقافي والفطري للعمل على تطوير مجتمعه، وتشذيب مفاهيم مواطنيه.

كان عليٌّ في كلِّ مفهوم من مفاهيمه، وفي كلِّ معارفه وحكمه، وفي كلِّ عمل من أعماله، ومنطق من أفكاره، تقدميّاً واقعيّاً يؤمن بالإنسان على صعيد الإنسانيَّة العام، حيث لا حدود جغرافية، ولا موانع قوميَّة، ولا نزعة ضيِّقة عقيدية، فهو يؤمن بالإنسان ويحيطه بكلِّ ما يسعده.

يبسط الخير والسَّعادة للمجموعة البشريَّة عامَّة، ويقف دون أيِّ مستغلٍ أو متهاون بالحقوق العامَّة، فيصبّ عليه جام غضبه واعظاً ومعاتباً ومؤنّباً ومنذراً

ومقاصاً. ولم تأخذه في الحقّ لومة لائم، أو عتب عاتبٍ وها أنا أُقدّم حكمة من حكمه للإستدلال على ما ذهب **(ولا تكوننَّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنَّهم صنفان إما أخ لك في الدِّين، أو نظير لك في الخلق)**.

ومن أبرز ما يتَّسم به الإمام أنَّه يؤمن بالانطباع بتراث السَّلف، ومسايرة الأبناء للآباء في عرفهم وعاداتهم، بل رأى التَّطور لا يسير إلا بتباين المعرفة، وبتغيير العادات، فعلى المرء أنْ يسلك سلوكاً يواكب الزَّمن الَّذي يعيش فيه. وفي ذلك ما أوصى:

(علِّموا أولادكم على غير عاداتكم فإنَّهم خلقوا لزمانٍ غير زمانكم).

ولم يقل علِّموا أولادكم على عاداتكم بل على غير عاداتكم، وهذا ما نراه ونلمسه في محيطنا حيث الزَّمن مضى بآبائنا وبعاداتهم وتقاليدهم، وها نحن نعيش في محيطٍ له عاداته وتقاليده، وسيعيش أبناؤنا على غير عاداتنا

فإذا لم يكن للطِّفل الإستعداد على تقبُّل التَّطور حطَّمته التقاليد الوافدة، وتأخَّر به الوضع الَّذي سيحل فيه بانصرام عمره إذا لم يفهمه، ولم يتخَّذ له عدَّته.

ولكنَّ الإمام يطلب إعداد الأَبناء لزمانهم حتَّى يكون التَّكافؤ إذ البيئة بالإنسان والإنسان بتطوره ومن يتخلَّف يسبقه الرَّكب الإنساني العظيم.

طوَّر المفهوم الإجتماعي الإقتصادي وتبنَّاه متكافئاً متكاملاً حيث سعى لصهر الطَّبقية في بوتقة الإسلام فكان الصَّاعقة المحرقة على الإستغلال ومريديه، وله هذه الكلمة النابعة من حقيقة الواقع، الماثلة بأبرز نواحي التَّطور.

(ما رأيتُ نعمةً موفورةً إلا وإلى جانبها حقّ مضيَّع).

طوَّر مفهوم الإيمان فانتشله من أديرة الرُّهبان، ومن صوامع المتصوِّفة، ومن تيه الخيال، ومفاوز المثاليين إلى عالم الخلود، إلى عالم الإنسان، إلى واقع الحياة، إلى الإنسان من حيث هو إنسان، لا هو بالملك السَّائر في رحاب السَّماء، ولا هو بالشَّيطان التَّائه في مسالك الجحيم. وقد أفردت بحثاً لمفهوم الإيمان عند الإمام.

طلب التَّعليم وألزم به إذ حثَّ على طلبه بصيغة الأَمر، وبعث مفهوم السِّيادة بالعلم حسبما تأخذ به الدُّول الحاضرة المتقدِّمة في مدنيَّتها **(تعلَّموا صغاراً تسودوا**

كباراً)[1].

وعن السّيوطي في تدريب الرّاوي أنّه كان بين السّلف من الصّحابة والتابعين اختلاف كثير في كتابة العلم، فكرهها كثيرٌ منهم، وأباحها طائفة، وفعلوها ومنهم عليٌّ وابنه الحسن.

هكذا يشجع العلم ويعمل على نشره وهو العامل الأهم في إبراز التّطور والأخذ به.

كان الإغريق يتجاهلون واقع الحياة وحقائقها، ويعتبرون من روّاد التّطور في مفاهيم الحياة. ومن درس (جمهورية أفلاطون) أدرك مدى الفرق بين أفلاطون في نظرته للحياة، وبين واقع الحياة عند الإمام عليٍّ.

ولو نظرنا إلى نزعته السّياسية والعلمية والأدبية لرأيناه قد تمثّل بأسمى مراحل التّطور، وارتفع إلى أرفع مراقي الدّيمقراطية.

وذهب في تأمّله وتفكيره إلى شأوٍ بعيد. ولنأخذ على ذلك مثلاً.

يُعدُّ فرويد من أعظم علماء العصر الحاضر، وهو من كبار علماء النّفس وإليه بعزى معالم ارساء هذا العلم.

قال فرويد: إنَّ كلَّ فرد منّا يتألّف من ثلاث ذوات[2].

١ - الذّات الحيوانية الّتي بها نجوع ونشتهي ونغضب.

٢ - الذّات الإجتماعية الّتي نراعي فيها العادات الإجتماعية.

٣ - الذّات العليا الّتي يحتويها ضميرنا والّتي نرتفع بها أحياناً عن المألوف.

هكذا ذهب فرويد أنْ جعل للذّات الحيوانية موقعها الّتي يجتمع بها الإنسان وكلُّ الدّواب.

ولما سأل كميل الإمام عن النّفس (الرُّوح) قال: أيّ النفس؟

أجاب كميل هل غير واحدة؟.

---

(١) ضمن ألف كلمة ألحقها ابن أبي الحديد في النّهج.

(٢) كتاب نظرية التّطور لسلامة موسى.

قال الإمام: - بل أربع أنفس (١) النَّامية النَّباتية، (٢) الحيوانية، (٣) النَّاطقة القدسية، (٤) الكلِّية الإلٰهية.

لم يذهب الإمام لإبراز النَّفس الحيوانية فحسب بل وضع للنّامية النَّباتية موقعها حيث ذهب في مراحل التَّطور إلى أبعد من رأي فرويد إذ جعل للإنسان جذوره النَّباتية الماثلة به والملازمة له، من حيث نموِّه النَّباتي الذي يجمعه وكلَّ الإحياء.

طوّر مفهوم الحكم وأرساه على قاعدةٍ أزليَّة ثابتة حيث الحكم للشَّعب بأكثريته، وحيث العدالة الإجتماعية، وقد ذكرت مفهوم الحكم عند الإمام في بحث مفرد ضمن هذا الكتاب ممّا لا يدع مجالاً للشكِّ في مدى تطوُّره، ومدى مواكبته لمختلف العصور.

طوَّر اللغة العربية، فأفاض عليها من الفصاحة والبلاغة، ومن التَّعابير الشَّائقة، والإصطلاحات الفريدة، والإستعارات الجميلة ما لم يؤت لأحد في الامة العربيَّة.

وضع الأُسس الأُولى لضبط اللغة، وبقائها فينا بوضع مبادىء النَّحو.

طوَّر المفهوم الأَخلاقي للحرب، حيث لم يبدأ بحرب، ولم يطلب نزالاً، يبتدىء بالموعظة الحسنة، ثم الحجة القاطعة، ثم الإدانة، كلُّ ذلك لا خوفاً ولا رهبة، لأنَّه ما نازل أحداً إلا وصرعه، وما دخل معركة إلا وكان فيها منتصراً.

لم يجهز على جريح، ولم يتَّبع هارباً، ولم ينل من أعزل.

طور النَّهج العلمي في الإستدلال، وبناء الحجة، والإستقرار في الإثبات وإنَّ كلَّ خطبه وأحاديثه دالَّة على ذلك.

أوَّل من فرَّق بين الشُّهود، وأثبت المحاضر بالتّسجيل، وأوَّل من وضع صناديق الشكوى.

كان الإمام المجدِّد الأَمثل لمفاهيم المجتمع العربي، والمطوِّر الأفضل للمجتمع الإسلامي، والمفسِّر الأَعظم لبواطن الشَّريعة ووضعها مواضعها ممَّا يلائم الظروف على صعيد التَّطور، ومسايرة الزَّمن على مدى التَّقدم. فهو بحقٍّ قد أعطى الشَّريعة

نفحة علويَّة لها شذاها الخاص.

كان عليٌّ في تكوينه العقلي والجسمي طفرة من طفرات التَّطور، وعالماً مستقلاً من عوالمه.

شجاعة الإمام

منبع الشَّجاعة النَّفس، وموطنها الجسم، ومظهرها الإقدام، وبوادرها الجرأة، تلتمس الإنسان عند الحاجة دون أن يلتمسها، وتختلج في نفسه دون أن يبعثها بإشاءة أو إرادة. هي هبة من الهبات، وصفه طيِّبة من صفات الذَّات الإنسانية كالصَّبر والحلم والكرم وما إلى ذلك.

والشَّجاعة غير القوَّة وقد لا يجتمعان لفرد. فكم مالكٍ للقوَّة ما يؤهله للقيام بأعمالٍ جسميّة كثيرة وليس له من الشَّجاعة ما يجعله يرتاد أقلَّ مفاوز الحياة، فهو في خوفه قابع، وفي وجله خانع.

فالشَّجاعة صفة مثاليَّة معنويَّة، والقوَّة صفة جسميَّة عضليَّة.

لم تكن الشَّجاعة تستهدف الإقدام في الحرب، وقوَّة الإرادة عند البراز فحسب، بل للشَّجاعة سبلها المتعدِّدة.

فالمروءة: هي الشَّجاعة في العطف، والإقدام لدحر الظُّلم والقَسوة.

والصَّبر: الشَّجاعة على الجزع، وإدراك الأمل، والثُّبوت أمام نوازل الدَّهر.

والإرادة: هي الشَّجاعة على التَّخاذل، وعلى الهروب من الواقع، وإقرار العقل والمضي بالعمل.

والمؤمن: شجاع لتمكُّنه من كبح جماح نفسه، وإقدامه في الأَخذ بعقيدته، ومقارعته للأحوال غير المواتية لمبدئه، والمضي قدماً لنشر دعوته.

والخطيب شجاع لبروزه بحدِّ اللسان، ومقارعته بحدِّ البيان، وتمكُّنه من أفئدة سامعيه، وعدم خشيته من هيبة مجالسيه، وطالما سمعنا بالمصطلح المعروف **(الشَّجاعة الأدبيَّة)**. ويقال: (عنده الشَّجاعة الأدبيّة).

أخذ الإمام بكلِّ أسباب الشَّجاعة وبكلِّ طرقها ومفاوزها ومعارجها، فكان أفضل مثل لمختلف صفاتها وضروبها.

شجاعته في الحرب:

طغت شجاعة الإمام في الحرب حتَّى أضحت مضرب المثل. إذا انحدر إلى الحرب كان كالسَّيل الجارف ولكنَّه يدرك موضع قدمه ويحسب لكلِّ كبيرة وصغيرة حساباً. فلم يؤخذ قطُّ على غفلة، ولم يدبر قطّ مهما كانت جموع مقاتليه وشدَّة بأس مهاجميه.

في طفولته:

كان أبو طالب يدرك ما لمحمد من منزلة، وما سيكون له من أثر - والمرء يحكي نفسه منذ طفولته - فكان يشدّد بالحفاظ عليه فإذا ابتدأ النُّعاس يراود عيني محمد يأخذه ويضعه في فراش عليٍّ ويضع علياً مكانه، مع العلم كان لأبي طالب اربعة من الأولاد اصغرهم عليّ، ولما سئل عن سبب إيثار عليٍّ بهذا الفداء وهذه التضحية.

أجاب: إنَّ لعليٍّ من الشّجاعة ما ليس لسواه.

كان النَّبي في مأمن لحماية عمِّه أبي طالب لمكانته من قريش، ولصدق دفاعه عنه، فالتمست قريش أطفالاً وأودعتهم لإيذاء النَّبي، لدفع المسؤولية إذا ما قام بذلك الكبار، والطِّفل يؤخذ ببراءته. فأدرك النَّبي ذلك، فأسرَّ إلى عليٍّ الطِّفل بما هم مزمعون عليه، واصطحبه معه، فكان لا يجرأ طفلٌ على النَّيل من الرَّسول، وإذا تجرَّأ طفل فكان عليٌّ يلقنه درساً لا ينساه، وبذلك امتنعت الأطفال عن الأذى.

في شبابه:

ائتمرت قريش بالنَّبي مزمعة على قتله فغرَّر عليٌّ بهم حيث بات على فراش النَّبي، والتحف بملحفه، ولمّا أراد المشركون الشُّروع بجريمتهم بان لهم عليٌّ فباؤوا بالخيبة، وهذا فداء يحتاج إلى شجاعة كبيرة، لأنَّه يدرك حقَّ الإدراك أنَّ التَّغرير بهم عمل على جانبٍ كبيرٍ من الخطورة لأنَّ ذلك يشدُّ من عزمهم على قتله.

خرج عليٌّ بالفواطم ملتحقاً بالمدينة على مرأىً ومسمع من قريش، متحدِّياً ومناهضاً، وقد أدرك بتحدِّيه هذا أنَّهم لا بد أن يطلبوه وكان ذلك، فانتفض وهو وحيدٌ راجل على جمعهم وهم فرسان، ولمَّا جندل أول طالب له لاذ الباقون بالفرار. وقلَّما يتحدَّى فردٌ جمعاً وهو راجل لا يملك إلاّ سيفاً وهم فوارس مدججون بالسِّلاح.

في إبان رجولته:

وأمّا مواقفه الجريئة في بدر وأُحد مما تخرج بالإنسان عن حدِّ المعقول الى اللامعقول ولكن الإجماع، والتَّواتر، مع ثقة الرُّواة تأخذنا إلى حدِّ اليقين بإعجازالإمام في إقدامه وشجاعته.

إندفع في بدر كالصَّاعقة ذابّاً ومدافعاً فكان لإقدامه وشجاعته أنْ قتل نصف عدد القتلى من المشركين، ولم يثبت في أُحد سواه ذاباً ومدافعاً ومناصراً ومهاجماً، ولولاه لقضى المشركون على الإسلام بقتل الرَّسول مع العلم أنَّه قد استسلم أقرب الصَّحابة للأمر الواقع.

وأمّا تحدِّي عمرو بن عبدود العامري - بطل الجزيرة العربية - للمسلمين بعد عبوره الخندق فقد أخذت به الرُّواة ولم يدرك عليّاً الفزع كما أدرك كلَّ الجيش والصَّحابة وهم ثلاثة آلاف رجل. لم يدركه الفزع بل خرج متحدِّياً ومثيراً ومنازلاً

وكانت نهاية عمرو بن عبدود وولده على يد عليٍّ.

وكان الحديث المشهور: **(ضربة عليٍّ يوم الخندق تعدل عمل الثَّقلين).**

وكانت مبارزته مرحباً وفتحه الحصن دليلٌ على شجاعته.

وأمّا ثباته يوم حنين فمعروف وقد هرب جميع المسلمين على كثرتهم إلا عشرة تسعة منهم من بني هاشم.

وقد قتل الإمام أبا جرول وأربعين من المشركين. وقد ثبت من سير المعركة أن ثبات التِّسعة الباقين به، إذ لم يُنسب إليهم قتيل واحد.

في شيخوخته:

أمّا مواقفه في واقعة البصرة والنّهروان وصفّين فكانت مثلاً رائعاً لأسمى آياتِ البطولة والشّجاعة، وكانت تنحسر أمامه الفرسان كقطيع من الغنم إذا اشتد بها الذّئب.

ولمّا اشتدَّ القتال في وقعة البصرة وزحفت الجيوش على الجيوش، وأشرعت الرِّماح، وتلاحمت الصُّفوف رأى أوار الحرب قد اشتدَّ، وقد تهاوت النُّفوس، وكثر القتلى، زحف بنفسه على الجمل في كتيبته الخضراء، وانتزع النَّصر بيمينه وشجاعته.

وأمّا في صفّين فقد اهتزَّت به الصُّفوف، وتداعت أمامه الفرسان، حتَّى قيل أنَّه قضى بسيفه على خمس مئة وثلاثة وعشرين رجلاً من صناديد جيش معاوية. وهو القاتل اللخميّين وقاتل الحميري أشجع أهل الشَّام.

انطبعت شجاعته على نفوس العرب قاطبةً فحارت أمامه فرسانهم، وافتخر منهم من حملته قدماه في حرب أمامه كعبدالله بن الزبير لما فاخر معاوية بقوله: **(وما الّذي تنكره من شجاعتي وقد وقفت في الصَّف إزاء عليٍّ بن أبي طالب)**(١)

وورث الفخر من قُتل بيد الإمام كعمرو بن عبدود إذ رثته اخته بقولها:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله ... بكيته أبداً ما دمت في الأبد
لكنَّ قاتله من لا نظير له ... وكان يدعى أبوه بيضة البلد

---

(١) ص ٤٥ سيرة أمير المؤمنين للأمين.

وله تلك الكلمة المشهورة. (ما نازلت أحداً إلا وأعانني على نفسه).

ومهما يملك الشّخص من الشّجاعة فلا بد أن يدركه الفزع في منازلته لأمير المؤمنين وسيّد شجعان الأرض.

لم يكن خليفة يركن إلى صومعته،أو يجلس في بيته، أو يعيش في قصره، بين حريمه وحرسه ثم يغترف جهود المحاربين، وبطولات المنازلين، وجهود الامة، فيسجلها باسمه فاتحاً ومنتصراً، وليس لديه قضاياً ثابتة مسجّلة تثبت شيئاً ممّا ينسب إليه، بل ليس لديه إلا كبت الحريّات، واستغلال الجهود، وبعث الإستبداد، ولم يرفع سيفاً، ولم يتقدّم جيشاً. بل عليٌّ خليفة يفترش الأرض، ويلتحف السّماء، يقارع الخطوب، وينازل العوادي.

ينحدر أمام جيشه يذب عنهم دون أن يذبوا عنه، ويقتدون به دون أن يقتدي بهم.

لهم كلُّ الغنم، وعليه أكثر الجهد.

هذه الشّجاعة المتناهية في مقارعة الأعداء، وملاحمة الفرسان، حقاً إنّها أسمى شجاعة سطّرها الإنسان.

ذهب السّلف بنظرتهم إلى الخلافة كحقٍّ اكتسب لا مجال للمناظرة فيه وإن لم يعدم الحقّ كثير من مؤرّخينا فقد أعطوا الحق أهله، وقد أبرزوا لنا شجعاننا وأبطالنا، ولكن مالنا في القرن العشرين والحقُّ واضح أبلج أن نأخذ حقَّ المسلمين عامّة، والامّة العربية خاصّة لندفعه إلى ملك ادعى الخلافة ظالماً ليس له من الشّجاعة ما يبعده عن الظّلم والإستبداد.

ضرب آخر من شجاعته:

أتته صفوة بني هاشم ورجال اميّة وجماعة من أفضل من واكب النّبي يلتمسونه للخلافة، وهو الشّاب المتطلّع، والمؤمن بحقّه، والمدرك أن ليس لها سواه، ولكنّه أرجع بني هاشم بالحسنى، ودفع بني اميّة بعيداً حيث كانوا يريدونها فتنة، وقد تمثّل بما فعل بأرفع آيات الشّجاعة في كبت العواطف للمروءة والمصلحة العامّة.

فمن المصلحة أن لا يثير المسلمين بينهم وأبواب كسرى وقيصر مفتوحة للإنتفاض على الامة العربية، والقضاء على الإسلام. ومن المروءة أن لا يسفك الدماء البريئة في سبيل نزعة شخصية ارتضوها. وقد لا يتخطّى الخليفة ما يريده الإمام من استقامة شرعية واجتماعية، فضحّى وأحسن التّضحية وإنّه لموقف بطولي رائع.

أثارت عائشة الدُّنيا عليه حتّى كانت الحصيلة وقعة البصرة الّتي ذهب ضحيَّتها كثير من المسلمين. ولمّا تمكن منها لم يشعرها بأيّة إهانة، وقد منع أصحابه حتَّى النَّيل منها باللفظ، والقول فيها بما لا تحبّ، ثم جهَّزها بخير جهاز، وسيَّرها إلى حيث أرادت.

وقد دخل على عائشة حيث وضعها في بيت من بيوت البصرة آن خمود الفتنة، فلقيته ربّة البيت صفية بنت الحارس العبدرية بشرّ لقاء، وقد أخفت شرّ أعدائه في غرف بيتها، فتمثّل بشجاعته وفروسيته ومروءته ولم يقبل حتى من أصحابه النَّيل منها عدا عن ردعها، وهي أشد من نصر أعداءه.

شجاعته الأدبية:

كان ينحدر إذا ارتجل في بلاغته وفصاحته كالسَّيل تتطلَّبه الجموع المحتشدة ظمآى للأخذ من معينه الصَّافي، ومن منهله العذب، فكان يخرس الألسن، ويفتق الأذهان.

كان ينحدر في شجاعته الأدبية وذات الحكمة طيَّ لسانه، يذرها عبقة بأرفع آيات البلاغة والفصاحة.

حكمة تغني النُّذر، وشجاعة أدبية فيها العلم، وفصل الخطاب.

شجاعته في الخطب المريع:

وله ضرب آخر من ضروب الشّجاعة ممّا يخرج بالإنسان من حدود الإنسان السويّ الى خلق آخر فوق الإنسان، وفوق الإعجاز، وفوق الشَّجاعة، وفوق المقدرة البشرية المعهودة. ضربه ابن ملجم بعد أن وضع السَّيف بسمٍّ زعاف وقد أمضَّ بضربته حتّى لم تدع إلى الحياة سبيلاً والإمام بهذه الحال، وهو يكابد ألم الضَّربة، وألم السُّم، ولم تأخذه سنة، ولم تدركه هفوة، ولا ركن إلى عصبية، ولا نال منه تأثُّر، بل أخذ يطلق حكمه ووصاياه على أفضل صورة، وعلى أتم حال، وقد تماسك كالطَّود الشامخ، وقد تمثَّل بأسمى آيات الشّجاعة والصَّبر، وهو في النزع الأخير، وفي آخر مرحلة من مراحل الحياة، وبهذه الحال وقد أدار بطرفه إلى زائريه والمحيطين به فاسترسل في النُّصح واندفع للإرشاد.

(والله ما فجأني من الموت وارد كرهته، ولا طالع أنكرته، وما كنت إلا كقارب ورد وطالب وجد «وما عند الله خيرٌ للأبرار») وهكذا يتلقّى الموت حيث يسبح الإنسان في خضمِّ الحياة حتى يلقى شاطىء الموت مطمئناً كأنَّما قد أوصلته الأقدار إلى حيث يريد.

وممّا أوصى به الحسن والحسين:

(وعليكم بالتَّواصل والتَّباذل، وإياكم والتَّدابر والتَّقاطــع، لا تتركوا الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر فيولّى عليكم

شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم.

يا بني عبد المطّلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين خوضاً تقولون قتل أمير المؤمنين. لا تقتلنَّ بي إلا قاتلي. أُنظروا إذا أنا متُّ من ضربته هذه فاضربوه ضربةً بضربة، ولا يمثَّل بالرَّجل، فإنِّي سمعت رسول الله يقول: (إيَّاكم والمثلة ولو بالكلب العقور).

هكذا يبرز الإنسان الفذ في عالم الشّجاعة، وقد تمخض عن الحقائق البشرية الرَّاهنة، وهو في حال مرهون بفاجعة العمر، وفراق الأَحبَّة، ومبارحة الحياة، ولم تقف به شجاعته عند حدٍّ وإنَّما أخذ يوصي بقاتله خيراً حتَّى يلقى حكمه وهذا ما أوصى به ولده الحسن:

(إرفق بأسيرك يا ولدي وارحمه، وأحسن إليه فإنا أهل بيت لا نزداد على المذنب إلينا إلا كرماً وعفواً. بحقِّي عليك اطعمه ممَّا تأكل، واسقه ممَّا تشرب، ولا تقيِّد له قدماً، ولا تغلَّ له يداً).

هذه الشَّجاعة في أسمى ضروبها، وهذه الإرادة في أمضِّ ظروفها، وأصعب أحوالها وهذا هو الإنسان السَّابح في معالم العقل، المحلِّق في حقائق الحياة، المدرك لنهاية مطاف الإنسان، الماثل بأرفع مراقي الشّجاعة والإقدام.

قوة الإمـــام الجسـمية

كانت قوَّته الجسمية مضرب المثل حتّى حيكت حولها الأساطير، واندفعت بها الأحلام، ولم يحلم العرب قط بفارس على هذا النَّمط من الأيد والقوَّة.

كان يقلع الفارس من سرج حصانه بدون كبير جهد فيضرب به الأرض. وقد فعل ذلك بأحمر مولى بني أُميَّة في صفّين.

دعا معاوية الأحمر مولى أبي سفيان وكان شجاعاً بطلاً. وحثَّه على قتل الأشتر أو عبد الله بن بديل ولكنَّه طلب مبارزة الإمام علي لما يعهده في نفسه من قوَّة وشجاعة، فخرج إليه الإمام عليٌّ فأخذه بعضده وجذبه ثم رمى به من يده فحطَّمه وقضى عليه(1).

وكان لا يمسك بذراع أحدٍ إلا وكأنَّه أمسك بنَفسه.

كان يهابه أشدُّ الأبطال من ذوي القوَّة والبأس. ما نازله أحد قطُّ وثبت أمامه.

لم تكن الشَّجاعة توليه الإقدام إلا تواكباً مع هذه القوَّة الخارقة.

وما أعظم القوَّة والشَّجاعة إذا تكافئا.

كان ينحدر في الحرب انحدار السَّيل من قمَّة جبل يجرف ما خف وثقل.

كان كالأسد المندفع تنحسر أمامه قطعان الحمير الوحشيَّة حيث لا مفر.

---

(1) ط ٢ ص ١٥٣ المناقب للخوارزمي الحنفي.

كانت ضرباته وتراً ما إنْ ابتدأت إلا وانتهت، وما التمست إلا وقدَّت.

كان في ليلة الهجرة في فراش النّبي (ص) ليوهم المشركين أنَّ الرَّسول ما زال مضطجعاً في فراشه، وعند الصَّباح أقبل المتآمرون يتقدَّمهم خالد بن الوليد ولمّا قاربوا الفراش انتفض إليهم ابن أبي طالب فهمز يد خالد بن الوليد حتّى جعله (يقمص قماص البكر ويرغو رغاء الجمل)[1] وقد سقط سيفه من يده فأخذه عليٌّ وآنذاك لم يكن لهم بدّ إلا أن يفاوضوه ويسالموه بأنّهم ليسوا بطالبيه. ولا أعتقد أنّهم يقدرون عليه ويتركونه بعد ثبوت خداعه لهم، وولائه للرَّسول.

هذه قوَّة عليٍّ في مستهلّها، ولم يقبض على يد صعلوكٍ بل على يد شابٍّ قويٍّ هو خالد بن الوليد.

وهو الّذي خلع (هبل) من أعلى الكعبة وألقاه أرضاً مع أنّه كان على جانب كبير من الثّقل والكبر.

وفي بدر كان لبلائه ولقوّته الفضل الأكبر في النّصر. فقد أجمع المؤرّخون أنَّ نصف قتلى المشركين كانوا بسيفه وقوَّة ساعده.

وفي أحد قضى على ثمانية عشر من مجموع قتلى المشركين الثّمانية والعشرين وبقي وحيداً يصدُّ كتيبةً بعد أُخرى، ويكشف مهاجمها للرَّسول بعد آخر حتّى أنقذ الرَّسول بمعجزة إذ ولّى الجميع الدُّبر.

وفي وقعة الخندق قرَّر مصير المسلمين بضربة واحدة لبطل الجزيرة العربية الأكبر عمرو بن عبدود فجعله يخر على أثرها مضرَّجاً بدمه، وقد عادلت هذه الضَّربة عمل الثّقلين، فحسبها من ضربة، ما أشدَّها، وما مدى تقدير الرَّسول لها.

وفي خيبر لم يعمد لحصار، ولا وقف دون حصن، إذ التمس الباب فاجتثّه من أساسه، واتَّخذه ترساً، ثم جعله جسراً يعبر عليه المسلمون لداخل الحصن.

وتقدَّم بطل خيبر، وفارسها المشهور (مرحب) متحدّياً الإمام، فعاجله بضربة واحدة قدَّت له الحجر والمغفر والتمست الرَّأس ووصل السَّيف الأَضراس، فكانت ضربة ماحقة.

---

(١) رواه الشيخ الطوسي في أماليه.

ومن نعوته المشهورة (**داحي باب خيبر**).

وأمّا مواقفه في واقعة البصرة والنّهروان وصفّين فكانت تتمثّل بالقوَّة المعجزة الخارقة وقد تعدّى السِّتين من عمره.

كانت له صفاته الجسمية الخارقة ممّا أهّلته لهذه القوَّة الخارقة.

كان عريض ما بين المنكبين لمنكبيه مشاش (رؤوس العظام) السَّبع الضّاري، لا يبين عضده من ساعده ادمجت إدماجاً، عبل الذِّراعين شثن الكفّين (خشنة بأصابع غليظة) عريض الصَّدر، غليظ العضلات حمش السّاقين (دقيقها)، ضخم عضلة الذِّراع، دقيق مستدقّها، ضخم عضلة السّاق، دقيق مستدقّها كان على هيئة الأسد، غليظاً منه ما استغلظ، دقيقاً منه ما استدق.

هذه بعض صفاته الجسمية الّتي رواها مشاهدوه.

تكامل شخصيتي
الرســول والإمــام

ليست عبقرية الإمام صورة من عبقرية الرَّسول.

وما العبقريَّة إلا تكوين ذاتي، وتربية مبنية على ذلك التكوين تنفجر، بذلك الإقتران طاقات كبيرة يلتحق الإنسان بها بأفضل المعرفة، فيظهر له ما خفي على سواه، ويلتمس ما التبس على غيره.

قد تتمثَّل العبقرية بالحجج القاطعة، والحكم البالغة، وقد تتمثَّل بامكانيَّاتٍ ذات مكانةٍ في الرَّأي والحديث، وقد تتأتَّى بمقدرة كبيرةٍ على الاستنتاج والإجتهاد. وقد تظهر باستكشاف أو اختراع، وقد تبرز بقيادةٍ محنكةٍ سياسية أو عسكرية او عقيديّة.

وهكذا للعبقرية ضروبها ومظاهرها المختلفة. وقلَّما يولد فرد يكون ملتقىً للعبقريات، ومجمعاً للمواهب كالإمام عليٍّ.

ليست الأحقاب بكريمة في إعطاء العباقرة، وليست العبقريَّات بهديَّة تهدى، أو بقدر مفروض، أو بتعلُّم وتربةٍ ممنوحة، إنَّما العبقرية جهد واستعداد وتربية.

يقال إنَّ الإنسان مخلوق بخيره وشرِّه، إذ لا حول له ولا قوَّة. وهذا ما لا يرتضيه المنطق الوجداني إذ يكون تعظيم الفاضل بادرة لا شعوريَّة ولا عقليَّة لعدم وجود مبرِّرٍ حيث لا فضل لما يؤخذ المرء إليه جبراً وبذلك يرسم أصحاب هذا الرَّأي للسُّلوك الإنساني صورة ميتة لا تنبض بالحياة، ولا توحي بالشُّعور، ولا تؤمن بالمحاكمة العقلية.

فالعبقري له نوازعه وعواطفه، وله جهده وتعبه.

فعليٌّ لم يخلقه الله عبقريّاً، وإذا خلقه كذلك فقد ألزمه. وقد نصَّ القرآن «وأنْ ليس للإنسان إلا ما سعى وأنَّ سعيه سوف يرى».

رآه محمد عبقرياً فمنحه ما يمكنه، وركن إليه في ما يهمه.

ورآه النَّاس فذّاً عظيماً فاجتهدوا في الحفاظ على تراثه، وإشاعة مفاهيمه، والإقتباس من معالمه.

فعليٌّ عبقريٌّ فذ تواكبت خير المصادفات أنْ يكون هو ومحمد في عصر واحدٍ حتَّى تتمَّ الرِّسالة الإسلامية، وتبقى معالمها منبسطة هذا الإنبساط. حتَّى تظهر هذه الأُمَّة على حيِّز الوجود، وتتَّسم بهما بالخلود والخير.

لم يكن الإمام صورة من الرَّسول (ص)، ولا هو من خلقه، لأنَّ العبقرية لا تخلق، بل للنَّبي سبق التَّربية وحسن التَّعليم.

كانت كلُّ مواقف الإمام بمادِّيتها متباينة من مواقف الرَّسول ومتميِّزة عنها حسبما يمليه الواجب، ولكنَّها مكمِّلة ومتكاملة مع عمل الرَّسول حتَّى يأتي الإسلام على خير وجه.

لم يقف الرَّسول محارباً قط بل موجهاً للحرب، ولم يقف عليٌّ قط في حرب دون أن يكون أفضل محارب.

لم ينهض الرَّسول بطاقاته الجسمية، ولم يُمنح عليٌّ طاقات الوحي العظيم.

فلولا تلك المواقف البطولية الحاسمة للإمام لذهب ريح الرِّسالة أدراجه، ولقضي عليه في مهده.

ولولا مواقفه البطوليَّة في إرادته الجبَّارة بعد وفاة النَّبي لقضى اختلاف المسلمين على معالم الرِّسالة.

ولولا معالمه ومعارفه وأحكامه لما بقي للشَّريعة من ركن يعتد به، وأثر يعتمد عليه.

كان للرَّسول السَّبق في تربية عليٍّ، ووضعه حيث يستحق، ولكن لا يجدي العلم لمن لا يستوعبه، ولا يجدي التَّشجيع لمن لا يملك الشَّجاعة، ولا يجدي الجلاء لمعدن

قابل للصَّدأ.

فعليٌّ منذ طفولته مجسم حي ينبض بالشَّجاعة والإقدام والمعرفة والإدراك.

كان محمد أمثل مشرِّع، وكان عليٌّ أمثل مدرك ومطبِّق.

كان محمد الباني والمبلِّغ للإسلام وكان عليٌّ أفضل مثلٍ لحقيقةِ ذلك الكيان وأعظم قائم به.

كان محمد يستوحي العدالة فيتدرَّج في تطبيقها، وكان عليٌّ يأخذ العدالة كوحدةٍ كاملة دون أن يجزِّئها.

كان يختلف والرَّسول في تكوينه الجسمي ومظاهره وملامحه.

كان النَّبي يحمل كلَّ أسباب التَّشريع وكلَّ معالم القيادة المحنَّكة، وكان عليٌّ المطبِّق لذلك التَّشريع وتلك القيادة. ومن التمسه التمس شريعة لها مقوِّمات مختلف العصور. حقّاً إنَّه أفضل وصيٍّ لأفضل نبيٍّ.

وممّا يروى عن الرَّسول: كما جاء عن ابن حجر في صواعقه ص ٧٣. وعن الخوارزمي الحنفي في كتاب المناقب ط ٢ ص ٤٠ قال الرَّسول: **(أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها)**. وهذا دليل واضح على ما ذهبت إليه. فقد تذهب الشَّريعة المحمدية أدراج الرِّياح إذا بقي الباب موصداً. فعليٌّ - على حدِّ قول الرَّسول - هو المفسِّر والموضِّح الأوحد لمعالم الشَّريعة الإسلامية المحمدية وعلى الصُّورة الَّتي يرتضيها الرَّسول. فالدَّاخل لعلم الرَّسول، والخارج منه، يلزمه المرور من الباب، **وهو عليٌّ**، وهذا دليل ناصع على أنَّهما متكاملان.

وقد قال الرَّسول للإمام كما جاء في المستدرك عن أنس بن مالك **(أنت تبيِّن لأمَّتي ما اختلفوا فيه من بعدي)**[1]. وقد اختصَّ عليّاً بأنَّه الممثِّل الأوحد، والمبيِّن المفرد لما يشكل على الأُمة بعده، وهذا عمل تكاملي لازم لزوم العقيدة، وارد ورود الإسلام.

وكما جاء عن عمر بن الخطاب (رض) في الرِّياض النَّضرة ج ٢ ص ٢٤٤. وعن

---

(١) المناقب للخوارزمي الحنفي ط ٢ ص ٤٢.

طرق أخرى قول الرَّسول للإمام (أنت منِّي بمنزلة هارون من موسى)[1]

ونحن نعرف أنَّ منزلة هارون من موسى منزلة تشريع واستخلاف، وأُخوة ونبوَّة.

كلُّ تلك الأحاديث وأضرابها على كثرتها ترينا أنَّ العمل المحمدي العلوي على صعيد النُّبوَّة والإمامة عملٌ تكاملي في تكوين الإسلام، وعمل لازم بعضه لبعض، ومن تسوَّل له نفسه تجزِئة هذا التَّكامل فلا أحسب أنَّه قريب من الإسلام.

يرى الإمام أنَّ من واجبه الإطاعة التَّامة للرَّسول، والمثول الكامل بين يديه، والتَّصديق المنقطع بدون أي شك بنبوَّته ورسالته، وقد فرض الإمام ذلك على نفسه اختياراً لا لقربىً ولا لأثرة. ثم ذهب لقطع دابر الشك من أيٍّ أتى ومن أيَّة وجهة قدم وكان له اجتهاده في ذلك وفي عهد النَّبي وها أنا أذكر حادثتين متشابهتين حدثتا للإمام. الأولى في عهد الرَّسول والثانية في عهد خلافته مصداقاً لما أسلفت.

روى الخوارزمي الحنفي في المناقب عن ابن جريج عن الضَّحاك عن ابن عبَّاس ما معناه.

تخاصم النَّبي (ص) وأعرابي في شراء ناقة كان النَّبي قد دفع ثمنها وأنكر الأعرابي ذلك فاختصم النَّبي إلى بعض أصحابه فطلبوا البينة. فأقبل عليٌّ فقال النَّبي للأعرابي أتقبل بالشَّاب المقبل.

قال: نعم.

قال الأَعرابي لعليٍّ الناقة ناقتي والدَّراهم دراهمي فإن كان محمد يدَّعي شيئاً فليقم البيِّنة على ذلك.

فقال له عليٌّ: **(خلِّ عن النَّاقة وعن رسول الله)** وكرَّر ذلك ثلاث مرات. ولمَّا لم يطع الأعرابي فقد دفع برأسه ثمناً لتحدِّيه. حيث اندفع عليٌّ إلى الأعرابي وضرب عنقه دون أن يستشير الرَّسول بما يلزمه، لأنَّه أدرك ما يلزم، ثم دار بوجهه إلى الرَّسول قائلاً: **(نصدِّقك على الوحي، ولا نصدِّقك على أربع مئة درهم)**.

---

(١) المناقب للخوارزمي الحنفي ط ٢ ص ١٩، ٢٤، ٦٠، ٧٤، ٨٠.

قد يستنبط المتتبّع أنَّ في هذه الحالة نوعاً من التّسرع، ودليلاً على عدم التّريث. ولكنَّ المدرك لجدوى البعث الإسلامي، والعارف لمدى احتياج المجتمع العربي لهذا البعث، يرى الإمام في موقفه على جانب عظيم من التّقدير للأُمور، والنُّزوع لما هو الأفضل. فالحركة الإسلاميَّة قائمة بشخصيَّة محمد، وبتصديقه في وحيه ونبوَّته، وفي كلٍّ ما ينطق به، فإذا ساور المجتمع الشكُّ فيه بطلت حجَّته، وذهب جدوى رسالته، وقد لا يخلو هذا الأعرابي من فتنة أرادها لإصراره على تكذيب الرَّسول ممَّا يطلق أعنّة الشكِّ فيلتمسها غيره. وإنَّ الرَّسول بدوره لم يظهر قبولاً لحكم الصَّحابة الَّذين طلبوا البينة، ولو أظهر القبول لما طلب حكم الشَّاب المقبل وهو عليٌّ ولا يعطي الرَّسول البينة لأنَّ تصديقه لازم وقد نصَّ القرآن ناعتاً محّمداً «**وما ينطق عن الهوى إنْ هو إلا وحيٌ يوحى**».

فكانت ضربة عليٍّ لازمة لزوم التّصديق برسالةِ محمَّد (ص)، وقد وضعت حدّاً للشكِّ فيه رآه الناس بأُمِّ أعينهم.

وقد حدث ما يشبهها مع اختلاف الزّمان: فقد ذكر ابن خلّكان في ترجمة شريح أن رأى الإمام درعه على أعرابي مسيحي من عامَّة النَّاس فخاصمه عند قاضيه شريح فطلب من الإمام البيِّنة فضحك الإمام وقال: (أصاب شريح مالي بينة).

فأخذ الأعرابي الدِّرع، وما إنْ خرج حتَّى اتَّجه إلى الإمام وقال: (صدقت هذه درعك). ثم أشهد الإمام على إسلامه.

جرى هذا والإمام خليفة قد اجتمعت فيه الدُّنيا والآخرة، وقد زهد في القناطير المقنطرة من الذّهب والفضّة الّتي بين يديه فكيف يدّعي درعاً ليست له.

ولم يأخذ شريحاً في تكذيبه له بل أقرّه وصوّب حكمه، حيث الشّك وارد في حال لا ضرر فيها على الإسلام، وهو باسطٌ نفوذه، والإمام أحد أفراده، ولأيٍّ من الشّعب الحقّ أمام القانون أنْ يخاصم أيَّ فرد حتّى ولو كان الخليفة.

ثم إنّا نعلم أنّه قد حصل الشّك في الرَّسول والإسلام في إبّان ظهوره، والشك في الأصل غير الشّك في الفرع، والإمامة من النُّبوة وليست النُّبوة من الإمامة.

فلو درسنا كلَّ أحكام الإمام، وسيرنا كلَّ أعماله، وحقَّقنا في كلِّ وجهة رآها وأمر بها لرأيناها لازمة لإتمام الرِّسالة، واجبة لتحقيق أهدافها، فهو والرَّسول على صعيد التَّكامل لأداء العمل الكامل، ولو لم يكن أحدهما لم يكن للآخر نهاية في

عليّ والعامة من النـاس

(هم الّذين إذا اجتمعوا غلبوا وإذا تفرَّقوا لم يعرفوا)[1].

هذا نداء الإمام للعامّة من النّاس.

هذا تعبير الفرد المدرك لحقيقة المجتمع.

هذه كلمة الإنسانية تشقّ عباب الوجود هاتفة ما دامت أرض وما دامت حركة.

قالها أعظم ثوار التاريخ قاطبة، قالها الإمام عليّ (ع).
قالها من نزع للإنسانيّة بتجرّد كامل.
قالها من نزع للعامّة من النّاس بكل إرادته وهواجسه.
قالها من نزع للعامّة نزوع المنصف المنطقيّ المستوعب لحقوق الإنسان.

قالها من لم يجر في عروقه قطّ غير العيش السليم، عيش الكادحين، العيش الخالص من أدران الإستغلال إستغلال الإنسان لأخيه الإنسان.

قالها المثل الأعلى للإنسانيّة فكان أُمثولة الدهر في نكران الذَّات، والخلق الجمّ، والتواضع المطلق، الذي لم يعرف قطّ أيّ تكلُّف في مظهر، وأيّ إخفاء لواقع.

صفاته الإنسانية، وعدالته الإجتماعية، مأخوذة من عقيدته، مجبولة من طينته،

---

(١) ص ١٩٨ ج ٣ النهج محمد عبده.

ناشئة في تكوينه، ماثلة في شخصيّته (الذّليل عندي عزيزٌ حتى آخذ له الحقّ، والقويّ عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه).

إنّها لكلمة عابرة للإمام حسب طيّ حقيقته ولكنّها تحمل في طيّاتها المعالم الإنسانية الخالدة، وما أسعد ذلك الذليل المأخوذ على أمره، المظلوم في مجتمعه يرى الرَّحمة قد تفتّحت أبوابها، ويرى العزّة قد رفعته إلى مرقاها، فإذا بالإمام يرفع له قدره، ويأخذ له حقّه، ثم يبعثه إلى مجتمعه منتصراً عزيزاً.

وما أتعس ذلك الظَّالم وهو على أعتاب الظلم، مطأطأ رأسه، منكسرة نفسُه حيث يراه الإمام ذليلاً حتى يأخذ الحقّ منه، ثم يرفعه وقد طهَّره من رجس الظّلم، وأبعده عن الإعتزاز بالقوَّة (الذَّليل عندي عزيز...) هكذا يرفع المصلح مستوى مجتمعه.

لم تأخذه القوّة أو الشَّباب، أو حبّ الملك والسُّلطان، أو أيّ سبب حيوي شخصيّ على أن يداهن في معنى إنسانيّ واحد. فلم ينظر للسُّلطان إلاّ بما يفرضه الواجب ويقتضيه العدل. وهكذا يعبِّر بهذا التعبير الخالد مؤشّرا الى نعله (إنّها «أي النعل» أحبّ اليّ من إمرتكم هذه إلاّ أن أُقيم حقاً أو أدفع باطلاً).

ثار، فألهم الأجيال عراقة ثورته، وحقيقة قيادته.

صاح بعبارات خالدة يستنهض بها همم العامّة من النّاس، ويدفعهم الى التحرر غير المجزوء، إلى التحرُّر الكامل (وأكرم نفسك عن كل دنيّة وإنْ ساقتك إلى الرَّغائب فإنّك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضاً، ولا تكن عبد غيرك فقد جعلك الله حراً).

أكرم نفسك أن تنزل بها الى مستوى الدنيّة، وإن قادتك إليها رغبة في نفسك، وجنوح إلى غنمك فمهما يكن الغنم فان ما تفقده من قيمة نفسك لأعظم.

انّه حرَّر بهذه الكلمة الخالدة نفوساً استعبدت، وبشراً قد لا يدرك كنه نفسه، ولا يدرك أنه إنسان كسواه، ولكنّه بخنوعه، وتقاعسه، وعدم إدراكه لحقيقته، قد أعطى زمام حكمه لمن استعبده، فلا تكن عبد غيرك وكن سيّد نفسك.

إنّه لا يخاطب سلطاناً او ملكاً، ولا أميراً أو حاكماً، بل يخاطب الطبقة العامة

من الناس، يخاطب كلّ حجرٍ في بناء هذه المجموعة البشريّة.

إنّه يخاطب العامل، والفلاّح، والحرفيّ، والسُّوقة وكل ذوي الصّناعات.

إنّه لا يرى في عداد البشر من علا وتكبّر، وتهادى وتبختر، إنَّه ينظر المرء في صفاته، وصفاته في أعماله، وأعماله في ما زكا منها وطاب. فمقياس المرء ما صلح منه. وما استحسنه المجتمع، وخير الإحسان ما نفع النّاس، وأولى الناس بالإحسان هم العامّة. وهذا ما جعل الإمام يحثّ الحكّام على إشعار العامّة للأخذ بحقوقهم. ولم يجعلها استجداءً واستعطافاً بل هي حقوق مغتصبة يتوسّل اليها العامّة بما أُوتوا من حولٍ وقوّةٍ، ويبرّر موقفهم هذا بحكمته البالغة كما جاء في عهده للأشتر: (فإنّ سخط العامّة يجحف برضا الخاصّة، وإنّ سخط الخاصّة يغتفر مع رضا العامة).

وفي تفكيره الفريد حسبما أوردت معانٍ لم تحلم بها الإنسانية في تلك الحقوب الغابرة، ولم تهضمها حتى ازماننا الحاضرة. فهو قد تعمَّق في المفاهيم الإنسانيَّة، وجعلها كل وجوده، وحقائق إيجاده.

لم ينزع الإمام قطّ الى الاقليميّة المحدودة، أو القوميّة الضيّقة - كما ذهب إليها بنو اميّة - ولا إلى الاخوة البدائية البوهيميّة المبنيّة على الاخوة إن جانبت الحقّ أو ماشته، وإنما نظر الإنسان كإنسان وأحاطه بمعناه الإنساني الواسع، وهذا ما يوصي به ولاته كما جاء في عهده للأشتر:

(ولا تكوننَّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم فإنَّهم صنفان إمّا أخ لك في الدِّين، أو نظير لك في الخلق). ما أجمل هذا التعبير، وما أحراه بالخلود، فلم يعدم العقيدة حقّها، ولم يعدم الإنسان حقّه كإنسان.

لم يأخذ بالعقيدة على حساب الإنسانيّة، ولم يأخذ بالإنسانية على حساب العقيدة، فكلاهما على صعيد الأَخلاق والعمل.

بدأ حياته ثائراً على الجاهليّة في ظلمها وعصبيّتها واسترقاقها. وثار مع نبيّه وأُستاذه ومربّيه لدرء الظُّلم، وبسط الحقّ، ورفع مستوى العامّة، حتى اصبحوا يداً واحدة، وسادة في أَوطانهم، لا استغلال ولا استبداد. ثم ثار ثالثة على المارقين والناكثين والقاسطين المنحرفين بهذه العقيدة الى غير وجهتها، وما أضلّها من

وجهة!.

عاش ومات في سبيل العدالة الإجتماعية، في سبيل الطبقة الكادحة، في سبيل الفقراء والمعوزين، أثار فيها نفسيّة الإنسان المعتدّ بنفسه، والمدرك لحقّه والمكافح في سبيل ذلك.

أثار فيها كل الكوامن البشريّة الطبيعيّة ليجعلها شاعرة كلَّ الشُّعور بذاتها وقيمها، متحرِّرة من العبوديّة التي فرضتها عليها القرون الغابرة، مدركاً أنْ لا حياة لأمةٍ أو لعقيدة بدون شعور أفرادها بالكرامة والإعتداد بالنفس.

كان الإمام أشجع الصّحابة، وأشدّهم في الحرب بأساً وبلاءً، قطع رؤوس الضَّلال، وأوقف زحفه. ولّما توسّع المسلمون، وأصبحوا أحراراً في مواطنهم، سادةً في وجودهم وعقيدتهم، أتتهم الخيرات من كل جانب، فنشأت طبقة خاصّة فاستأثرت بالخيرات، وأثرت ثراءً فاحشاً حتى أصبحت لها مميّزاتها الخاصّة بها.

ثار الإمام على ما رآه من الطّبقة الخاصّة - الإرستقراطيّة - حيث استقلت بالغنم، واوقفت العقيدة. وأصبح بها مال المسلمين نهباً، وعيشهم جهداً، وليس للمسلمين إلاّ العزّة والقوّة، وعليهم فتح الثُّغور والأمصار لتجبى ثمرات كل شيء لطغمة فاسدةٍ عاتيةٍ مستبطنة الكُفر ومتظاهرة بالإسلام.

كان هؤلاء المستغلّين للشعائر الإسلاميّة يظهرون، وعن ثغور المسلمين يدفعون. كانوا يصلُّون ويصومون ويحجُّون ولكنَّهم كانوا (يخضمون مال الله خضم الإبل نبتة الرَّبيع). كانوا لا يتورّعون عن نهبِ ما أفاء الله به على عباده فيضعونه في خزائنهم لمتعهم، ويتركون المسلمين سغاباً خميصي البطون، خاوي الأَحشاء، لا يجدون ما يقيم أودهم، ويسدُّ حاجتهم.

أخذوا من الشَّريعة مظاهرها وأجبروا النَّاس عليها، وابتعدوا عن حقائقها وأجبروا النّاس على الإبتعاد عنها.

حذّر الإمام من إطاعة هؤلاء (ألا فالحذر الحذر من إطاعة ساداتكم وكبرائكم الَّذين تكبرّوا عن حسبهم وترفعّوا فوق نسبهم).

للإمام التفاتة جميلة، وتعبير بليغ، حيث أنّ المجتمع هو وحده تربطه أواصر

النسب ووشاح الحسب، وأنّ المتكبّر إنّما يأخذه كبرياؤه ليترفّع على قومه باستغلالهم ماديّاً ومعنوياً أو بالترفّع عمّا هم فيه اسوة، ويرى العدل فرضاً وأمراً يمنعه كثيراً ممّا اختص به دون الناس، فالعدالة الإجتماعية لصالح الجميع عدا هؤلاء المتكبّرين، ولذلك لا تتأتى أبداً باطاعة هذه الطبقة. فالحذر الحذر من اتباعهم لأنّ ذلك استرقاق للنفس، وعبودية لها.

دافع الإمام عن السمّو المعنويّ للأُرومة البشريّة، ودافع عن السمّو الماديّ للارومة البشريّة، فكان المثل الأعلى للثائر المستكمل لمعنى الثورة في أرفع معانيها.

كان الحكيم الملهم الماثل بتطبيق حكمته على نفسه دون أن يلقيها حكمة تذروهاالرّياح فتلتمس صدفة من تتحكّم فيه أحواله للأخذ بها.

قال بالثورة وحملها بكفّه.
قال بالحكمة وطبعها على نفسه.
قال بالعدالة وأحاطها بعمله.

(ومن أراد ان يكون إماماً لغيره فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليبدأها بسيرته قبل لسانه).

حارب الإمام طواغيت الجاهليّة حتى جاءوا السّبيل.

وحارب طواغيت العهد الإسلاميّ، ولكن فروسيّته، وحبه للإسلام، منعاه عن الإلحاح بالطلب، حيث ظفر بكثير منهم وعفا كعمرو بن العاص، ومروان، وبسر ابن ارطاة، وغيرهم.

كان يرى لكلّ امرىءٍ ما أبلى، ولكلٍّ حسب جهده، ولا يعطي الخاصّة من جهد العامّة شيئاً. (ثم اعرف لكلٍّ امرىءٍ ما أبلى ولا تضيعن بلاء امرىء إلى غيره).

ولم يلتزم كليّا بالقاعدة السّالفة حيث لكلٍ حسب جهده بل أولى عنايته ورفده لمن لم تسعفه جهوده لنيل العيش اللائق به كما نصّ على ذلك في عهده: (الله الله في الطبقة السُّفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين البؤسى والزمنى

بأنّ في هذه الطبقة قانعاً ومعتراً. واحفظ لله ما استحفظك من حقّه فيهم، واجعل لهم قسماً من بيت المال، وقسماً من غلاّت صوافي الإسلام في كل بلد).

كان ينظر الفقر – وهو الذي ارتضاه لنفسه تأسّيا بالفقراء – أبشع ما يرى فوق الأرض، يتحرّق للقضاء عليه، ويسعى حثيثاً لدفعه، ولوأد أسبابه وعوامله، حق كان يرفع يده الى السَّماء مبتهلا (اللهم صن وجهي باليسار، ولا تبذل وجهي بالإقتار)[1].

وقد أطلق كلمته النابعة من حقيقة المجتمعات، والمرتهنة بحقيقة الحياة، بقوله: (الفقر الموت الأكبر)[2].

قد يتبادر الى بعض الناس بما يسمعونه عن زهده وورعه وإيمانه أنّه ممّن يرى في التصوّف سنّة، وفي الرهبانية تجرّداً، وفي الزُّهد في الدنيا ثواباً وتفانياً في العقيدة الإسلاميّة.

وقد يتبادر الى الذهن أنّ لأصحاب عليّ أُسوة به، عليهم أنْ يضعوا الدنيا بطيباتها في كفٍّ عفريت يصعق من التمسها، ويقضي على من طلبها، ولكن ما أبعد الإمام عن هذه النّزعة، وعن هذه الآراء. وإنّما يحثّ على طلب الدنيا بطيبها إلاّ ما لا يصلح للإنسان اقترابه كما جاء في القرآن نص واضح. (قل من حرَّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيّبات من الرزق).

ولنا في هذه القصة خير دليل:

قدم الإمام البصرة فمرّ على العلاء بن زياد أحد أصحابه يعوده. فقال العلاء للإمام:

(يا أمير المؤمنين أشكو اليك أخي عاصم بن زياد).

قال الامام: (وماله؟).

قال العلاء: (لبس العباءة وتخلّى من الدنيا).

---

(١) عن ألف كلمة للامام عدد ٧٧٥.

(٢) ص ١٩٢ ج ٣ النهج محمد عبده.

قال (ع): (عليّ به) فلما جاء عاصم قال له الإمام.

(يا عديّ نفسه (أي عدو نفسه) لقد استهام بك الخبيث (أي الشيطان) أما رحمت أهلك وولدك؟. أترى الله أحل لك الطيّبات وهو يكره أن تأخذها؟ أنت أهون على الله من ذلك).

هكذا يرى الإمام الحياة دوما في منظار واقعيّته.

يلتمس الناس حيث يلتمسون الحياة الفاضلة، ويوجّههم حيث يرفعهم الى المستوى المعنويّ والماديّ اللائق.

يبسط الحياة للنّاس كما يريدها النّاس، ملؤها الحريةوالكرامة، لا كما تريدها طبقة خاصّة ضمن وجهة معينة لها الغنم وعلى العامّة الغرم.

هذا نهجه في أُمته، وهذه ثورته في مجتمعه، تنهل منها البشريّة واقعها، وتتطلب معالمها، فابشر يا أبا الحسن فإنّ الأُمم سائرة نحو طلائع معالمك، رافعةً راية مبادئك.

علي والخلفاء

منذ ان وجد الإنسان وجد له عقل وبصيرة. وجدت معه آراؤه، وتنوّعت هواجسه، وتشعّبت مبادئهُ وعقائده. يستوحيها حسب الحاجة، ويعمل بها حسب الإرادة. يركن مرة الى عقله ومرَّة إلى هواه. جبل على التحزّب لرأيه لإثبات شخصيّته، والإعتداد بنفسه. قد يلتمس الرأي صحيحاً، وقد يلتمسه خطأ. والنَّاس في خضم هذه الحياة تأخذهم الحقوب، وتهلكم الأزمان، ولا تبقى منهم إلا مآثرهم ومعالمهم. وبعد مضيّ الزمن، وانصرام الوقت يأتي أُناس باحثون يمحّصون ويدقّقون حتى يوافوا مجتمعاتهم بالرواية الصادقة والسَّند الصحيح والتواتر الثَّابت ثم يقدِّموا لمجتمعهم ما اختلفوا فيه لرأب صدعهم، وجمع شملهم، وإقرار وحدتهم.

ولست مغالياً إذا قلت بأنّ ما اثر عن المسلمين على اختلاف نحلهم ومذاهبهم، وعن الثِّقات من رواتهم، لا يخرج عليّا عن التقديس والإحترام كأبرز شخصيّة إسلاميّة بعد الرسول (ص) على صعيد العقل، وعلى صعيد الشَّرع والعمل.

اتّبع عليّ (ع) سبيلاً ونهجاً على جانبٍ عظيمٍ من الكياسة والحنكة في عهد الخلفاء الثلاث. ولا أخالني مغالياً اذا قلت بأنّ موقفه لا يمكن أن يرقى الى شأوه إنسان سويّ لأنّ بعض تلك الأوقات اتّسمت بأوضاع وظروف على جانب كبير من الخطورة تحتاج إلى مثل ما اتّصف به الإمام من ارادة جبارة لا يتحمّلها إلاّ من أُوتي مقدرة وصبراً وإرادة وتجرّداً كاملاً لخير المجموع.

ذهب محمد (ص) للقاء ربه وعليّ (ع) قد قارب الثلاثين من عمره في عنفوان شبابه وقوَّته، وفي جبروت عقله وإرادته، وفي عزّ عقيدته ومبدئه.

يدرك ما له من سابقة في الإسلام، وما يلزمه من عمل لاحق له. يعتقد ويؤمن أنّ النبيّ أودعه هذا الحقّ حقّ القيادة بعده[١] وقد بلّغ النبيّ وأوصى، والحّ في الطلّب على مرأى ومسمع من جميع الصّحابة. وحاشى لنبيّ على هذا الجانب من العبقرية وحسن التصرُّف أن يترك الأَمر من بعده تتقاذفه الأَهواء، وتأخذ به النزعات دون أن يضع له سبيله.

يعتقد الإمام أنّ النّص ثابت له والشّورى لا تتعدّاه إذا بقي الأمر حتى يوارى النبي في جدثه ثم ينظر المسلمون يبايعون. ولكن اجتمع نفر في سقيفة بني ساعدة والنبيّ مسجّى لم يدفن ولم يأت أحد لتشييعه وحاشى لعليّ أن يتركه على هذه الحال ويذهب لالتماس الحكم.

(وكانت فلتة وقى الله المسلمين شرّها)[٢] كما صرّح وأقرّ بذلك عمر بن الخطّاب (رض).

كانت فلتة ويا لها من فلتة وقى الله المسلمين شرَّها بعليٍّ وبتضحيته وعظيم كياسته ولمّا توفي أبو بكر أودعها إلى عمر بن الخطاب بلا نصّ عن الرَّسول، ولا شورى بين المسلمين فكانت من فرد إلى فرد. ولمّا ذهب عمر إلى لقاء ربه أودعها في ستة والمسلمون جميعهم سواسية في ذلك. فمن أيَّة جهة أتى هذا الحقّ لهؤلاءِ فحسب ويحرم المسلمون منه قاطبة؟ هذا ما ذهب اليه المؤرخون جميعهم.

رأى الإمام الامور تسير في مستهلّها على غير إرادته فالتمس العزلة. ولكن لم يشأ الله ذلك ففي عزلته إمرأة شابّة على جانب عظيمٍ من الذكاء والفطنة والاعتداد بالنفس، انهكها البؤس، وأخذها المرض، وتجمعت عليها المصائب، واستأثر الحاكم[٣] بمالها فهي تثبت حقّها بالقرآن والسنّة والحجّة والإستدلال، وهو يعترف ثم يماطل.

تتحرّق هذه المرأة لما أصاب زوجها، وبما أُصيبت به من فراق والدها، تلتمس

---

(١) كتاب الغدير للشيخ الاميني، أورد فيه ما يثبت اتفاق جميع المسلمين على ولاية علي.

(٢) علي وبنوه للدكتور طه حسين.

(٣) بطلة كربلاء للدكتورة عائشة بنت الشاطي ٣٧ من كتاب الهلال، فاطمة الزهراء للعقاد ٥٩ ص كتاب الهلال.

الأَنصار والمهاجرين وكأنّما على رؤوسهم الطّير لا يرعى لها أحد حقاً ولا ينظر اليها عطفا، قلوبهم معها وسيوفهم عليها.

هذه المرأة هي فاطمة الزَّهراء بنت محمّد، وزوج عليّ، أُم السبطين، وسليلة هاشم، واعظم نساء العرب قاطبة. هذه المرآة ليس لها إلاّ هو تثيره وتتطلّبه في دفع ما أحاق بها وما أصابها، وردع من نال منها وهي بضعة الرَّسول وصفوة النبوّة.

ثارت فيها حميّتها فلامته لقعوده وألحّت في الملامة، واستنهضته وألحت في الإستنهاض، وهو ساكت صامت كالطَّود الجاثم، على بركان، ثائر، أو كالصَّرح العتيد المتماسك على زلزال مدمّر، وهكذا وهو صامت وهواجسه عند فاطمة حتى أذّن المؤذِّن فلمّا بلغ قوله أشهد أن محمدا رسول الله قال لها: (أتحبّين ان تزول هذه الدعوة من الدنيا).

قالت: (لا).

قال: (فهو ما أقول).

ثم يلتمسه صفوة هاشم، وابرّ الصحابة مع نفر من ذوي المآرب كأبي سفيان يستثيرونه، ويلتمسونه للبيعة وكان أبو سفيان يخاطب الإمام بهذه الأبيات:

بني هاشم لا تطمعوا النّاس فيكم ولا سيّما تيم بن مرة أو عديّ
فما الأمر إلاّ فيكم وإليكم وليس لها إلا أبو حسن عليّ

ثم يسترسل في الخطاب: (أما والله لو شئتم يا بني هاشم لأملأنها عليهم خيلا ورجالا).

فناداه علي (ارجع يا أبا سفيان فوالله ما تريد الله بما تقول، وما زلت تكيد للإسلام وأَهله).

هذا موقف عليّ فيلزمنا حسب المنطق ان ننظر الإنسان بما هو فيه من حال ومن وضع ثم نأخذه بما يتمخَّض عنه عمله، وبذلك نحمله على ما حملت للمسلمين وللعرب إرادته وتضحيته.

وحسب ابن ابي طالب وقد أدرك ما لهذه الفتنة في صدر الإسلام من عاقبة وخيمة، والنفوس المريضة الحالمة بالزّعامة والتي ما زال فيها أثر من الجاهليّة لا يهمها أن تلتمس قيصرَ أو كسرى، أو ردّة أو ثورة فتقضي بها على الإسلام.

فضحّى الإمام وأحسن التضحية.

ضحّى بزعامة وقتيّة ولكنّه تسنم خلود القيم الإسلامية الانسانيّة.

فعلى الإسلام ان يوفيه حقّه، وعلى العرب أن تمنحه رفده.

ضحّى وأقرّ التضحيّة حيث بايع وأحسن البيعة. ثم سمّى ثلاثة من أولاده بأسماء الخلفاء الثلاث. (أبو بكر وعمر وعثمان). ثم خص ابنته أُم كلثوم وبنت فاطمة بعمر بن الخطاب. ثم سير الحسنين في ركاب الجند المجاهد.

فكان وشاح البيعة، ووشاح التّسمية، ووشاح الزّواج، ووشاح الجهاد.

وعلى ذلك أدرك الخلفاء حقّ الإدراك أنّ الإمام زاهدٌ في الأمر والحكم فآثروه في أمر آخرتهم ودنياهم، والتمسوه في أكثر معضلاتهم، واستشاروه في كثيرٍ من مهامِّهم، وأودعوا أحكامه مودع الإيمان بالنبوّة. فكان له أنْ يحكم، وكان له ان ينتقد، وكان عليهم ان يحترموا رأيه ويأخذوا به.

وعلى ذلك اشرأبَّت إليه الأعناق، وشخصت اليه الأبصار، فأضحى المرجع الأوحد، والسَّند المسند، برجاحة العقل، وصواب الرأي، وعمق النظر.

وبهذه الحنكة، وبهذه الدِّقة في تقدير الأُمور، وبهذه المقدرة في وضع الحلول اللازمة في الوقت المناسب، استطاع أنْ يستأثر بقلوب الخلفاء الرَّاشدين وبحبّهم، ممّا أفاء على المسلمين والعرب خيراً كثيراً.

عليّ وأبو بكر (رض):

جاء في الصّواعق المحرقة لابن حجر ص ١٠٨، وفي الرِّياض النضرة للطَّبري الشافعيّ ج ٢ ص ٢٤٤ وفي المناقب للخوارزميّ الحنفيّ ف ٢٣ وفي مصادر أخرى.

كان أبو بكر يكثر النَّظر إلى وجه عليّ فسألته عائشة عن ذلك. فقال: سمعت رسول الله (ص) يقول: (النظر الى وجه عليّ عبادة) : (النظر الى عليّ عبادة).

وجاء في كتاب مناقب الخوارزمي الحنفيّ ص ٩٧. وفي الرياض النضرة ج ٢ ص ١٣٦٣. وبطرق أُخرى.

نظر أبو بكر الى عليّ قادماً فقال: (من سرّه ان ينظر الى أقرب النّاس من رسول الله (ص)، وأجودهم منزلة، وأعظمهم عند الله عناءً، وأعظمهم عليه فلينظر إلى هذا) وأشار الى علي بن أبي طالب ثم قال: (إنَّه رؤوف بالناس وإنّه لأوّاه حليم).

هذه نفحة الولاء المنبثقة من صميم الواقع على لسان رجل من أعاظم المسلمين وأوّل من تسنم الخلافة فيهم. أقرّ للإمام إقراراً لا شائبة فيه إنّه أبرز المسلمين قاطبةً. وهذا كمثل تناولته من كثيرٍ قرأته.

الإمام في عهد عمر بن الخطاب (رض):

أدرك عمر ما لعليٍّ من أثر بليغ في الشَّريعة والسُّنة، ومن قضاءٍ حكيم، ومن رأي صحيحٍ، ومن مشورة محترمة فاندفع اليه مسترشداً، ووضع أُمهات المسائل بين يديه يلتمس حلَّها ويكشف لعمر كنه أمرها.

جاء في ذخائر العقبى ص ٨٢ للطّبري الشافعيّ، وجاء في تفسير النيسابوري، وتفسير الرّازي ص ٤٦٦، وفي السّنن الكبرى وغير ذلك من المصادر.

أراد عمر بن الخطاب رجم امرأة ولدت لستة أشهر فقال له عليّ: إنّ الله يقول (وحمله وفصاله في عامين) فالحمل ستّة أشهر والفصال في عامين فترك عمر رجمها وقال (لولا عليّ لهلك عمر).

وجاء في الرِّياض النضرة ج ٢ ص ١٩٦. وفي مناقب الخوارزمي الحنفيّ ف ٧ ط ٢ ص ٣٩. وفي الأربعين للفخر الرّازي ص ٤٤٦. (أُتي لعمر بامرأة حامل اعترفت بالفجور فأراد رجمها فاعترضه عليّ وقال (هذا سلطانك عليها فما سلطانك على ما في بطنها) فخلى سبيلها ثم قال: (عجزت النِّساء أنْ يلدن مثل عليّ بن أبي طالب لولا عليّ لهلك عمر).

وجاء في الطُّرق الحكيَّة لابن القيم ص ٤٧.

أُتي لعمر بامرأةٍ ادّعت على شاب تهواه أنّه اغتصبها وقد أَلقت على فخذيها وثوبها بياض البيض فاستشار عليّاً. فأشار بسكب الماء الحارّ على الثّوب فجمد البياض ثم شمَّه وذاقه وفاجأ المرأة بذلك فاعترفت وتخلَّص الشابُّ.

وقد أخرج أحمد بن حنبل - إمام الحنابلة - في الفضائل. قال: كان عمر بن الخطاب يقول (أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن).

وجاء في مناقب الخوارزمي الحنفيّ ما مختصره:

همّ عمر بأخذ حليّ الكعبة فأوضح له عليّ ما يمنعه شرعاً من ذلك. فقال عمر: (لولاك لافتضحنا).

وجاء في نهج البلاغة وعن طرق أُخرى: تناهى إلى عمر بن الخطّاب أنّ الأعاجم قد تكاتبوا يريدون غزو الإسلام فارتقى المنبر وأبان الأمر ثم التمس النّصح فأشار عليه طلحة بن عبد الله بأن يتولّى عمر نفسُه الأمر، وأشار عثمان بأن يشخص عمر بجميع المسلمين للقاء الأَعداء.

فقام عليّ (ع) وبعد حمد الله قال:

(إنّك إنْ أشخصت أهل الشام من شامهم سارت الروم الى ذراريهم. وإنْ أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة الى ذراريهم. وإنْ أشخصت من هذين الحرمين انتقضت عليك العرب من أطرافها وأكنافها حتى يكون ما تدع وراء ظهرك من عيالات العرب أهمّ اليك ممّا بين يديك.

فأمّا ذكرك كثرة العجم ورهبتك من جموعهم فإنا لم نكن نقاتل على عهد رسول الله بكثرة. وإنّما كنا نقاتل النّصر. وأمّا ما بلغك من اجتماعهم على المسير إلى المسلمين فإنّ الله لمسيرهم أكره منك لذلك، وهو أولى بتغيير ما يكره، وإنّ الأعاجم إذا نظروا اليك قالوا هذا رجل العرب فان قطعتموه فقد قطعتم العرب، وكان أشد لطلبهم، وكنت قد ألّبتهم على نفسك، وأمدّهم من لم يمدّهم.

ولكني أرى ان تقر هؤلاء في أمصارهم، وتكتب الى أهل البصرة فليتفرّقوا على ثلاث فرق. فلتقم فرقة منهم على ذراريهم حرساً لهم، ولتسر فرقة منهم الى إخوانهم مدداً لهم).

فقال عمر: (أجل هذا الرأي) وأخذ يكرره ويعجب به.

في هذا القول لم تأخذنا براعة الإمام الأدبيّة بمقدار ما تأخذنا عوالمه الانسانيّة، ومدى إدراكه لحقيقة العرب، وبواطن النُّفوس، ووجهة الشعوب

آنذاك. وقد أدرك التخطيط العسكريّ على أتمّ إدراك، وبناه على مقاييس نفسيّة، وعلى مدى ارتباط الامبراطوريّة الإسلاميّة بالدول المجاورة كالرُّوم والحبشة، وعلى مدى إيمان الإمام بالحفاظ على رأس الدولة وقائدها الأول لأنه رمز للعرب والإسلام يتطلّبه الأعداء ويولونه اهتمامهم.

هكذا سلك الإمام. وما كان سلوك من ناوأه؟ وهل أُعطي ما يستحق؟

وجاء في نهج البلاغة: شاور عمر بن الخطاب عليّاً في الخروج بنفسه لغزو الروم. فأشار عليه: (فابعث اليهم رجلاً مجرِّبا، واخفر معه أهل البلاء والنصيحة فان اظهر الله فذلك ما تحبّ، وإنْ تكن الأُخرى كنت ردْءاً للنّاس ومثابة للمسلمين).

تمثّل عليّ في كل حياته بالنبل والكرامة والصَّراحة وإيثار المصلحة العامّة.

يهدف الى الحقيقة، ويلتمس الحقّ، ويسدي النُّصح بتجرُّدٍ كامل.

عرف فضله كلّ الصَّحابة فتغنَّوا بمقاله، وتحدَّثوا بمعارفه، وأكثروا الرِّواية فيه وعنه.

ولكن ما أضرَّ السّياسة العوجاء، وما أشد الملك والسّلطان الجائر على الحقّ والواقع.

فقد ذهب بنو اميّة وبنو العباس بالإمام مذهباً يرتضونه لما هم فيه، ولكن مخطّطهم باء بالخيبة والخسران في جلاء الواقع حيث: (جاء الحقُّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقا).

ونعتوا الإمام بنعوت عجزوا عن إثباتها. وأدرك الناس الحكم الفردي فابتعدوا عنه، واتجهوا وجهة الحقّ وأهله. وجهة من يدافع عن مصالحهم، ويعمل في إطار سعادتهم.

جاء عن ابن أبي الحديد العلاّمة المعتزليّ في شرح نهج البلاغة ج ٣ ص ٢٥٨ وجاء في كنز العمّال ج ٦ ص ٣٩٣.

قال عمر بن الخطاب.

كفّوا عن عليّ بن أبي طالب فإني سمعت رسول الله يقول فيه خصالا لو أنّ

خصلة منها في جميع آل الخطاب كانت أحبّ اليّ ممّا طلعت عليه الشّمس. كنت ذات يوم وأبو بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة مع نفرٍ من أصحاب رسول الله نطلبه، فانتهينا الى باب أُم سلمة فوجدنا علياً متكئا على نجاف الباب (طرفه) فقلنا: أردنا رسول الله (ص) فقال: هو في البيت رويدكم فخرج رسول الله، فسرنا حوله، فاتكأ (ص) على عليّ، وضرب بيده على منكبه، فقال: (أبشر يا عليّ ابن أبي طالب إنّك مخاصم، وإنّك تخصم الناس بسبع لا يجاريك أحد في واحدة منها، أنت أول النّاس إسلاما، وأعلمهم بأيّام الله، وأوفاهم بعهده، وأقسمهم بالسّوية، وأرأفهم بالرعيّة وأعظمهم رزيّة...).

وجاء في الصواعق المحرقة لابن حجر الشافعي ص ١٠٩ بسنده قال عمر تحبّبوا الى الأشراف وتودّدوا واتقوا على أعراضكم من السفلة، واعلموا أنّه لا يقوم شرف إلاّ بولاية عليّ).

لم تكن كثرة الروايات، التي أثبتها الرواة الثّقات عن مختلف المذاهب الإسلاميّة صادرة عفواً عن عمر وهو من ذوي الرأي والعقل والحنكة، ولكن قد أخذ الإمام عليه هواجسه، وملك عليه عواطفه. لأنّ ما أُثر عن عمر في عليّ على كثرته يمتاز بدقّة النّظر، والإندفاع بذكر الحقيقة مع الإعظام والإجلال. مع العلم أنّ عليّاً أصغر منه سناً ومن الرعيّة وعمر خليفة ولو كان العكس لحملنا قول عمر على التقرُّب للسّلطة والسُّلطان. وكانت كلمة عمر مدار رحى الواقع حينما قال: (لو ولّوا الأجلح لحملهم على الجادة) ويقصد بالاجلح عليّاً. فلو قرنت هذه الشهادة بالعمل عليها لما كانت ردّة الجاهليّة للإسلام باميّة ولكن (ما عدا ممّا بدا).

الإمام
في عهد بني أمية:

ولما آلت الخلافة الى بني أُمية في شورى هزيلة محبوكة الحلقات بين ستة فيها مركز الثّقل لعثمان، وليس لباقي المسلمين من مشورةٍ أو رأي. شعرالإمام إذ ذاك بخيبة الأَمل وسوء المنقلب لهذا الدِّين الحنيف. إذ لم يركن بنو أُميَّة إلى إسلام، ولم يؤمنوا بشريعة وعقيدة، ولم يستسيغوا مجتمعاً على صعيد العدل والمساواة، وعلى حكمة الحبِّ والأُخوّة.

ركنت الى عصبيّة جاهليّة حمقاء، ونفوذ شخصيٍّ مقيت، واستغلال عائليٍّ فظيع، وتهتك مكشوف باندفاع أعمى لتثبيت هذه النزعة، وهذه الأَهداف، ولم يبعد عهد المسلمين بالرَّسول، ولم تغب عن عيونهم طلعته، ولم يتلاشَ عن آذانهم صدى صوته. وعليّ في خضمّ هذه الأَحداث، وفي مهبِّ هذه الزوَّابع، وهو الإمام الأمثل، والوصيُّ الأَوحد، والإنسان الكامل يرى ويسمع اندفاع بني أُميَّة إلى تلك الأَهداف، وقد عبّدوا لها طريقهم منذ زمن بعيد.

وعليّ في كل هذه الأَحداث، وفي كل هذه الأَحوال، يشذب غصنه،ويقطع وصله، ويمنع رفده، ويبعد جمعه وأهله وصفوته لم يبق الاّ مع نفسه مثلاً رائعاً لعزّة العقل، وقوَّة الإيمان، ونزعة الحقّ، وحسن التصرّف.

عليّ كائنٌ في نفسه ليس له من الأَمر شيء، وامة إسلاميّة استهوتها عقيدتها فأخذت بها. وطبقة ارستقراطية عاتية وصلت الى ذروة الغنى والإستغلال والإستعلاء. تملك الضياع وتكدّس الذّهب والفضّة على حساب المجتمع الإسلاميّ.

ولو التمسنا ما في بطون الكتب، وأطلنا البحث والإستقصاء، والتمسنا ثقات الرواة لطاف بنا التتبّع الى فضائح لا يتحمّلها مسلم أبدا. ومن أراد معرفة بعض ما استوعبه ذلك العهد فعليه بكتاب عثمان للدكتور طه حسين.

فكيف لعليّ وقد رأى صرحه يهدم، وفيؤه يسلب، ونوره يطفأ، وكيان دينه يدال، وعقيدته تهان. وقد استولى الأُخطبوط الأُمويّ على الرّسالة الإنسانيّة المحمّدية. يريد إيقاف زحفها الإنساني العقيديّ، وبعثها على الصّعيد العسكريّ فحسب ليبسط بها سلطانه على العالمين، وليبعث المسلمين بعيداً.

إنّها لمعصرات الخطوب، ونوازل الدُّهور، ومدلهمات الأَيام.

ولمّا كلّم الإمام عثمان بما آلت اليه الأُمور قال: (إنّ له قرابة ورحماً) فعليه أنْ يقطعهم كل ما بين يديه من مال المسلمين، وليس للمسلمين إلاّ أنْ يدفعوا ضريبة الدّم والمال.

وقد أفاض عليّ الى عمّه العبّاس في ما كان يدركه ويشعر به حسب سير الحوادث وقبل ان ينالَ عثمان الخلافة. (أمّا أني أعلم أنهم سيولون عثمان وليحدثنّ البدع والأَحداث ولئن بقي لأذكرنّك وإن قتل أو مات ليتداولنها بنو اميّة بينهم).

أحاط بنو اميّة ونفر ممّن ارتضوه بالخلافة والإسلام، وبكلّ ما أفاء الله به على المسلمين فصيّروها ملكاً عضوضاً، فكان يحكم العالم الإسلاميّ مروان، ومعاوية، والوليد بن عقبة، وعبد الله بن سرح، والحكم بن العاص، وكلُّهم قد لعنهم الرَّسول.

كان يلتمس عثمان بيت المال بما يشاء ثم يقول (لنأخذ حاجتنا من هذا وإنْ رغمت انوف أقوام)[1] وقد أعطى الحكم عمّه وابنه الحارث ثلاث مئة ألف دينار، وأعطى عبد الله بن خالد الأُموي ثلاث مئة ألف، وأعطى كلّ وافد مع عبد الله بن خالد مئة ألف، وأعطى الزُّبير ست مئة ألف، وأعطى طلحة بن عبيد الله مئة ألف، وسعيد بن العاص مئة ألف. وزوّج بناته الأربعة لأربع من قريش فوهب كل واحد مئة ألف وهكذا حتى إذا وزّع ما في بيت المال على

(١) ص ١٢٠ - عثمان للدكتور طه حسين.

أقربائه وبطانته التمس أموال الصّدقة لإمداد الجيش. وهذا ما منعه منه الشّرع بنصٍّ واضح لا لبس فيه:

(إنّما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلّفة قلوبهم وفي الرِّقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السّبيل فريضة من الله والله عليم حكيم).

وقد أعطى عثمان قيادة دفة الحكم لمروان (طريد رسول الله وعمر وأبي بكر) وأرجع عمّه الحكم بن العاص وقد طرده رسول الله، وولّى الوليد بن عقبة الكوفة مكان سعد بن أبي وقّاص وقد نعت القرآن الوليد بالفسق.

وولّى عبد الله بن سعد وقد نزل في ذمّة القرآن، وأهدر النبيُّ دمه يوم الفتح. وأقطع معاوية الشام والأردن وحمص وفلسطين، وجمع له قيادة الأَجناد الأَربعة وهكذا فلا اريد الإسترسال.

لفّت العالم الإسلاميّ هذه الزَّوبعة العاتية، وهذا الوباء القتّال وبيد السُّلطة المفروض فيها صيانة حقوق النَّاس، وصينانة أحوالهم. ولم يكن لعليٍّ موضع قدم، ولا أثر لمشورة، ولا جدوى لنصيحة، ولا إطاعة لرأي. ولكنّه لم يترك الأَحداث دون أنْ يلتمسها، ولم يتركها تلف المجتمع الإسلامي دون أن يدفع بنفسه في هوجائها عسى أن ينقذ ما يمكنه إنقاذه.

يؤتى بعمّار بن ياسر فيرفع مروان صوته، ويمتد بمخلبه إلى هذا الصَّحابيّ الجليل، وممّن بجهادهم وجهدهم ارتقت بنو اميّة هذا المرقى لا بمروان طريد رسول الله وأبي بكر وعمر. يرفع مروان صوته وبحضرة عثمان: (يا أمير المؤمنين إنّ هذا العبد قد ألّب عليك وإنك إنْ قتلته نكّلت به من وراءه). ويؤتى بأبي ذرّ الغفاريّ فيلتفت عثمان إلى من يحضر مجلسه وفيهم عليّ (أشيروا عليّ في هذا الكذاب إمّا أنْ أضربه، أو أحبسه، أو أقتله) ولم يمهل أحداً بمشورة، أو طلب العفو، أو إقرار القانون، أو إحقاق الشّريعة، وإنّما حدد العقاب على قطب من اقطاب المسلمين دون أنْ يكون لحقّ الدِّفاع الشَّرعيّ من أثرٍ يؤخذ به.

ينحدر الإمام بذكرياته، وشجاعته، وأحزانه إلى رحاب يثرب، وبطاح وروابي الحجاز، إلى صعيد الجهاد المقدَّس، إلى الإيمان الهادف، إلى إشراق العقيدة، وطلعة الرِّسالة.

ينحدر الى الماضي السعيد، والى قيادة الرَّسول، والى جهاده وجهاد المسلمين الأَبرار.

يتذكَّر ويتأمّل اميّة وحربها الدائبة للرَّسول، وأبا سفيان وسوء طويّته وحبكه المؤامرات للإِسلام، وهند ام معاوية وكيف بها وقد نهشت بأسنانها كبد حمزة الطّاهر، وتوشّحت بمحارمه. ومروان طريد الرَّسول، ومن له عند الإِسلام والمسلمين ثارات وثارات.

وهكذا التاريخ يعيد نفسه. ذاك في الجاهلية، وهذا في الإِسلام.

وهكذا النفوس التي استوطنتها العلّة المزمنة لا تبرأ بالدَّواء.

وبعد هذه الذكريات تمتدُّ يد الإِمام فتقذف بحجر يصكُّ فم الباطل، ويهدُّ معالم الظُّلم الأُمويّ، ويدفع بالحق وأَهله عالياً. سمعت رسول الله يقول: (ما أظلّت الخضراء، ولا أقلّت الغبراء، من ذي لهجة أصدق من أبي ذرّ).

هذا قولُ محمّد وهذا قول عثمان الذي تسنّم خلافته.

أحرق عثمان المصاحف، وقضى على باقي القراءات دون أن يستشير كبار الصحابة في أمرٍ خطير كهٰذا ليجتمع أمرهم على مصحف يرتَؤونه ويحتفظون بسائر المصاحف للذِّكرى والمراجعة، وقد ركن إلى زيد بن ثابت وكان في عهد الرسول حدثاً لم تؤهِّله مقدرته أنْ يناط به هذا العمل المهم، وكان عليٌّ قد جمع القرآن حسب تنزيله كما ذكر ذلك ابن شهر آشوب فلم يأخذ به عثمان بل ولم يستشر عليّاً بالأَمر وكان الأفضل أن يناط العمل كلّه بالإمام عليّ.

اشتدَّت معارضة كثير من الصّحابة لهذا التصرُّف، وكان أبرزهم الصَّحابي عبد الله بن مسعود فأمر به عثمان أنْ يخرج من المسجد إخراجاً عنيفاً حتّى كسر ضلعه، واشتدَّت اهانته ممّا حدا ذلك الإمام أنْ يلوم عثمان قائلاً: (تفعل هذا بصاحب رسول الله).(١)

هكذا كان حال كبار المسلمين وقد أسلفت الحديث في حال أعداء المسلمين.

ولمّا أعيا الأَمر عليّاً بادر الى أمثل حجّة، وأروع مقال تتمثّل فيه الكياسة،

---

(١) ص ١٢٠ عثمان للدكتور طه حسين.

والنيابة والنّصيحة بإثارة النّوازع الإنسانيّة العقيديّة والقبيليّة في نفس عثمان ليأخذ به إصلاح أمره وصلاح المجتمع.

ولو القي هذا القول على الصَّخر لأنبت وأعشب.

دخل عليه وبلّغه وما أعظم ما بلغ كما جاء في النَّهج وكما رواه الطبري في تاريخه:

(النَّاس ورائي وقد كلّموني فيك والله ما أدري ما اقول لك. وما أعرف شيئاً تجهله، ولا ادلك على أمرٍ لا تعرفه. إنّك لتعلم ما نعلم، وما سبقناك الى شيء فنخبرك عنه، ولا خلونا بشيء فنبلّغك، وما خصصنا بأمرٍ دونك، وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله (ص)، ونلت صهره.

وما ابن أبي قحافة بأولى بعمل الحقّ منك، ولا ابن الخطّاب بأولى بشيءٍ من الخير منك. وإنّك أقرب إلى رسول الله رحماً. ولقد نلت من صهر رسول الله (ص) ما لم ينالا، ولا سبقناك إلى شيء. فالله الله في نفسك، فإنّك والله ما تبصر من عمى، ولا تعلم من جهل. وإنّ الطريق لواضح بين.

تعلم يا عثمان أنّ أفضل عباد الله عند الله إمامُ عدل هُدي وهدىٰ، وأنّ شرّ الناس عند الله إمام جائر ضلّ وضلّ به. وإني سمعت رسول الله (ص) يقول: «يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر فيلقى في جهنّم[1] »).

هذا قول الإمام فما عسى عثمان ان يجيب، ولم تكن لديه الإرادة التي تدفعه الى مستوى الخلافة، أو تدفعه عن المستوى الذي آل اليه.

وما عساه ان يفعل وليست عنده إلاّ القرابة والأَهل ومن ارتضاه.

ولم يكن بنو امية ليكترثوا بمغبّة هذا الأمر، وهذا التفسُّخ في كيان الحكم الإسلاميّ حيث الطّمع أعمى بصرها وشلّ بصيرتها.

ومن طبيعة بطانة السُّوء أنْ تلحف بالطلب، وتندفع بالإستغلال والتهتُّك ولا يهمُّها إذا ثار النَّاس على الخليفة، وإذا ما ادلهمت الخطوب على الأُمة، ولكنهم لا

---

(١) ص ٧٤ ج ٢ النهج محمد عبده.

يتورَّعون أنْ يكونوا أول من يتنصّل من الوضع، وأوّل من يقذع، ويلهب للثورة والإطاحة بالحكم.

وممّا يؤثر أنّ طلحة استبطن الإثارة، واتّصل بالثوّار، وأظهر امتعاضه من عثمان، وأخذ يجتمع بالثُّوار علناً علّه يحصل على غنم جديد بعد أُفول نجم عثمان وإلاّ فإنّه سيكونون من المتنصّلين من تبعة أعمال عثمان، ومن نتائج حكمه. فسمع بذلك عثمان فاستنجد بعليّ.

ذهب عليّ إلى طلحة فوجد عنده جماعة كبيرة من الثُّوار. فكلّمه واستغرق طويلاً نصحه له ولمّا لم يستجب ذهب الإمام الى بيت المال فقسمه بين الناس مما أحبط مؤامرة طلحة.

ولمّا رأى طلحة أنّ خطّته باءت بالخيبة أتى عثمان معتذراً.

فقال له: لم تجيء تائباً بل مغلوباً.

هذا مثل واحد لبطانة عثمان ممّن أغدق عليهم المال الكثير، وكلّهم على هذه الشاكلة إذ لم تجمعهم صفة عقيديّة. أو مبادىء متبلورة معهودة، إنّما هو الإستغلال فحسب وقد قربت نهايته.

وهذا عليٌّ يدفع وينصح، يثبط الهمم، ويعطِّل الثورة خوفاً من الفتنة ومغبَّتها، وخوفاً على عثمان، وأملاً في إصلاح أمره.

ثم أمر ولديه الحسن والحسين أن يذبا عن عثمان ويحرسا بابه.

ولمّا عرف بحصاره ونفاد الماء لديه أوصله اليه بنفسه، وعثمان يدرك كل ذلك ولكنّه يا للأسف ما كان ليكتفي بدفع نصائح الإمام بعيداً حتى رأى دفع الإمام نفسه بعيداً، وهو الوحيد الذي يذب عنه بتجرُّد. وفي حصاره، وحراجة موقفه يرسل عبد الله بن عبّاس برسالةٍ يسأل الإمام الخروج إلى رزق له بينبع ليقل هتاف الناس باسمه للخلافة، وقد سبق أنْ طلب منه ذلك ثم استصرخه ليأتي الى نجدته، فتأثّر الإمام وقال: (يا ابن عبّاس، ما يريد عثمان إلاّ أن يجعلني جملا ناضحا بالغرب أُقبل وأُدبر. بعث اليّ أن أخرج، ثم بعث إليّ أن أقدم، ثم هو الآن بعث اليّ أن أخرج، والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً).

كلمة ما أبلغها، وما أشدّها بواقع الحال، إذ يقول الإمام يريدني كالجمل الشدود بدلوٍ كبير ليس عليه إلاّ أنْ يندفع رائحاً وراجعاً يستخرج الماء من البئر.

يأمرني مرَّة بالقدوم، وأُخرى بالخروج، وهكذا ولم أكن له إلاّ خيراً، وقد دفعت عنه حتى خشيت أنْ اكون آثما لإصراره على الإساءة ولدفع النّاس عن حقِّهم.

وقد أوضح الإمام فحدَّد الخطب وأسبابه، وأجمل الفتنة، وأعطى الواقع في معنى قتل عثمان بمجمل قوله كما جاء في النَّهج:

(لو أمرت به لكنت قاتلاً، أو نهيت عنه لكنت ناصراً. غير أنّ من نصره لا يستطيع ان يقول خذ له من أنا خير منه. ومن خذله لا يستطيع أنْ يقول نصره من هو خيرٌ منّي. وأنا جامع لكم أمره إستأثر فأساء الأَثرة، وجزعتم فأسأتم الجزع، ولله حكم واقع في المستأثر والجازع).

يستدلُّ من سير الحوادث، ومن مظاهر الأَحوال أنّ الأمر قد وصل في عهد عثمان إلى ما لا يطاق وذلك لتنصُّل السّاسة على اختلاف مشاربهم عن حكمه، وعن نصرته. حتى أقرب النَّاس اليه، وأخصّهم لديه.

كاتب ولاته بالنّصرة له ومنهم معاوية فلم ينصره أحد، وانتفضت عليه عائشة وسامته بأشدّ ضروب التقريع، وجعل طلحة بيته مأوى للمتآمرين يثيرهم ويحثّهم على الإنتفاضة على عثمان. وكان عمرو بن العاص لا يفتأ يثير الناس حتى الرعاة منهم.

وما ذكر لنا التاريخ أن ذب أحد عن عثمان، أو استبسل دونه حتى مروان فقد التمس السّلامة وخلّف عثمان قتيلا وملقى على قارعة الطريق دون أن يدفع عنه او يدفنه.

وهذا ما يحدث دائماً عندما يصل الحكم الى المرحلة الحرجة التي يندفع فيها المجتمع هادفاً لإسقاط الحكم حيث استشرى به الفساد، وأخذه من كل جانب فلا يرى أنصاره الإستمرار بتأييده لأنّ هذا التأييد لم يبن على العقيدة بل على المصالح الخاصّة، فيؤثرون المستقبل، ويلحفون في الإندفاع ضدّ الحكم القائم عسى أن

يدفعوه الى واحد منهم، ليستمرّ استغلالهم، ويعاد دورهم. ولكن تظافرت الأحوال ان تدفعه لأبي الحسنين، فثارت ثائرتهم، وتألبوا جميعا لدفعه عنه فكان ذلك الصِّراع المرُّ القاسيّ.

وهكذا كان الصِّراع ما بين الطبقة الخاصّة بزعامة اميّة، والطبقة العامّة بزعامة بني هاشم.

ترعرعت العامّة في عهد الرَّسول ثم أصابها ما أصابها في عهد عثمان، وانتصرت لكرامتها بالإمام ولكن دسائس الخاصّة ذهبت بذلك الإنتصار. فبرزت طبقتهم بزعامة امية ورهطها. ولكنّ التعاليم الإسلامية هي الإنتصار الدائم للعامة من النّاس، فعليهم أن يفوا النبيّ والإمام حقهما.

علي ومناوءوه

لم يكتب للكرامة الإنسانيّة أن تنمو وتترعرع دون عدلٍ يستوعبها، أو حقٌّ يأخذ بها.

وإذا ما عطف الإنسان على الكرامة الإنسانيّة، واستأثر بها وآثرها، وإذا ما دأب على إحقاق الحقِّ وإزهاق الباطل فإنما يعطف على مثله العليا، على انسانيته، على الأرومة البشريّة الكائنة في هذه المثل لكي يسمو بها وتسمو به، لكي يجني ثمار حياته، وحسن منقلبه، وسلامة عقيدته. فإذا جانب المرء الحقّ في أيّة حال وفي أي زمن فإنّما هو متّبع للباطل، والإنسان يؤخذ بما يتّبع.

فاذا ما درسنا بإلمام وبتجرُّد الأَسباب والدوافع والظُّروف غير الملائمة لحكم الإمام، أحطنا بما يلزمنا من تاريخنا ومن حاضرنا.

واذا ما اتسم البحث بالوجدان والحقيقة أصاب الهدف لأنّ الحقيقة خالدة. وأمّا إذا أردنا أن نترسّم خطى التّسامح في الحقِّ لرفع مستوى الباطل فإنّا قد فرَّطنا في حاضرنا وفي تاريخنا.

وقد يقول بعض الناس بأنَّ ترسّم الحق، والدفاع عنه لعهود غابرة مما يثير حفيظة بعض النّاس، ويشيع التفكُّك الإجتماعيّ. ولكن ذلك ليس من الواقع في شيءٍ لأنّ ثبات الأُمة على واقعها، واجتماعها على أصحاب الحقِّ فيها لهو أجمع لصفوفها، وأقرب لوحدتها، وأجمل لتأريخها.

ولو تصفَّحنا تاريخ العرب بل تاريخ كلِّ الشُّعوب لرأيناها تتّسم بتيارات قد

تأخذها لصالحها أم لطالحها وليس ذلك بمنافٍ لطيب السّمعة ولكن ما يتنافى والحقُّ هو الإصرار على الباطل والدفاع عنه.

والناس على قدر اختلاف أشكالهم اختلفت طبائعهم ونزعاتهم. فمنهم من جبلت نفسه على الرَّحمة وسموّ الذّات يتفانى في الخير، ويتّبع العدل، ويقتدي بمن يتّسم بسمته، وينهج نهجه، وقد رأينا أصحاب عليّ وعترته على هذه الشاكلة فقد ترسّموا خطاه، واهتدوا بهديه. لم يؤثر عنهم ظلم أو مكروه أو استغلال او استئثار. بل هم خلاصة العرب والإسلام. ولم ينسب لهم التاريخ سوءا كما نسب الى غيرهم.

ومن الناس من جبلت نفسه على الشرّ يترسّم الهدم، ويبعث الحسد، ويشيع البغضاء.

ومن النّاس من ليس لديه إلاّ نزوةً يشبعها، او متعة يقضي وطره منها فيتبع من يمليها عليه، ومن يهيّىء له أسبابها.

ومن النّاس من يعشق المظاهر، ويتفانى في سبيلها، يتزلّف السّلطان الجائر بأيَّة وسيلة غير مشروعة ليسترضيه ويظهر به.

ومن النّاس من نشأ في وسط ضاعت مقاييسه، وتدهورت مثله، فاختلطت عليه الامور فلم يتبيّن صالحها من طالحها.

وأمّا العامّة من الناس فلا حول لهم ولا قوّة تأخذهم السّلطة إليها بالجبر والإرهاب أو بتزييف الحقائق وكذب الأَعلام. والنّاس على دين ملوكهم يأخذونهم الى حيث لا يشعرون، ويشيعون بينهم ما يرتضون، والنّاس يكدحون ويمدّون السّلطان بما يريد فهم دائما عون له على أنفسهم.

هكذا تجري الحال في كل سلطة لا ترعى للامة حرمتها.

استطاع اعداء عليّ أن يجمعوا حولهم الأكثرية من النّاس بما لديهم من وسائل وإمكانيّات لقبضهم على الحكم وبعد الإمام عنه، ولاتباعهم كلَّ وسيلة مهما جانبت الحقّ ممّا يتعذر على الإمام ذلك. فهو لا يعرف الكذب والمداهنة، ولا يتملّق الباطل، ولا يؤمن بغير الحقّ، ولا يرى بأن الغاية تبرّر الوساطة. يريد النّاس بصراحة القول، وبسطة الحقّ من حيث هو الخير العام، والعدل الكامل.

أَسباب
المناوأة في عهد الرَّسول:

إبتدأ الرَّسول الدَّعوة، وابتدأ بها يفجّر طاقاته العقليّة الجبّارة. يهزُّ لكل ضلال صرحه، ولكلِّ جهل كيانه، ولكلِّ ظلم أربابه.

إبتدأ بقومه وبعشيرته الأقربين يدعوهم (والرائد لا يكذب أهله). ولّى وجهه شطر قومه، ثم مجتمعه، ثم الناس قاطبة. فكان عليّ المعجز أوّل مجيب لذلك النّداء ولتلك الدّعوة.

أجمع المؤرِّخون والرّواة في حديث الدّار المشهور في تفسير (وأنذر عشيرتك الأقربين) أنْ جمع الرسول بني عبد المطلب في دار أبي طالب وحدّثهم فيما بين يديه ومّما قال: (فمن يجيبني إلى هذا الأمر، ويؤازرني عليه يكن أخي ووصيّي ووزيري ووارثي وخليفتي من بعدي).

فلم يجبه احد، ولم يستجب لندائه منهم سامع.

فقال عليّ: (أنا يا رسول الله أُؤازرك على هذا الأمر).

فقال (ص): (أنت أخي ووصيّي ووزيري ووارثي وخليفتي من بعدي).

هكذا التمس العبقريّ الفذّ خليفته، وهكذا تفتقّت ذهنيّة محمّد (ص) على هذا اليافع العبقرّي وبعد لم يبلغ الحلم والذي أدرك ما لم يدركه شيوخ عبد المطلب، وسادات قريش.

هذا عليّ في صباه ومقتبل عمره وأول شبابه يدرك هذا الحمل الثقيل فيكون له خير خلف لخير سلف.

وهذا الرّسول لو لم ير عليّاً كفؤاً لغضّ عنه نظره، والتمس خليفته من غير بني عبد المطلب او يتأخر بهذا الوعد حتى يجد من يليق بهذه المكانة، ولكنّ محمّداً كشف عن اسرار الحقيقة ما لم يتأتّ لأحد.

فإنّ أعظم معجزة لمحمّد، وأكبر بوادره الإنسانية، وأسدّ مدركاته النبويّة إحاطته علماً بهذا الطفل على حداثة سنّه، ومواكبته له في هذه المسيرة الكبرى.

هكذا ابتدأ عليّ معركة الحياة، معركة الأمل، معركة زعامة الأمة العربيّة والإسلام.

وهكذا ابتدأ المجتمع يتتبّع خطاه، ويلتمس أخباره، وقلّ من الناس من له الشّجاعة للظّهور بالحقّ، ودفع الحسد عن نفسه، والمثول بالتواضع لخير المجموع.

ذبّ عن النبيّ صغيراً، وبات على فراشه ليفديه يافعاً، وحمل الفاطميّات صبيّاً، وجندل الأبطال وهزم الفرسان شاباً. ولولا هذه الشّجاعة والبأس والقوّة والفداء والطّاعة التّامة لما كانت لمحمّد يد تجتثّ الباطل، ولا كفّ تقطع دابر الظّلم.

هذا عليّ في مستهلّ حياته. فهل له ان يكون في منأى عن بغض الشانئين، وكيد الحاسدين، وإثارة الموتورين.

اجتمعت أطراف الفتنة على الرّسول وصحبه من قريب وبعيد، والرسول كالطود الشامخ لا تهزّه الهزاهز، ولا تأخذه الأراجيف.

وهذا أبو سفيان يثير الفتنة تلو الفتنة، ويحرّض ويشيع الأراجيف، وينذر بالويل والثّبور. يجمع العدّة والعدد، ويهيّىء العرب للحرب، والإنتقام من محمّد ومن نفر أعزل استهوته الرسالة فامتلأ قلبه بالإيمان.

لم يكن عليّ إلاّ جندياً يأتمر بأمر الرسول، ويعمل بتوجيه الإسلام، ولكنّ العرب رأت محمّدا بعليّ وعليّاً بمحمّد، ولما لم تكن لديهم الحجج الدامغة، والآراء الواضحة، والسبيل القويم لإيقاف هذا الزحف العقيديّ المقدّس التمسوا سيوفهم حكما، وعواطفهم سبباً للقضاء على هذه الدعوة.

(والله لو وضعوا الشّمس في يمني، والقمر في يساري، على أنْ أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه. ما تركته).

هذا زحف محمّد المقدّس، وهذه قوّته وعزيمتُه.

حرّض المشركون أطفالهم للنّيل من محمّد لئلا تكون لأبي طالب من حجّة. فتحرَّك عليٌّ يساير النّبي وقد ولّى منه الأَطفال الدُّبر باكين لأهلهم، وليس لأهلهم على طفل من حجّة، ولكن بغضه كمن في نفوسهم، وأخذ موقعه في قلوبهم.

أراد المشركون وعلى رأسهم بنو أُميّة قتل النبيّ فرأت عليّاً مكانه فباء مخططهم بالخيبة بفداء ومبيت عليّ، وهذا ما يثير بغضهم لعليّ.

تحدّى قريشاً بأخذ الفاطميّات الى المدينة في رائعة النّهار ورغم أُنوفهم، ثم جندل (جناحا) مولى حرب بن اميّة لمّا أتبعه مع سبعة فرسان لإيقافه عن مهمّته بالوصول إلى النّبي مع الفاطميّات.

آخى النبيّ بين الأَصحاب، واستخلص عليّاً لاخوته، وهذا ما يثير الحسد لأنه عمل كبير له أثره، وله وقعة في الأَوساط الإسلاميّة مّما يدل على أنه لا يوجد من تصحّ به المقارنة بالنبي إلاّ عليّ.

وأمّا في مواقع النّبي وحروبه كبدر وأُحد والخندق بل في كل وقعة. كانت لعليّ المواقف الحاسمة في تقرير مصير المسلمين.

وإذا التمسنا ما انزل في عليّ في القرآن، وما أُثر فيه عن النبيّ من حديث فهو كثير وكثير باجماع المسلمين.

وتر عليّ الجاهلية في مبادئها وعاداتها.
والمشركين في آلهتهم وأصنامهم وتعبُّدهم.
والخاصّة في مكانتهم واستعلائهم واستغلالهم.
وتر ذوي النُّفوس الضعيفة فيما أُوتي من بسطة في العلم والجسم.

وأثار حسد الكثيرين في سبقه وإدراكه وقربه من الرَّسول والرِّسالة، واستيعابه لكثيرٍ مّما لم يصل اليه سواه.

هكذا اجتمع المبغضون لعليّ في عهده الأَول والأمر والنهي بيد النبيّ، والمشركون قد غُلبوا على أمرهم، ومحمّد يدرك عليّاً، وعليّ لمحمَّد وللمسلمين، وليس لبغضاء أن تظهر على صعيد العمل، وإنْ ظهرت على صعيد القول. والحكم متّسم

بعدالته، وللأفضل المقام الأفضل، وعليّ يدفع عن هذا الأمر بقوّته وبسالته وشجاعته.

عليٌّ يدفع المكروه عن ذوي البغضاء بنفسه، وبحدِّ سيفه. وليس من الحكمة لذوي النُّفوس الضعيفة إبعاد الذائد، وإقصاء المدافع في وقت ليس له فيه من غنم، وليس لهم كذلك ومع هذه الحال لو تمكّنوا لفعلوا.

وأمّا المشركون فلا حول لهم ولا قوّة، وقد نال منهم الإمام كثيراً، وبقيت الضَّغناء عالقة في نفوسهم، والثارات متأجّجة في هواجسهم، ولم يصدِّقوا إسلامهم حتى يدفعهم بعيداً عمّا انطبعوا به في جاهليَّتهم. واجتمعت تحت راية الإسلام عصبة أخذها المسلمون عنوة، وبحدِّ السَّيف، وبالبأس والقوَّة. فاستسلمت وما حسن إسلامُها، وحلمت بالغنم والخير الوافد وما آمنت، وقد قيل إنّ أبا سفيان رأى من المسلمين إغضاءً عن مجالسته، وإيثاراً لمفارقته فشكا أمره الى النّبي وطلب اليه حظوة بأن يجعل معاوية من كتّابه ليرفع عنه ما لحق به.

كان أبو سفيان وولده معاوية ومروان وعبد الله بن أبي سرح والوليد بن عقبة وكثير من المشركين قد أظهروا الإسلام خشيةً، ولم يحسنوا هضمه، وكان عليّ واترهم، وقاتل صناديدهم، وليس لهم من قوّة العقيدة الإسلاميّة ما يدفع عن قلوبهم تلك البغضاء فالتمسوا عليّاً في كيدهم والنّيل منه باسم الإسلام هذه المرَّة وهو أمر لأشدّ من سابقه. فالمشرك أقلّ وقعاً من المنافق. وقد ذكر الدكتور النشّار استاذ الفلسفة الإسلاميّة في جامعة الإسكندرية في كتابه (نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام) ج ٢ ص ٢٢٨ ما نصه (كره العثمانية والامويّة الإسلام أشدّ الكراهية، وامتلأت صدورهم بالحقد الدَّفين نحو رسول الله وآله وأصحابه).

وهذا ما دعا الإمام الى أن يدعو الله بما امتلأت به نفسه كما ذكر ذلك العلامة المعتزليّ ضمن ألف كلمة ألحقها في النهج: (اللّهم إني استعديك على قريش فإنّهم أضمروا لرسول الله (ص) ضروبا من الغدر والشرّ فعجزوا عنها، وحلت بينهم وبينها، فكانت الوجبة بي، والدائرة عليّ، اللهم احفظ حسناً وحسيناً...).

ولنلحق بما أسلفنا ممّا لدينا من عرف التاريخ من عبر بأنّ الثورات ذات المبادىء لا تستكمل نموّها، وتأخذ حقيقتها، وتتّجه وجهتها إلاّ في جيلٍ نشأ فيها،

وتشرَّبت نفسه منذ طفولته بمبادئها، وإلاّ فإنّ الجيل المواكب لها قد تأخذه اليها كثير من العوامل غير العقيديّة - كبني امية - وعند اختلاف الظُّروف قد تثور به رواسب نفسه القديمة، وتأخذه إلى نزواته دون مبدئه فلا يسلم المبدأ إلاّ بيد قويّة نشأت فيه منه، لا بيدٍ نشأت على حربه، وقامت على بغضائه ثم استسلمت بالقوَّة.

وعليٌّ بالطبع لم تكن لديه تلك الرواسب، إذ نشأ في صفاء التيّار الإسلاميّ بل هو التيّار المنحدر من شموخ العقيدة، وهو الظل النازل من سحب النبوّة. فلم يعرف غير الإسلام أحقّ بالإيمان، ولم يؤمن بغير الإسلام، وكان أمثل ذائد عنه، وأرفع رائد له.

فالعقيدة دائماً وأبداً لا تستجمع معالمها، وتطمئن إلى أسباب انتشارها إلاّ بزعيمٍ نشأ منها وفيها وإليها.

وهذا ما طمأن الرَّسول إلى التلميح، ثم التَّصريح، ثم الشرط، ثم الإعلان على مرأى ومسمع من جلّ المسلمين[1] وعلى ذلك فلم يأخذ عليٌّ الصدارة في عهد الرَّسول فحسب بل استحقها بعده. وهذا ما حرَّك كثيراً من المسلمين للعمل جديّاً على إقصائه. وليس لعليٍّ إلا أَنْ يلتمس السَّلامة للإسلام، والنجاح لهذه الثورة الفتية.

هذا خطب له الصّدارة في ما لحق الإسلام من أحداث جسام، ولو تمّ لكان الإسلام على غير حاله، لكان أُمة واحدة ينشر لواءه على الكرة الأرضيّة جميعها. ولتسنّم المجتمع البشريّ مبادئ الإسلام التقدميّة منذ ذلك الزمن، ولقطع فيها مراحل مهمّة في مدنيّته.

فلم يكن بدٌّ من الإستسلام لنبيّ غلبهم على أمرهم. ولم يكن بدٌّ من عدم الإستسلام لوصيٍّ وخليفة باسم الإسلام غلبوه على أمره.

---

(١) كتاب الغدير - للاميني: روى حديث الغدير من الصحابة (١١٠) صحابيا. ومن التابعين (٨٤) ومن العلماء من ابتداء القرن الثاني حتى القرن الرابع عشر (٣٦٠). واما مصادر الآيات ف (٧٦) مصدرا. واما بيعة المسلمين الحضور الذين قاربوا المئة ألف وفي مقدمتهم الشيخان (أبو بكر وعمر) فعن ستين مصدرا. هذا ما وصل اليه الاميني. وكلهم من أهل السنة والجماعة.

وإذا ذهبت إلى التلميح في هذا الموضوع إنّما أردت تنزيه النبي مّما قد يلحق به من ترك أمر المسلمين تتقاذفه الزّوابع، وتأخذ به المنازعات، إذا لم يضع له تشريعاً واضحاً. فلو أرادها شورى لبعثها في زمانه، وإذا كانت ثابتة بوصيّة فلم يؤخذ بها من بعده، ولو أرادها ولاية شرعيّة كولاية النبوّة ليس فيها من شورى لزمه التصريح وقد ثبت ذلك وما عداه فإنما هو تفريط في أمر المسلمين. وحاش لنبيّ على هذا المستوى الرفيع من حسن التدّبر أنْ لا يعير نظره لقضية أوّليّة عمل بها من سلف على صعيد النبوّة والسّلطان.

مناوأته بعد الرسول:

ذهب النبيُّ للقاء ربّه، وجيش المسلمين الموجه لفتح الشّام بلغ المئة ألف بقيادة اسامة فلم يكن للفتح من توجيه وتجهيز فقد وضع النبيُّ اسسه، وقد مضى المسلمون في ما رسمه النّبي، وليس لحاطب من غنم في هذا الفتح من أثر يعتدّ به.

ذهب النبيُّ الذي ما كان يبارحه الإمام في حرب من حروبه، أو غزوة من غزواته، ولكن من خلف الرَّسول لم يترك لعليّ أيّة مساهمة فعليّة. فلم تسند اليه ولاية، ولا قيادة، ولا أيّ مركز ذي بال. بل ولم يسند إلى بني هاشم وهم عترة النّبي، وأهلُ الفداء ما أُسند لبني أُميّة.

كانت رسالة الإمام على عهد الرَّسول رسالة الجندي المخلص، المؤمن بكفاحه، والقائد المظفّر في حكومة نبيّه، وحكيم عقيدته. وأمّا بعد وفاة النبيّ فيقتضي للشّريعة النظر والإجتهاد. ولا يوجد من ينازعه هذا المقام، ولم يذكر لنا التاريخ قطّ أن سأل عليّ أحداً في أمر أعضل عليه. وقد افتقر اليه أجل الصّحابة، وأكثرهم تعرّفا للشريعة وإحاطة بها على حداثة سنّه، وقلّة عمره.

وإذا لم تكن للإمام ولاية أو قيادة، فكانت منه المشورة والنُّصح والإرشاد في مجالس الخلفاء، أو على قارعة الطريق. وحينذاك ابتدأت مبادئه وآراؤه تأخذ مكانتها، وهذا ما لا يرضي المنافقين، ولا يدعهم أحراراً، وهم يريدون القضاء على مبادئه دون القضاء عليه، لاحتياجهم إليه في ما يعضل عليهم. ثم لديهم

القناعة التّامة في زهده بالسُّلطة والحكم[1].

وأمّا اميّة فكانت تبني وتعمل بوسائل ليست إسلاميّة بل هي سياسة ذات مرامٍ تسلُّطيَّة لأمرٍ بعيد الأثر وطيد الأمل حيث كان لهم المنطلق الأشمّ وهو الشّام والاردن.

ولّى عمر معاوية على دمشق، وأخاه يزيد بن أبي سفيان على الاردن، ولمّا توفي يزيد أضاف عمر ولاية يزيد إلى معاوية فمات عمر ومعاوية في هذين المصرين. ولمّا ولي الأمر عثمان أقره وأضاف اليه بعد سنة ولاية فلسطين، وبعد فترة قصيرة أضاف اليه ولاية حمص، فاصبحت لديه أربعة أمصار مع أربعة اجناد. أعظم قوّة في الخلافة الإسلاميَّة، وبذلك يستطيع ان يحتلّ مركز الخلافة، وأن يفرض إرادته، وفعلاً كان عثمان لا يردُّ له طلباً، وهذا ما يدعونا إلى التفكير بوجود مؤامرة على بني هاشم منذ صدر الإسلام، فلماذا يعطى معاوية هذا الملك الشاسع ويترك أفضل الصّحابة، وأبرّهم بالإسلام بلا إسهامٍ فعليّ.

يذهب معاوية بهذا الملك الشاسع مذهباً ذا نزعة فرديّة، ويبقى عليّ وبنو هاشم قاطبةً مأخوذا على أمرهم، محكوماً على وجهتهم بعد تلك الشّهادات التي اثبتها القاصي والدانيّ في حقّ الإمام، ومدى علمه وشجاعته، وحسن تدبيره وعظيم كياسته، وكبير بلائه في بناء صرح الإسلام الشامخ.

هكذا كان إقرارهم بإسلامهم، وولايتهم نبيّهم، ووفاؤهم لبني هاشم الذين بعثوا هذه الامة هذا المبعث العظيم. وأطلقوا هذه الدعوة التي أوصلت الحضارات القديمة بالحاضرة وفتحت للبشريّة آفاقا من المعرفة ما كانت لتحلم بها.

وما زلنا نتخطّى الإسلام، ونكيد بمحمّد وأهله وأبر أصحابه.

وإذا أردنا استنطاق الحقيقة فإنّ الإمام ولم يدفن الرّسول بعد أضحى القائد

---

(١) ذكر الدكتور النشار في كتابه (نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام) في الفصل الرابع ص ٣٨ ما نصه (وبرغم ما قام به الامويون من دعاية، وما اعلنه النواصب من عداوة فقد احتل ابن عم الرسول وصهره في عقائد أهل السنة والجماعة المكان الاول في الحياة الروحية للمسلمين، رفعه أهل السنة والجماعة على جميع الصحابة بلا استثناء روحيا على مقام كل من أبي بكر وعمر).

الأَمثل للمعارضة النبيلة السليمة، فلم يكن الإمام مع الخلفاء في اجتهادهم، ولم يكن عليهم في ما يسيء اليهم، إلاّ أنّه في نظر كثير من أوائل المسلمين وكبارهم أولى بالأمر من سواه، وهذا ما وضعه على رأس المعارضة على أيّة حال.

وإنّ هذه المعارضة لهي أنبل معارضة عرفها الإنسان ممّا أعطت للإسلام خيراً كثيراً.

ثم إنّ آراء الإمام ومبادِئه، وعدالة أحكامه، وصدق إيمانه ممّا جعله المرجع الأَعلى لذوي الرأي والحنكة، وقبلة لأَهل الحديث والسنّة، وهذا ما يثير المناوئين له، ويشدُّ في عزمهم.

كانت آراء الإمام منطلقاً جذّاباً للعامّة من الناس لا تبقي للسُّلطة أي سبيل للإستغلال، وأي منطلق للإستعباد فإذا ارتضى ذلك من الإمام عهد أبي بكر وعمر فلم يرتضه عهد اميّة، ولم تستسغه الطبقة الخاصّة في ذلك العهد، وقد أخذت بالامة من مختلف جهاتها، وبعثت الإستغلال في شتّى شعابها.

أتى رسول الله بالعدل وبعث به التوحيد، ولو بعث التوحيد مجرّداً لتقبلته قريش لأنه لا يتعدّى أن يكون قولاً في اللسان، ولكنْ بالتوحيد افتقر الجميع لربّ واحد يأخذهم للعدل أخذ عزيزٍ مقتدر.

وأمّا الأعمال التعبديّة فهي دلائل عمليّة على العدالة الإجتماعية. فالصَّوم واحد به يلتزم المسلمون غنيّهم وفقيرهم، ليشعرهم بوحدة الجوع، والصَّلاة واحدة فهي تشذب عواطف المرء الإستعلائيَّة، والحجُّ واحد وبه يتجرّد المرء من مظاهره ممّا يشعره بوحدته البشريَّة مجرّداً من ملابسه، موحّداً في مناسك الحجّ، فيلتزم به النّاس جميعهم من أرفعهم إلى أقلّهم، وعليهم أن يؤدوا العبادات سواسية، فهم سواء، وليس لمظاهر الحياة من أثر، وليس للأناقة من وقع.

وأمّا موضوع الطَّبقة المتموّلة فعليها إقرار التكافل الإجتماعيّ (والذّين يكنزون الذّهب والفضّة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذابٍ أليم) (ومن اضطرَّ غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه).

فإذا درسنا موضوع الإمام فهو موضوع الإسلام. موضوع العدالة الإجتماعيّة.

فلم يؤثر عن عليّ وأصحابه ما أثر عن غيرهم من امتلاك الضّياع، وتكديس الأموال، واستغلال النُفوذ. بل كانوا خير مثلٍ لروح الإسلام وحقيقته.

ذهب عليٌّ وعترته وأصحابه مذهباً إسلامياً صرفاً كسلمان الفارسيّ وعمّار بن ياسر وأبي ذرّ الغفاري وحذيفة وكميل والمقداد وأضرابهم. قد تجرَّدوا للمصلحة العامّة وبقيت هذه السّنة سارية في كل موالٍ للإمام، وآخذٍ بنهجه. (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصه).

وهكذا فإنّ آراء الإمام متمشّية وسجيّته، متّفقة وعقيدته، فهو القائل (ما رأيت نعمةً موفورةً إلاّ وإلى جانبها حقٌّ مضيع) فلم يكن عليّ ليواكب الخاصّة في آرائهم، ولم يلتق وهذه الطبقة في أيّة صفة من صفاتهم الخاصّة بهم، وإنّما نعتهم بما هم فيه فشعروا بالإساءة إليهم لأنّ العدل حسب عرفهم حريَّتهم في النيل من مغانمهم، وأن يسير المجتمع طوع إرادتهم.

ومما يروى عنه في عهد عمر بن الخطاب (رض) أنّ غلماناً لحاطب بن أبي بلتعة سرقوا ناقة لرجل من مزينة فأتوه (أي عمر) بهم، ولمّا استنطقهم أقروا بما اقترفوا فأمر بقطع أيديهم، وكان عليٌّ حاضر المجلس، فاستشاره عمر، فأبى عليه ذلك مبيّنا له بأنّ حالهم يختلف عن سواهم لما هم فيه من ضرورة وذكّره بالآية الكريمة: (فمن اضطر غير باغٍ ولا عاد فلا إثم عليه، إنّ الله غفور رحيم) وآنذاك عدل عمر ابن الخطاب عن حكمه.

وسُمع عليّ بن ابي طالب ينادي بسيفه:

(من يشتري مني سيفي هذا فلو كان عندي ثمن أزار ما بعته).

وكان يعمل طول الليل ليسقي بستان يهودي في أُجرة قدرها ثلاثة دراهم ليشتري بها ثوباً يستر جسمه.

فلم يضع طول حياته لبنة على لبنه، ولم يملك الا ما يسد رمقه، ويستر جسمه، ولم يدَّخر من يومٍ لآخر.

فهل لامّة فيها هذا الإنسان تدرس مبادئه وآراءه ثم ترتضي لخلفاء وامراء بني اميّة وبني العبّاس أو لأيٍّ ملكٍ أو سلطان استغلاله واستعباده وطغيانه؟.

وهل يقنع المؤمنون المخلصون بغير الإمام أميراً عليهم وهو القائل في كتاب له إلى عثمان بن حنيف.

(لو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القزّ، ولكن هيهات أن يغلبني هواي، او يقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، ولعلّ في الحجاز، أو في اليمامة من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى، وأكباد حرّى، أو أكون كما قال القائل:

وحسبك داء أن تبيت ببطنه — وحولك أكباد تحنّ الى القدّ

أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا اشاركهم في مكاره الدَّهر).

لا يريد أن يشاركهم بمباهج الدَّهر بل مكارهه، ويريد من اولي الأمر أن يقتدوا به.

إنّه لحمل ثقيل لا يتحمّله سواك وسوى الصَّفوة من أتباعك.

قاتل الله الأحوال غير المواتية، وقاتل الإنسان الجائر، وقاتل الباطل الذي أخذ على هذا الإمام العبقريّ الفذّ كلَّ أسباب الحياة. فلم يدعه إلاّ في خضمّ زوبعة عاتية هائجة، وحروبٍ طاحنة، وأحوالٍ متلاحقة غير مؤاتية.

وكيف بهؤلاء الرؤوس العاطلة التي لا ترعى حقّاً ولا ذمّةً أن ترعى للمسلمين حقّاً وذمة؟

وكيف بهذه العلوج المتعطّشة لجمع الأَموال، واستغلال الأحوال أن تقف مكتوفة الأيدي وقد آن قطفها، واستحق قطعها، وبيد الإمام أصبح منجل الحقيقة، وسيف العدالة، وقوّة السّلطان.

بيد الإمام الوحي والتنزيل والشريعة والسّنة فله ان يقرع الطُّغاة، ويهدَّ كيانهم بكلِّ الأسباب الدنيويّة والأُخرويّة، المعنوية والماديّة، وهو القائل حيث لا محيص من عدله.

(لو اعطيت الاقاليم السَّبعة بما تحت أفلاكها على أن اعصي الله في نملة أسلبها لبّ شعيرة ما فعلت). هذا عليّ، وهذه عدالته المطلقة، ولنضرب مثلاً واحداً في من سار على سيرته واهتدى بهديه وهو أبو ذرّ الغفاري حينما يخاطب معاوية في ولايته

فيقول: (اتخذتم ستور الحرير، ونضائد الديباج، وألفتم الإضطجاع على الصّوف الاذربيّ، وكان رسول الله ينام على الحصير، واختلف عليكم بألوان الطعام، وكان رسول الله لا يشبع من خبز الشعير).

هكذا يحاسب أتباع عليّ الأمراء والحكّام، وهذه سنة عليّ في قومه. سنة التجرّد للمصلحة العامة.

ولنذكر بعض من ناصب عليّاً العداء ليكونوا لنا عبرة.

كان مروان - طريد رسول الله وطريد أبي بكر وعمر - القلب النابض للخلافة الإسلاميّة، والمطلق السُّلطان في الأمر والنّهي في عهد خليفة المفروض فيه أن يسير على نهج من سبقه كما عاهد على ذلك. تسلب فاطمة بنت الرسول (فدكا)[1]، فتعطى الى مروان ليقضي بها وطره، ويترع بها كأسه.

وتفتح أرمينية بدماء المسلمين وجهدهم فيأخذ الخمس كله مروان.

ويعطى عبد الله بن سرح - الذي أهدر النبي دمه يوم الفتح ونزل في ذمه قرآنٌ - ما في حيازة المسلمين من وارد افريقيا (من مصر حتى طنجة) يوزّعه بين الفسق والفجور، وبين الخمر والقيان، وبناء القصور وامتلاك الضّياع.

وكانت غلة طلحة بن عبد الله تزيد على الألف دينار يوميّاً من العراق.

وكان الزبير بن العوام يملك ألف عبد وألف أمة وله القصور والضّياع في شتّى الأمصار. وأما ملكيته من الذهب والفضة فتنوء بحملها الجمال.

وكان لعبد الرحمن بن عوف في كلّ مربط مئة فرس، وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم مع ثلاثة ملايين من الدنانير.

وأمّا معاوية فله أربع ولايات يستنزفها فيلعقها كما يلعق الوحش فريسته، وقد تمثل بإسراف القياصرة والأكاسرة.

هؤلاء واضرابهم كثير ممن استنزفوا المسلمين أموالهم ودماءهم وعقيدتهم.

وهكذا يصبح الإسلام الذي بناه عليّ بسيفه، وبتضحيته وتضحية أقطاب بني

(١) جورج جرداق - صوت العدالة.

هاشم والصّحابة الأبرار.

ذلك الإسلام الذي ملك على الإمام جوارحه وهواجسه. يراه وقد نهشته هذه الطُّغمة المنحرفة والتي لم يكن لها سابقة تذكر، ولا لاحقة تحمد. لم تكترث بعقيدة ولم تعبأ بالمجتمع.

وهكذا، كل يرى الناس حسب ما هو مركوز فيه، ويعادي ما ليس فيه. ينظرهم عليٌّ بما هم فيه لصوصاً سارقين فلا بد أنْ يرجع للعامّة حقوقهم. وإلاّ فيدفع هؤلاء عنهم.

ويروه وافدا يريد رجع ما سلبوه إلى أهله على أقلِّ تقدير، وأسهل حساب اذا لم يأخذهم بما اقترفت أيديهم على الامة والإسلام. وهذا ما لا يرتضونه.

وآنذاك تقابل الحق والباطل وجهاً لوجه وعلى هذا فلا بدّ من التصادم. وذلك حسب طبيعة الأَشياء.

أتت الامّة علياً تلتمسه الخلافة والأخذ بيد الإسلام.

وأوجبت الشّريعة عليه خوض المعركة لوجود النّاصر.

ودفعه الحقّ للذّود عنه.

فامتنع عليه الرَّفض مع التماسه له. فأتى الحكم مكرهاً.

فهل والحالة هذه يمكن لعليّ أنْ يداهن في البَّاطل، ويبقي هؤلاء على ما هم عليه؟

وهل لتلك النُّفوس القدرة على الإبتعاد عن غيِّها، والإستسلام للحقِّ والعدل؟

ومع ذلك فقد جرّب الإمام بعضهم كزياد وغيره فأعياه الإصلاح. فلا يمكن لذي عقل أنْ لا يقرّ علياً على عدله مهما تكن النتائج.

ولا يمكن لذي عقل أنْ يقرّ الظّالمَ على ظلمه، وصاحب الباطل على باطله.

وليس الملك والسلطان بذي أثر لدى الإمام، بل العدل عنده أسمى منزلة، وأرفع قدراً، وهذا ما يحتّمه العقل والمنطق.

سنّ عليٌّ للرعيّة طريقاً سوياً وعته الامة ولكنّها كانت مغلوبة على أمرها. وأدركه الإسلام ولكنّه كان مغلوباً على حقِّه.

نال بنو العبّاس من عليّ وآله كثيراً حتى أجهروا في العداء وأجبروا الرعيّة عليه، فإذا ارتسمت الحزازات القبيليّة على بني أُميّة، ورجعت بهم جاهليّتهم فما بال بني العبّاس وقد عاصر جدّهم الأكبر علياً، وكان من أخلص الناس اليه، وكان ابنه عبد الله من أبرز المشايعين لعليّ، وأكثر المناصرين له، وأقرب الناس اليه. ولكنّ الحقيقة أجملها مروان كما جاء عن الدارقطني في كتاب النصائح الكافية لمن يتولّى معاوية لابن عقيل الشافعي ص ١٠٨:

قال مروان (ما كان أحد أدفع عن عثمان من عليّ).

فقيل له: ما لكم تسبّونه على المنابر؟

قال: إنّه لا يستقيم لنا الأمر إلاّ بذلك.

وقد رأيت في مجلّة العربي الكويتيّة طريفة لطيفة وهي أنَّ هشام بن عبد الملك بعث إلى سليمان بن مهران المشهور بالأعمش وهو من أجل التابعين. أن اكتب لي مناقب الخليفة عثمان بن عفان ومساوىء عليّ بن أبي طالب.

فأخذ القرطاس من الرَّسول وأدخله في فم شاةٍ فلاكته، ثم قال له هذا جوابه.

وختاماً ولكلِّ حديثٍ دلالته، وللإستدلال أذكر نتفاً عابرة عن أوّل مشرِّع لسب الإمام عليّ بن أبي طالب، وأول من أمر بالجهر به ليعتبر من يريد أن يعتبر.

معاوية:

قال الحسن البصريُّ رحمه الله:

(أربع خصال في معاوية لو لم تكن فيه إلاّ واحدة منها لكانت موبقة.

انتزاؤه على هذه الامة بالسّيف. واستخلافه من بعده سكّيراً خمّيراً. وادعاؤه زياداً وقد قال رسول الله (ص) (الولد للفراش وللعاهر الحجر). وقتله حجراً وأصحاب حجر)[1].

وأقول لو اكتفى بتلك الاربع خصال لهان الأَمر، ولكنّه قضى على الحسن شبل عليّ، وسليل محمّد، وسيّد الشباب بالسّم. وقضى على مالك الأشتر بالسّم. وعلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بالسّم. وعلى محمّد بن أبي بكر بالقتل والحرق. وأمثال هؤلاء كثير.

وهكذا يعامل الأَبطال من رجال المسلمين ولكنّه يتصاغر وأيّ تصاغر أمام وافد عليه من ورائه عشيرته تحميه أو قوّة تقيه. وهذه سنّة الحاكم الجائر المتطاول على الإنسانيّة، الرعديد في مواقف القوّة.

دخل شريك بن الأعور على معاوية وهو يختال في مشيته فقال له معاوية. (والله إنّك لشريك وليس لله من شريك، وإنك ابن الأعور والصحيح خير من الأعور،

---

(١) حجر بن عدي بن حاتم الطائي انكر على والي الكوفة لعن الامام علي والبراءة منه. وعلى أثر ذلك استقدمه معاوية الى الشام، وقتله مع أصحابه شر قتلة. ٦ ج ١٤١، ١٤٤ ص الطبري.

وإنك لذميم والوسيم خير من الذميم. فم سوّدك قومك).

فقال له شريك: (والله إنّك معاوية وما معاوية إلاّ كلبة عوت فاستعوت فسمّيت معوية، وإنك ابن حرب والسلم خيرٌ من الحرب، وإنّك ابن صخر والسَّهل خير من الصّخر، وإنّك ابن أُميّة وما أُميّة إلاّ أمة صغّرت فسميّت أُميَّة).

هذا نص ما قرأته في مجلة العربي الكويتية.

وذكر العقاد في كتابه (معاوية) ص ٨٤.

دخل خريم بن فاتك على معاوية مشمّراً مئزره فقال له: (لو كانت هاتان الساقان لامرأة؟).

فأجابه خريم: (في مثل عجيزتك يا أمير المؤمنين) وكان معاوية عظيم الإليتين.

أليس يكون من الخطب الجلل، ومن دواهي القدر، أن يتسنم ذرا العروبة والإسلام رجلٍ يتطاحن وبهذه الصورة مع أحد رعيته، مما يأباها أقلّ النُّفوس، وأوطؤها قدراً ومنزلة.

وممّا لا مراء فيه ولا جدل أنّ عليه وزر الفريقين في صفّين ومصر واليمن والحجاز، وذلك أنّه قد أجمع الفقهاء في الحجاز والعراق. من فريقي أهل الحديث والرأي. ومنهم مالك والشّافعي وأبو حنيفة والأوزاعي والجمهور الأَعظم من المتكلّمين أنّ علياً مصيب في قتاله والّذين قاتلوه جميعاً ظالمون[1].

إتفق فقهاء المذاهب الأربعة على جواز تقلّد القضاء من السلطان الجائر، وكلّهم استدل على جواز ذلك بتقلّد الصحابة (رض) القضاء من معاوية بن أبي سفيان. وكتبهم شاهدة على ذلك.

وقد ذكر ابن قتيبة في كتاب الإمامة: أنْ طلب عثمان من معاوية النُّصح في أمره، فأشار عليه بقتل عليّ والزُّبير وطلحة[2].

هكذا يفكر السياسيّ غير الشّريف لأنّه يدرك لما لهؤلاء من أثر فيما لو قبضت يد المنون على روح عثمان، وهو يريدها لنفسه ملكاً، واستغلالاً، واستعباداً للرعيّة

(١) ص ٥١ النصائح الكافية لابن عقيل الشافعي.

(٢) ص ٥٤ النصائح الكافية لابن عقيل الشافعي.

والمجتمع. وكان هذا أُسلوبه عندما أخذ بيده رقاب المسلمين، وتسلّم قيادتهم.

أخرج الزبير بن بكّار في الموفقيات عن المطرف بن المغيرة بن شعبة ما مختصره[1].

قال: كان أبي يجتمع بمعاوية ثم يأتيني فيكثر في المدح. وفي ليلة أمسك والدي عن العشاء مغتمّاً فسألته عن سبب ذلك.

فقال: يا بني جئت من أكفر الناس وأخبثهم، فقد خلوت به وقلت له: (قد بلغت سنّا يا أمير المؤمنين فلو أظهرت عدلاً، وبسطت خيراً، فقد كبرت، ولو نظرت الى إخوتك من بني هاشم...).

فقال: هيهات هيهات أي ذكر أرجو بقاءه.

ملك أخو تيم فعدل وفعل ما فعل فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلاّ أنْ يقول قائل: أبو بكر.

ثم ملك أخو عديّ فما عدا أنْ هلك حتى هلك ذكره، إلاّ ان يقول قائل: عمر.

وإنّ ابن أبي كبشة ليصاح به كل يوم خمس مرات أشهد أن محمّداً رسول الله.
فأيّ عملٍ يبقى، وأيُّ ذكر يدوم بعد هذا، لا أبا لك، لا والله إلاّ دفنا دفنا.

هذا معاوية في ضحالة تفكيره، وعقم تصوُّره، وشدَّة بغضائه، وأصالة شركه، وحقائق تجاهله.

فلم يدركها نبوّة بالرسول، وإنْ لم يؤمن بها فلم يدركها قوّةً في إرادة، وعزماً في تحقيق، وإدراكاً في عمل، وبسطة في العلم والعقل، وطاقات هائلة جبّارة لا تعرف الكلل، ولا يدركها الملل.

ذلك محمّد الرَّجل الذي ساخت الجبال أمام قوّة اندفاعه، وتزلزلت العروش في تحرُّك معالمه، وتهدَّمت حصون الشِّرك أمام عزَّة إيمانه، وانطلقت العدالة الإجتماعية في بسطة أحكامه.

فهو ملك حيث لا تملُّك، وسلطان حيث لا تسلُّط.

---

(١) ص ١١٧ - ١١٨ النصائح الكافية لابن عقيل الشافعي.

خلق أمة، وأقام شرعة، وبسط حقّاً وعدلاً.

فما كان أخو تيم وأخو عديّ، ولا الأمة العربيّة، ولا الأمة الإسلاميّة، إلاّ به تستضيء، وبنور هديه تهتدي.

وما بنو أميّة وبنو العبّاس إلاّ كجراد يطير في أمّ الصّحراء، يلظيه العطش، ويلهبه الحرّ.

وما العرب إلاّ موجة سادرة في رحاب الصّحراء، تنزعها حياتها من وجودها، فتلقيها في صراع قبيليّ مرير، لا حول لهم ولا قوّة على جمع شملهم، وبعث وحدتهم.

فما كانت قريش وبنو أميّة وبنو العبّاس، وما كان العرب يتمثّلون بهذا الوجود الباذخ، لولا الثورة المحمّدية، والنفحة العلويّة.

ولكن كما قال الإمام: (قيمة كل امرىءٍ ما يحسن). (المرء مخبوء تحت طيّ لسانه لا طليسانه).

وجاء في النّصائح الكافية لابن عقيل الشافعيّ.

ذكر ابن حجر بسنده عن رجال ثقات: خطب معاوية الجمعة فقال (إنّما المال مالنا، والفيء فيئنا، فمن شئنا أعطيناه، ومن شئنا منعناه...).

وكما جاء في (ربيع الأبرار) خطب معاوية فقال: (إن الله يقول: (وإنْ من شيءٍ إلاّ عندنا خزائنه، وما ننزله إلاّ بقدر معلوم) فعلام تلومونني إذا قصّرت في إعطائكم؟).

فقال الأحنف بن قيس: (إنّا والله ما نلومك على ما في خزائن الله، ولكن ما أنزله لنا من خزائنه، فجعلته أنت في خزائنك، وحلت بيننا وبينه).

هذه صورة الإستغلال التي محقها الإنسان حيث وجدت إنسانيّة، ووجدها الإنسان حيث محقت الإنسانية.

هذا نظام لا يرتضيه إلاّ من طبعت على قلبه غشاوة. هذا نظامه الإقتصادي وفلسفته في الحكم.

وسأقدّم بعضاً من وصاياه لجيوشه والتي انطبعت بسجيّته، وتمثّلت بمبادئه.

فمن قوله لبسر بن أرطاة وقد وجّهه إلى الحجاز مهبط الوحي والتّنزيل، ومنزل الرِّسالة، ومأوى النبوّة.

(سر حتى تمرّ بالمدينة، فاطرد النّاس، وأخف من مررت به، وانهب أموال كل من أصبت له مالا).

ومن وصيّته لسفيان بن عوف وقد أرسله إلى العراق.

(أُقتل من لقيته ممّن ليس على مثل رأيك، وأخرب كل ما تمرّ به من القرى).

هذا معاوية في أُسلوب حياته، وطريقة حكمه، قد ضلَّ وضُلَّ به، لم يؤمن بعروبته، ولم يعتقد بمبدأ.

كان يضرب العرب في بعضهم، ويضربهم بالموالي.

دفع الشعراء إلى هجاء فيما بينهم مقيت سلبهم بذلك شعورهم بالكرامة، فبعث بعضهم وجهة الفرزدق وبعضهم وجهة جرير.

فرّق بين القيسيّة واليمانيّة، بين شمال الجزيرة وجنوبها.

كان يضرب الشِّيعة بالخوارج، والخوارج بالشيعة.

فرّق بين العرب والموالي، وأبعد الموالي وأذاقهم شتّى صنوف الذُّل والحرمان لعلمه بعدم وجود من يلوذون به، وقد قيل إنّه همّ بقتل الموالي والبطش بهم، وقال لهم غير مرّة: إنّكم عجم وعلوج.

وقد قضى على عروبة الشام، فنقل طوائف الزطّ والسيابجة من البصرة الى الشّام.

ونقل إلى الاردن وصور طوائف من الفرس والموالي.

ونقل إلى انطاكية أساورة الموالي بالعراق.

وخلط العرب بالعجم، وهؤلاء بسلالة الشاميين في كل بقعة سميت قديماً باسم البلاد السّورية.

ولم يتخلّص منه حتى بيته الاموي، فكان يأمر سعيد بن العاص بهدم بيت

مروان، ثم يأمر مروان بهدم بيت سعيد، ويغري أبناء عثمان بالمروانيين، ويغري المروانيين بأبناء عثمان[1].

هكذا كان يسير معاوية في عروبته وقوميّته.

هذه صورة مصغّرة لنفوس أجّجتها البغضاء، وأثارتها المطامع. التمست ما تريد لا ما يلزم. وما أقلّ النفوس المجرّدة للحقّ والخير من ذوي الجاه والسُّلطة، وما أقلّ العباقرة المصلحين، وما أشدّ المجتمع عليهم، وما أبعده عن مستواهم، وما أبغض الخاصّة إليهم.

وفي ختام ما أسلفت في موضوع مناوأة الإمام أذكر كلمة ما أصدقها وما أبعد مداها. فقد ذكرها العلاّمة ابن أبي الحديد المعتزلي ملحقة بنهج البلاغة ضمن ألف كلمة للإمام لم يوردها الشّريفُ الرّضيّ.

فقد قال الإمام حينما قال له قائل: (يا امير المؤمنين أرأيت لو كان رسول الله (ص) ترك ولداً قد بلغ الحلم وأنس منه الرُّشد أكانت العرب تسلّم اليه أمرها؟).

قال (لا بل كانت تقاتله إن لم يفعل ما فعلت. إنَّ العرب كرهت أمر محّمد (ص)، وحسدته على ما آتاه الله من فضله، واستطالت أيامه حتى قذفت زوجته، ونفرت به ناقته، مع عظيم إحسانه إليها وجسيم مننه عندها، وأجمعت مذ كان حيّاً على صرف الأَمر عن أهل بيته بعد موته، ولولا أنّ قريشاً جعلت إسمه ذريعةً إلى الرياسة، وسلّماً إلى العزّ، لما عبدت الله تعالى بعد موته يوماً واحداً، ولارتدّت في حافرتها، وعاد قادحها جزعاً، وباذلها مكبراً، ثم فتح الله عليها الفتوح، فأثرت بعد الفاقة، وتموّلت بعد الجهد والمخمصة، فحسن في عيونها من الإسلام ما كان سمجاً، وثبت في قلوب كثير منها من الدين ما كان مضطربا، وقالت لولا أنّه حقّ لما كان كذا، ثم نسبت تلك الفتوح إلى آراء ولاتها، وحسن تدبير الأُمراء القائمين بها، فتأكد عند النّاس نباهة قومٍ، وخمول آخرين، فكنّا نحن ممّن خمل ذكره، وخبت ناره، وانقطع صوته وصيته، حتى أكل الدهر علينا

---

(١) كتاب معاوية للعقاد لمن يريد التوسع.

وشرب، ومضت السُّنون والأحقاب بما فيها، ومات كثير ممن يعرف، ونشأ كثير ممّن لا يعرف، وما عسى أن يكون الولد لو كان.

إنّ رسول الله (ص) لم يقرِّبني ما تعلمون من القرب للنَّسب واللُحمة، بل للجهاد والنَّصيحة. أفتراه لو كان له ولد هل كان يفعل ما فعلت، وكذلك لم يكن يقرّب ما قرّبت، ثم لم يكن ذلك عند قريش والعرب سبباً للحظوة والمنزلة، بل للحرمان والجفوة. أللهم انك تعلم أني لم أرد الإمرة، ولا علوّ الملك والرياسة، وإنّما أردت القيام بحدودك، والأداء لشرعك، ووضع الامور في مواضعها، وتوفير الحقوق علىأهلها، والمضيّ على منهاج نبيِّك، وإرشاد الضالّ إلى أنوار هدايتك).

علي قتال العرب

يعجب المرء حينما يركن إلى عقله، يمحّص ويدقّق في سلوك المجتمعات في ما سبق ولحق منذ بدء الخليقة، منذ بدء التاريخ حتى حاضرنا هذا، يراها تعيش في خضمّ أحداث جسام، خلقها الإنسان ليستغلّ ويستبدّ، خلقها الإنسان لأخيه الإنسان، وما أرحم الطبيعة، وما أوفر الخير في الأرض.

قوّض بتلك الوجهة المبادىء الأَخلاقيّة، حيث لا أخلاق في تكوين كثير من البشر بل أكثرهم. وما الإنسان إلاّ حسبما يمليه عليه هواه دون أن يكون للحقّ العام أثر في سيرته.

إدّعى الإنسان الأَخلاق وأمر بها دون أن يحمل منها ما يقف دون أطماعه وأهوائه، فهو مولع بالقوّة والبطش، ماثل بالإرهاب والإستعباد.

إدّعى التحرُّر وأمر به، ولكنّه استغلّه لوأْده، إذ آمن به لحبه بالظُّهور به، وفارقه عمليّاً لإشباع هواه. حيث لم تكن الأَخلاق القويمة قد تمركزت لديه، واستحوذت عليه، وآمن بها واستوعبها.

فإذا ما بزغ من عاليَات الكمال والعبقريّة إنسانٌ يحمل للإنسانيّة معالمها، استنفرت نفوس الضلال مظانّها وأوباشها، وتجمّعت رؤوس الباطل بكل طاقاتها، فأهاجت النّاس، وشوَّهت الواقع، وبعثت الريبة، لتقف أمام هذا المصلح موقفاً يديل دولته، ويوقف تيّاره، ويغمط حقّه، ويطفىء نوره، ويبطل زحفه. فلو نظرنا وحوش الفلاة، وعقبان الجوّ، ودوابّ الأرض لما رأينا في نفوسها تلك النزعة

الشّرّيرة التي بها تندفع بهذا الإندفاع إلى بني نوعها كما هو حال الإنسان، وما زال هذا الكائن المسمّى بالإنسان يحيط نفسه بآراء ضالّة ومضلّلة بأنّه أفضل من سواه لاتّساع مدنيّته، ولتفكيره ومنطقه، ولانتصاب قامته، وطلاقة محياه، وحسن تصويره. وما لهذا التفكير والمنطق من جدوى والإنسان يقبع في مشكلاته، ويندفع بكل قواه إلى وحشيّته واستغلاله ونهمه وحرق أعصاب أخيه الأعزل والذي عزله عن كلّ أسباب الحياة الرغيدة. هذا الإنسان الذي يقتل للقتل، يقتل للسّلب.

أتى محمّد (ص) بتلك الشّريعة العظيمة في بلد ما كان يعرف للشّرائع استيعاباً وأخذاً، ولم يدرك للقوانين حبّاً ووصلاً، أتى يرأب صدعاً ويجمع شملاً.

تسلّح بالرأي الصائب، والحجّة الدّامغة، والمنطق السليم، والقوم تستنفرهم البغضاء، وتثيرهم الأطماع، وتأخذهم عبادة الأوثان إلى حيث لا عقيدة ولا مبدأ يليق بهم.

ألقى النبيُّ دعوته فلقيتها أُذنٌ صاغية، وقلوب واعية، ولكنَّهم أقلُّ من القليل في عددٍ يسير، وأوّلهم وأبرزهم ذلك العبقريُّ الطّفل عليُ بن أبي طالب.

لم يبدأ محمَّد قومه بحرب، ولم يشهر سلاحاً. فمالهم وماله؟

كلٌّ له رأيه ومعتقده (قل يا أيّها الكافرون لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابدٌ ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولي دين).

لم يرتضوه على حقّ طلبه، وصدق أخذه، وعدل شرعه، فحملوه حربا كان بغنى عنها وكانوا كذلك.

لم يقتنعوا برسالته، ولو التمسوا عقولهم لاقتنعوا، ولم يتركوه وشأنه، بل التمسوا قوّتهم، وما أخطأها من وجهة.

أرادته قريش لضلالها، وأرادها لخيرها.

تألّبوا على قتله وهو بين جدران بيته، فخرج مولياً شطر المدينة، دافعاً عن نفسه قتلا محقّقاً.

فلا أحسب أن أحداً يقرُّ الرسول على الخنوع لقريش، وتركه الدَّعوة الإسلاميّة، والناس أحرار في ما يرون.

وصل الرَّسول المدينة، وبها ابتدأ عصر الهجرة، وما ألطف المدينة بهذه الدَّعوة، والنّاس قد سمعوا بها وأحبّوها.

فلم تتركه قريش وشأنه في منزله الجديد، بل ازمعت على إخضاعه والوقوف سدّاً أمام زحف مبادئه وآرائه.

لحقوه بعدّتهم وعديدهم، فقام مدافعاً ذاباً عن نفسه وحريّته، وحريّة أتباعه ومريديه.

كانت المصادفات المواتية تواكب الرَّسول في إبان دعوته بثراء وسخاء خديجة، وحماية عمّه أبي طالب، ووجود عليّ بن أبي طالب المعجز بقوّة الجسم، وشدّة البأس، مع إخلاص للدَّعوة، وتفانٍ لا نظير له.

في عهد الرسول:

لم يلتمس عليٌّ من حكمته وعقله ما التمسه من قوَّته وشجاعته في عهد الرَّسول، لأنَّ الأمر الأول موكول بمن هو أقدر منه ألا إنّه الرّسول، وما عليٌّ إلاّ اليد الضاربة، والجنديُّ الشُّجاع، المؤمن بقائده كل الإيمان.

ونظراً لأنّ الحرب آنذاك لا تتعدّى النِّزال، ومقارعة السُّيوف، والمراوغة والخدعة، وحسن التصرّف، فلقوّة الفرد وشجاعته أبعد الأثر، وقد امتاز الإمام بقوّة خارقة، وشجاعة منقطعة النظير.

خرج النبيّ وأبقى عليّاً في فراشه يوهم القوم وأوصاه بحفظ ذمَّته، وأداء أمانته، وأنْ لا يبرح مكّة حتى يراسله ويأمره بالمسير اليه.

خروجه بالفاطميّات:

خرج عليٌّ بالفواطم يريد المدينة حسبما أمره الرّسول، فأدركه ثمانية فرسان ملثّمون معهم (جناح) مولى لحرب بن أُميّة.

خاطبه الثمانية: ظننت أنّك يا غدّار ناج بالنسوة، إرجع لا أبا لك.

ولّما رأى وجهة محادثتهم أدرك أنّه لا بدّ والنّزال حكماً، فسلّ سيفه مدافعاً، والدِّفاع عن النَّفس لازم.

توجّه الفرسان الثمانية نحوه، وأهوى جناح بسيفه على عليّ فراغ منه، ثم عاجله بضربة علويّة على عاتقه، قدّته نصفين، ولما رأى الباقون ذلك لاذوا بالفرار.

كان عليٌّ قد قارب العشرين من عمره، ولأوّل مرّة يمارس الحرب، ويقارع الفرسان.

ثُم قاد الفواطم يتابع الهجرة للِّحاق بالنّبي.

فهل يلام عليٌّ على قتله هذا الأَعرابي؟.

وقعة بدر:

طلب المشركون محمّداً بتسع مئة وخمسين (أو عشرين) مقاتلاً، ووقف المسلمون بثلاث مئة وثلاث عشر رجلاً. وقد ذكر ابن الأثير أنّ لواءه كان بيد عليّ بن أبي طالب. وقد نقل الرُّواة على اختلافهم أنّ قتلى عليّ من المشركين يوم بدر خمسة وثلاثون عدا من اشترك في قتله. وكان أولئك أشجع المحاربين، وأشدَّهم بأسا. منهم الوليد بن عتبة والعاص وطعيمة ونوفل واضرابهم، وهم نصف عدد المقتولين.

فهل من الحكمة أنْ لا يقف عليّ موقفه هذا؟

وهل من الإسلام بشيء من يواخذ علياً على قتله هؤلاء الأوباش المهاجمين للنبيّ في هجرته؟.

هذه وقعة بدر الكبرى التي قرّرت مصير الإسلام، وهذا بلاء (قتال العرب فيها). وما زال المسلمون يبتهجون بهذا اليوم ويطلقون اللسان في إقامة شعائره، وما فائدة هذه الشعائر اذا غُمط فيها حق بطلها، وسيّد معامعها.

وقعة أُحد:

إجتمع المشركون وقرّروا الأخذ بثأر قتلاهم في بدر، فأقبلوا بثلاثة آلاف من المقاتلين بقيادة أبي سفيان.

خرج النبيُّ اليهم بألف من أصحابه.

دارت الدائرة على المشركين، ولمّا شعر المسلمون بتغلُّبهم، إلتمسوا الغنم، فتركوا مواقعهم. إستغلّ المشركون ذلك، فأخذوا المسلمين من حيث لا يعلمون، ونالوا منهم، فولّى المسلمون الدّبر ناكصين على أعقابهم إلاّ عليّ بن أبي طالب بقي يقارع وينازل ويدفع عن الرَّسول، ولم يبق حول الرَّسول إلاّ أبو دجانة وسهل بن حنيف.

وذكر الطبري وغيره فرار عثمان بن عفّان ومعه رجلان فبلغوا الجعلب جبلا بناحية المدينة فأقاموا به ثلاثة أيّام.

وذكر الطبري أنّ علياً قتل أصحاب الرَّاية جميعهم، وهم ثمانية أبطال من بني عبد الدار وتاسعهم عبدهم.

قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، إنّ جميع من قتل من المشركين يوم أُحد ثمانية وعشرون قتل عليّ منهم اثني عشر.

وإنّ ما اتفق عليه وما اختلف فيه واحد وعشرون من أصل ثمانية وعشرين قتيلا قتلهم الإمام عليّ.

فكان الأجدر بالإمام ليرضي بعض المتقوّلين أن يهرب مع باقي الصّحابة،

ويترك محمداً طعمة لسيوف المشركين حتى لا يقال عنه قتّال العرب. ولكن من أين لهم تلك العروش والخلافات والإنبساط بالتاريخ، والشُّموخ بالذِّكر الباذخ، لو كان عليّ قد هرب معهم.

وهكذا وما زلنا نأخذ بعليٍّ جانباً إذا التمسنا لأطفالنا تاريخ الإسلام العظيم، وتاريخ العروبة الخالد. وإنّ هذا التاريخ لهو وليد دحر الإمام للباطل، وثمرة جهده في تحقيق هذه الثّورة العظيمة.

هذه وقعة أُحد، وهذا يومُ المهراسِ[1]، وهذا قتّال العرب.

---

(١) ط ٢ ص ٢٢ المناقب للخوارزمي الحنفي ذكر بسند متصل: قال لعلي (ع) أربع خصال، هو أول عربي وعجمي صلى مع النبي (ص)، وهو الذي كان لواؤه معه في كل زحف، وهو الذي صبر معه يوم المهراس أي يوم أُحد انهزم الناس كلهم غيره، وهو الذي غسله وادخله قبره.

غزوة بني النضير:

وأمّا في هذه الغزوة فقد تجرّأ (عزور) اليهودي على رمي خيمة النبيّ وكان معه تسعة، فكمن لهم عليّ، وقتل عزوراً، وهرب الباقون، فرجع عليٌّ للرسول وتبعهم بتسعة فقضى عليهم جميعاً، وبذلك وضع حداً لتحدِّيهم.

غزوة بني المصطلق:

وأمّا في هذه الغزوة فقد دعا رئيسهم الحارث بن أبي ضرّار قومه وغيرهم لحرب النّبي (ص) فكان عدد قتلى المشركين عشرة قتل عليٌّ منهم رجلين.

وقعة الخندق:

تجمهرت قريش ومن تبعهم من العرب بعدد قدره عشرة آلاف محارب سُمُّوا بالأَحزاب بقيادة أبي سفيان يريدون المدينة للقضاء على محمّد والمسلمين.

أمر النبي بحفر الخندق حسب مشورة سلمان الفارسيّ، وعسكر بثلاثة آلاف عند سفح جبل (سلع)، والخندق بينه وبين القوم.

نقض اليهود عهدهم للرَّسول، وما أشدّ وقعهم في مثل هذه الحال، اذ كانوا فوق المسلمين، والمشركون أسفل منهم، فاشتدّ الهلع بأصحاب الرَّسول، وبلغت القلوب الحناجر.

ولم يكن الخندق بدافع المشركين اذا نقض اليهود عهدهم، وتركوا المشركين يهاجمون عن طريقهم. ولكن حدث ما هو أدهى وأمر، اذ جاء فوارس من قريش، من ذوي القوّة والبأس، يتقدُّمهم بطل الجزيرة العربيّة المشهور عمرو بن عبد ودّ، ولمّا قاربوا الخندق صاروا الى مكان ضيق قد أغفله المسلمون، فحفزوا خيولهم حتى عبرته، ثم نادوا المسلمين للمبارزة، فلم يجب إلاّ الإمام عليّ.

وكما جاء عن ابن هشام والطّبري وغيرهما أنّه خرج عليٌّ في نفر من المسلمين ينشدون عمرو بن عبد ود ورهطه، وقد تخلّف من كان مع عليٍّ وتقدّم وحده.

جرى للإمام حديثٌ مع عمرو لإلقاء الحجّة، وإيفاء الإدانة. وعلى أثر ذلك تبارزا فقتل عليٌّ عمرو بن عبد ودّ وابنه. وعند مشاهدة بقية الفرسان ذلك ولّوا هاربين.

وقد اتفق المؤرخون، أنّ علياً بتقدمُه هذا أخذ على المشركين ارتياد هذا المنطلق، وهو المكان الضيِّق من الخندق، ورابط عنده، وأزمع أنْ يقضي على كلِّ من تسوِّل له نفسه العبور، ولولا هذه البادرة العظيمة لاقتحم المشركون المدينة بهذا العدد الكبير، والعدَّة الموفورة، ولساندهم اليهود (بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قُريظة) ولكان القضاء على المسلمين في عقر دارهم أمراً مفروغاً منه.

هذا قتّال العرب وهذا بلاؤه.

وقعة خيبر:

خرج الرَّسول بألفٍ وأربع مئة يريد يهود خيبر لأنّهم ظاهروا غطفان على الرَّسول، فأعطى لواءه الى أبي بكر ليتقدَّم الى حصن خيبر، فرجع دون فتح، ثم أعطى اللواء الى عمر، فرجع كذلك دون فتح، ثم أعطى الراية علياً، ولما قارب الحصن خرج اليه أهله يتقدُّمهم حارث أخ مرحب، وكان شجاعاً مقداماً، فقتله عليٌّ وانهزم أنصاره إلى الحصن. فلمّا رأى مرحب ما حلّ بأخيه خرج مغضباً، وقد أخذ للحرب عدَّته، وللنِّزال لامته. فقد لبس درعين، وتقلّد بسيفين، واعتّم بعمامتين، ولبس فوقها مغفراً وحجراً.

خرج لعلي بهذه العدة، فالتمسه أبو الحسن بضربة قدت الترس والمغفر والحجر، وأتت على رأسه حتى أسنانه.

ثم اقتحم الحصن فضربه يهوديّ على ترسه فوقع منه، فتناول باباً كانت عند الحصن فاتخذها ترساً، وبقيت بيده حتى إتمام فتح الحصن.

إتّفق المؤرِّخون أنّ راية النبّي كانت مع عليّ في كل حروبه، ورافق النبيّ في جميعها، ولم يرجع أبداً دون فتح، ولم يذكر المؤرِّخون بلاء لمسلم كما لعليّ.

بعد النبي (ص):

رأى الإمام ورود الإجتهاد في النّص والحديث[1] وكانت وجهة الحكم وجهة سياسيّة لم يكن فيها تقييد كامل في الشّريعة. ونحن ندرك أنّ الحكومة المبدئية يلزمها التقيّد بما أتت لأجله، وما أتت به، فلا يجوز تخطّي العقيدة والمبدأ.

سار الحكم في ولاة مقيّدين بالخليفة ورضاه ولو جانبوا الشّريعة، وابتعدوا عن روح الإسلام.

كان الوالي يترّسم خطى هواه وإرادة الخليفة. فقد ذهب يزيد وأخوه معاوية بالشّام وحمص إلى مذهب لا يتفق وروح الإسلام، إلى ملك عضوض من قصور شامخة، وفرش باذخة، وزرابي مبثوثة، ونمارق مصفوفة، ومظاهر خلاّبة لم يعهدها كسرى ولا قيصر.

وذهب سلمان الفارسي وحذيفة اليمانّي الى المدائن، موطن فارس وعرش كسرى، ولكنهما ذهبا مذهباً يتمشّى وروح الإسلام، وسيرة الرَّسول وعليّ. فلم يؤثرا السّلطان على العقيدة، ولم تأخذهم أُبهة الملك عن التجرّد والإخلاص.

لم يفتح المسلمون هذا العالم الواسع إلاّ بالعقيدة، والعدل والحقّ، فإذا تشبّع الوالي بروح قيصريّة فقد خرج عن حظيرة الإسلام. وعلى الرّعية أنْ تقتدي به اختياراً أم جبراً، وحينئذ لا يعدو أن يكون الإسلام آلة لتغيير السّلطة من يدٍ

---

(١) ج ٦ كتاب الغدير للاميني تحت عنوان (نوادر الاثر).

فارسيّة وقيصريّة الى يد عربيّة، ويبقى الكادح على وضعه في بؤسه ونكده. والإسلام لم يأت للعرب بل للبشريّة قاطبة، وكاد بنو أميّة يعصفون به لولا فداء الأَبطال من الشُّهداء وعلى رأسهم الحسين.

استغل معاوية الشّام لأهله وذويه بمرأى ومسمع من الخلافة.

وذهب سلمان وحذيفة بالمدائن مذهباً إسلامياً عقيدياً، وقد أقرّت الخلافة كلا الحالين، وهذه سياسة الملك والسُّلطان، لا سياسة العقيدة والمبدأ، وهذا ما فتح في الإسلام ثغرات هشمته عقيديّاً، وأخرته مبدئياً، وفرّقته مذاهب وأحزاباً.

هذا معاوية أشدُّ من ناصب الإمام العداء.

وهذا سلمان وحذيفة، من أشد مشايعي الإمام ومواليه.

إبتدأت الأُمور تبتعد عن بني هاشم، وتنهج نهج بني أُميّة ومن لفّ لفّهم. حتى تفاقم الخطر، وأطبق الاخطبوط الامويّ على فريسته، على الإسلام والعرب.

كان العهد الأُموي عهداً أمسى فيه الفتح، وما أفاءَ الله به على المسلمين، وفي يد طغمة خاصّة، ذات نزعة ضيّقة، تؤمن بحق الخليفة المطلق، وبارادة الحكم المفرد، وذلك يناقض الشّريعة والعقل.

وعليّ يرى ويسمع عن كثب كل تلك الأَحداث، وهو المفكّر العقيديّ الأكبر لهذا الدِّين الحنيف، والمرجع الأَوحد لفلسفة هذه الثورة العظيمة.

علي في عهد عثمان:

رأى المسلمون في عهد عثمان العجب. فهو لا يعقد عهداً إلاّ نقضه، ولا يمنح رفداً حتى يمنعه، كما ذكر ذلك المؤرّخ الكبير الواقدي.

كثر القول فيه، والطعن في حكمه، حتى توافد النّاس من أرجاء العالم الإسلاميّ تريده للعدل، ولإقرار الشّريعة بين الرعيّة.

خرج ألفان من مصر وكان هواهم في عليّ.

وخرج ألفان من الكوفة وهواهم في الزُّبير.

وخرج قسم من أهل البصرة (لم يذكر عددهم) وهواهم في طلحة.

وقد ذكر الطَّبريّ أنّه لمّا علم بأمرهم عثمان ذهب إلى عليّ في بيته مستنجداً أنْ يردّ أهل مصر.

فقال علي: (على أي شيء أردَّهم؟).
قال: (على أن أصير الى ما أشرت ورأيته لي).

فقال عليّ: (إنّي قد كلّمتك مرة بعد اخرى فكل ذلك تخرج وتقول وتعد ثم ترجع. وهذا من فعل مروان ومعاوية وابن عامر وعبد الله بن سعد فإنّك أطعتهم وعصيتني).

فقال عثمان: (إني أعصيهم واطيعك).

فأمر عليٌّ الناس ان يركبوا معه، فسايره ثلاثون من المهاجرين والأنصار، فأتوا

المصريين، وكلّموهم، وكان يكلِّمهم عليّ ومحمّد بن سلمة، فسمعوا وأطاعوا.

رجع عليّ إلى عثمان وأشار عليه بأن يسمع النّاس خيراً قائلاً له: (إذا كنت قد دفعت عنك المصريين فقد يأتيك غيرهم).

خرج عثمان وخطب الناس مؤمّلهم بقضاء حوائجهم، ومبشِّرهم بتنحية مروان وذويه.

دخل عثمان بيته فوجد مروان وسعداً ونفراً من بني أُميّة. فكلّموه في ما يصلح لهم على حساب المسلمين عامّة، فأثاروا فيه نخوة جاهليّة رعناء، فنقض عهده لعليّ وللنّاس، وطلب من مروان الخروج لذوي الحاجات، والذين اجتمعوا في باب عثمان ليكلِّمهم.

فخرج اليهم مروان مخاطباً.

(ما شأنكم قد اجتمعتم كأنّكم جئتم لنهب شاهت الوجوه. أتريدون ان تنزعوا ملكنا من أيدينا اعزبوا عنّا...) ثم استرسل في التّهديد والوعيد، وفي السّباب المقذع.

ومما زاد الأمر سوءاً، والوضع خطراً - حسبما ذكر ذلك المؤرِّخون جميعهم ومنهم الواقديّ والطّبري والمدائنيّ - ما ملخّصه: أن عثمان لمّا استنجد بعليّ لإقناع المصريّين بالرّجوع أطاعوه ورجعوا، وبينما هم في طريقهم كشفوا مصادفة مع غلام لعثمان كتاباً يطلب من واليه عبد الله بن سعد بن أبي سرح أنْ ينكّل بقادة القوم، وأنْ يقتل بعضهم، وعلى هذه الصحيفة توقيع عثمان. رجع المصريون بعد ثلاثة أيّام لعليّ وبيدهم هذه الحجّة الدامغة.

كلّموا عثمانَ فأنكر، ولمّا أطلعوه، قال هذا من عمل مروان.

فأجابه المصريّون: (أيجتري عليك، ويبعث غلامك على جمل من إبل الصّدقة. وينقش على خاتمك، ويبعث إلى عاملك بهذه الأُمور الفظيعة وأنت لا تدري).

فقال: (نعم).

فقالوا: (إنْ كنت كاذباً فقد استحققت الخلع لما أمرت به بغير حقٍّ. وإن كنت صادقاً استحققت الخلع لضعفك).

فكثر الكلام، وأراد عليّ حسم الوضع فأخرج المصريين.

أحاط المصريون والكوفيّون والبصريون ببيت عثمان ومنعوه الماء، فغضب عليّ وكلّم طلحة بأنْ يصله به. فأبى، فأوصله اليه بنفسه.

ما على المطالبين بدم عثمان من تبعة في قتله:

روى الطّبري: أنّ عمرو بن العاص كان يقول: (والله إنْ كنت لألقى الراعي فاحرضه على عثمان فضلا عن الرؤساء والوجوه).

وروى الطّبري: أنْ أتى عثمان يستنجد عليّاً على طلحة، ولمّا كلّمه قال طلحة: (بعد أن مسّ الحزام الطبين) فانصرف عليّ الى بيت المال فكسر أقفاله، ووزّعه على المتآمرين الذين عند طلحة، فتفرّقوا عنه.

وأمّا أُم المؤمنين عائشة فكان لنداها الوقع المرّ على عثمان، فقد ذكر كثير من المؤرّخين، ومنهم الطّبري أنّ عائشة كانت تأتي الثائرين وتثيرهم بكلمتها المشهورة: (اقتلوا نعثلا فقد كفر) وتقصد عثمان.

وأمّا معاوية فلم ينصر، لا بعدّة ولا بعدد، ولا برأي ولا بحسن سيرة أو بطيب مشورة.

ولم يذكر لنا التاريخ ناصراً لعثمان غير الإمام عليّ. فهذا ما يستدل منه أنَّ الوضع أمسى مطبقاً بسوئه. وما نصرة الإمام إلاّ للإصلاح، وعدم إراقة الدِّماء.

ذهب عثمان حيث أجمع المؤرِّخون أنّه ضحيّة ضعفه، وفساد بطانته.

إقبال الأمّة على علي (ع):

أقبل النّاس على الإمام، والتفّوا حوله، فكانوا كربيضة الغنم، ينشدهم أنْ يتركوه لأنّ الأمر ظاهر آخره من أوّله، وباطنه من ظاهره، ولكنّهم ألحّوا بالطلب، وأثبتوا الحجّة عليه بالنصرة له فأدركه الواجب، وحتّم عليه الشّرع حيث لا محيص من القيام بهذا العبء الثقيل، ولكنّه خطب القوم فأوجز في القول، وأفاض في واقع الحال كما جاء في نهج البلاغة:

(دعوني والتمسوا غيري، فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول. وإنّ الآفاق قد أغامت، والحجّة قد تنكرّت، واعلموا إنْ اجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ الى قول القائل، وعتب العاتب. وإن تركتموني فأنا كأحدكم، ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزيراً خيرٌ لكم منّي أميراً).

هذه كلمة الإمام، وهذه رسالته للأُمة الإسلاميّة، وقد أدرك مغبّة الأَمر، وما عساه أن يعمل، وقد وضع كلَّ ما يملك في سبيل هذه الامة، ولأجل هذه العقيدة، وكيف لابن أبي طالب أن يتنصّل، والامة أولته الحكم، وأودعته حقاً هو له، في ظرف هو ليس له، ولم يفكّر قطّ في ما له أو عليه، وإنّما يفكّر في ما فيه من الخير للعقيدة وللمسلمين.

وقد أدرك أنّ الشام حصن منيع، حصنت به الحكومات السالفة بني أُميّه، وما أشد بني أُميّة عليه وعلى الإسلام.

كاتب معاوية ومّما كتب له:

(إنّه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشّاهد أنْ يختار، ولا للغائب أنْ يرد، وإنّما الشّورى للمهاجرين والأنصار، فإنْ اجتمعوا على رجل وسمّوه إماماً كان ذلك رضاً، فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردّوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاّه الله ما تولّى.

ولعمري - يا معاوية - لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ الناس من دم عثمان، ولتعلمنّ أني كنت في عزلةٍ عنه، إلاّ أنْ تتجنّى ما بدا لك، والسّلام).

لم يلجأ الإمام في حججه هذه بما فضّله الله من سابقة في الإسلام، ولا بما رشّحه اليه النبي، بل تقدَّم بالحجج المنطقيّة ذات الصِّفة التحرريّة في الإنتخابات والتّرشيح على مستوى الحقّ الصَّريح، حيث أنّ المسلمين بمهاجريهم وأنصارهم، وبمن حضر وشهد، وقد بايعوه، وليس له أن يأبى ما ذهبت اليه الامة، وما رآه الناس. ومن يتطاول على الإجماع فعلى المجتمع أنْ يردَّه.

وهكذا يقرع الإمام هؤلاء النّفر بالحجج الدّامغة التي لا محيص عنها لمن اتّبع سبيل العقل والحقّ.

ولم يذكر المؤرِّخون أنّ خصوم الإمام أثبتوا باطلاً عمله فآخذوه به، أو زللاً اقترفه فحاسبوه عليه، بل كل ما في جُعَبهم سهامٌ طائشات أصابوا أنفسهم بها باتِّهام الإمام بدم عثمان الذي لم يلحق أحد من المؤرِّخين هذا الدم به اذا لم يجمعوا على نصرة الإمام له، ودفاعه عنه.

مناقشة الثائرين على الإمام والمطالبين بدم عثمان:

كان الإمام في كل أعماله وأقواله، محكم الحجّة، وافي الدَّليل، يأخذ نتائج الأُمور بمقدّماتها، ويدرك نهايتها بأوّلياتها، وكان على جانب عظيمٍ من القيافة، والدراسة النفسيّة وكأنّه في أقواله قد ظهر على الغيب، وأدرك المستقبل.

أدرك عليٌّ الأَمر، وعرف نفسيّات الأفراد، والسَّاسة المرموقين، ووضع لكلِّ شيءٍ قدره، ولكلِّ حالةٍ لبوسها، وها هو يحكِّم القول فيهم، ويردُّ كيدهم إلى صدورهم.

(ألاّ وإنّ الشّيطان قد ذمر حزبه، واستجلب جلبه، ليعود الجور إلى أوطانه، ويرجع الباطل إلى نصابه، والله ما أنكروا عليّ منكراً، ولا جعلوا بيني وبينهم نصفاً (عدلا)، وإنّهم ليطلبون حقّاً هم تركوه، ودماً هم سفكوه...).

ومن الأُمور المسلَّم بها ولا سيّما في عهد كعهد الإمام المتّسم بالعدالة الإجتماعيّة، وحريّة الرأي والتعبير، أنْ يحتجّ محتجّ على الخليفة بعدم أخذه الأَمر على جدِّيته وممارسته فعليّاً، وإصدار الحكم الصارم على قتله عثمان. اذا ما آمنا أنّه قتل مظلوماً، وأنّ كلَّ ما صدر عنه لا يبرّر قتله. ولكن من يرى هذا الرأي عليه أنْ يدرس الوضع العام، وأنْ يأخذ بنظر الإعتبار ملابسات الأُمور، وحقائق الأَوضاع، ثم يواخذ السُلطة إذا ما فرَّطت في العدل.

وها نحن نبسط الوضع على لسان قطب من أقطاب حركة التمرُّد على الإمام في حالين ثم نطلب من القارىء أنْ يتّخذ ضميره حكماً، ثم ما عساه أنْ يفعل وهو في

وضع كوضع الإمام.

ذكر الطبريُّ المؤرِّخ المشهور وغيره أنّ عائشة (رض) كانت تأتي الثائرين والمحاصرين لبيت عثمان فتقول (اقتلوا نعثلاً فقد كفر) وتقصد عثمانَ.

فهل لعليٍّ أنْ يطالب بدم رجلٍ رأته أُمُّ المؤمنين، وزوج الرَّسول وبنت أبي بكر كافراً وأحلّت دمه، وقد سبق أنْ ذهب مذهبها كثير من المسلمين إن لم يكن جلّهم.

ولو فرضنا أنّه طالب بدم عثمان، وأجرى ما أجرى، ونحن ندرك أنّه من رضي بعمل قومٍ حُشر معهم، فكيف من شارك وأثار وحرّض، فهل لعليّ أن يأتي بعائشة أمام القضاء لهذا الحدث ثم يطلب إدانتها، وإنزال القصاص بها.

هذا وضع أُمّ المؤمنين في عهد عثمان، ونذكر لها وضعاً آخر بعد قتله، اذ أنّها لمّا علمت بخلافة عليّ، وإبعاد طلحة، عمدت الى الحجر فاتخذت منه ستراً، وجعلت من الناس هدفاً، ثم أخذت تسترجع وتندب وترسل الحديث مرسلاً:

(لقد غضبنا لكم من لسان عثمان وسوطه، وعاتبناه حتى أعتب وتاب الى الله وقبل المسلمون منه، ثم ثار به جماعة من الغوغاء والأعراب، فماصوا موص الثّوب الرخيص، حتى قتلوه واستحلُّوا بقتله الدَّم الحرام، في الشَّهر الحرام، في البلد الحرام)(١)

فما يكون موقف الإمام أمام حالين مختلفين، ولو كانت صادقة في ادِّعائها لتركت للإمام الوقت لبسط عدالته دون إلهائه بثورتها المعروفة، وشقّ عصا الطّاعة على خليفة زمانها.

ولو ذهبنا مذهب من يلزم الخليفة بفرض القصاص على قتلة عثمان على أيّ حال، وفي أي وضع لرأينا الإمام أجاد الردّ، وأوضح الحجّة بقوله:

(يا إخوتاه: إنّي لست أجهل ما تعلمون، ولكن كيف لي بقوّة، والقوم المجلبون على حدّ شوكتهم يملكوننا ولا نملكهم، وها هم قد ثارت معهم عبدانكم، والتفت اليهم أعرابكم، وهم خلالكم يسومونكم ما شاؤوا، وهل ترون القدرة على شيء

---

(١) الفتنة الكبرى – لطه حسين ج ٢ ص ٣٠.

تريدونه؟...).

كان الأجدر بعائشة إذا عنيت بالأمر، ورأت الرِّجال قد أخذتهم سنة عن شرعهم، وغفوةٌ عن واجبهم، أنْ تذهب لترشد وتنصح الغوغاء الذين أحاطوا بعثمان، وتذكِّرهم بتوبته، لا أنْ تثيرهم وتشجِّعهم على قتله.

ولم يذكر المؤرِّخون أنّ عائشة دفعت عن عثمان، وقاومت الثائرين عليه، ولم يذكر المؤرِّخون قطّ أنّ الإمام علياً أثار على عثمان ولم يدفع عنه.

ولم تذهب بنا عائشة إلى طريقة توبته، بعد أن أقرّت بجريمته بلسانه وسوطه، ولم يذكر لنا التاريخ أنّ عائشة استتابت عثمان ثم غيّر من سوطه ولسانه. ولم تذكر هذه التوبة قبل قتل عثمان لكي تدفع عنه القتل، بل حثت الثائرين على قتله وبأشّد ضروب الإثارة وذلك باتهامه بالكفر.

وكان الأجدر بها إذا فرضنا أنّها دعت ولم يسمعها الغوغاء والثائرون، أن تلتمس شعاب المدينة، وتكاتب الأمصار، وتستنجد بأبنائها لإغاثة عثمان، وهي عن كثب من الأحداث، وقد حاصروا عثمانَ وطالبوه أياما وليالي كثيرة بدفع لسانه وسوطه.

وإلاّ فالأجدر بها أخيراً وآخراً أن تلتمس ما التمسته حفصة أمُّ المؤمنين، وبنت عمر بن الخطاب وزوج النبي، وذلك أنّ عائشة اقنعت حفصة بالسير معها لحرب الإمام عليّ، ولكن أخاها عبد الله بن عمر ردّها عن ان تخالف ما أمر الله به نساء النبي بقوله:

(وقرن في بيوتكن ولا تبرّجن تبرُّج الجاهليّة الأولى)(١).

فسمعت حفصة ولم تسمع عائشة، وذهبت تثير أُولئك الذين نعتتهم بالغوغاء، بكل وسيلة على النّيل من عليّ، والقضاء على حكمه الطّاهر.

كانت تراسل الأمصار، وتثير الغوغاء برسائلها الملتهبة ناراً وفتنةً، وكانت تستهلها بالعبارة التالية:

(من عائشة ابنة أبي بكر أُم المؤمنين، حبيبة رسول الله (ص) الى ابنها

---

(١) الفتنة الكبرى ج ٢ ص ٣٢ للدكتور طه حسين.

الخالص فلان...).

(أمّا بعد: فإنْ أتاك كتابي هذا فأقدم فانصرنا، فإنْ لم تفعل فخذل الناس عن عليّ).

وكانت تردها الرسائل بالحجج الدامغة إلا من غررت به وغرر به بنو أُميّة، وأقطاب الإستغلال، وروّاد الضّلالة، من كلِّ حدبٍ وصوب، ومن كلِّ جاهل أو منافق.

ومن تلك الرَّسائل: (رحم الله أُمّ المؤمنين، أُمرت ان تلتزم بيتها، وامرنا أنْ نقاتل، فتركت ما أُمرت به وأمرتنا به، وصنعت ما أُمرنا به، ونهتنا عنه).

ومن مجيب (أمّا بعد: فأنا ابنك الخالص إن اعتزلت ورجعت إلى بيتك وإلاّ فأنا أوّل من ينابذك)[1].

وآنذاك اضطر عليّ لهذه الفتنة الرَّعناء أن يتحوّل من قتال معاوية ورهطه ليردّ هؤلاء عن غيِّهم.

ولكن عائشة لم تثر هذه الشّدائد لمعاوية، والذي ضرب بعرض الحائط عثمان ودمه، فلم يقتصّ، ولم يثأر إلاّ من أقطاب الإسلام، ولم تقتصّ ولم تتأثر هي بدورها، ولم تتقدّم حتى بطلب بسيط أو بكتابٍ الى السُّلطة الحاكمة حول ذلك كما كانت ترسل كتبها للانتقاض على عليّ.

وأما ما ذهب اليه طلحة والزُّبير في مطالبة عليّ بدم عثمان فقد اوجز عليّ القول فيه وأفاض في القصد كما جاء في النهج:

(والله ما أنكروا عليّ منكراً، ولا جعلوا بيني وبينهم نصفاً، (أي انصافاً) وإنّهم ليطلبون حقاً هم تركوه ودماً هم سفكوه...).

ثم يكلّمهما على عتبهما له، وإرجافهما النّاس عليه.

(لقد نقمتما يسيراً - أي غضبتما على يسير - وارجأتما كثيراً - أخّرتما كثيراً - ألا تخبراني أيُّ شيءٍ لكما فيه حقٌّ دفعتكما عنه، وأيّ قسمٍ استأثرت

---

(١) بطلة كربلاء - للدكتورة عائشة بنت الشاطىء.

عليكما به؟.

أم أيٌّ حقٍّ رفعه اليّ أحد من المسلمين ضعفت عنه أم جهلته أم أخطأت بابه. والله ما كانت لي في الخلافة رغبة، ولا في الولاية إربه، ولكنّكم دعوتموني إليها وحملتموني عليها...).

ولكنّك يا عليّ تحكي وتعمل بشعور كل الطيبين ذوي النزعة الإنسانيّة الذين جعلوا الخير رائدهم والحقّ هدفهم.

ولكن أولئك أملهم أن يأخذوا النّاس الى حيث يملكون، فيحكمون ويستبدُّون ويستغلّون.

هكذا انصرم الماضي بالتستّر على الباطل والقيام بمؤازرته بما اتّسمت به الحكومات الفرديّة ذات نزعة التسلّط ولكن فجر القرن العشرين قد انبلج بأنواره الوضّاءة وبعيوبه الفاحصة، يدقّق ويمحّص حتى يجلي الحقيقة واضحة، ولا أخال الامة العربيّة يوصلها الزحف بماضيها إذا لم تتشبّت من تاريخها ثم ترسيه على قيمه وحقائقه.

فإنّ لنا من تراثنا ما لا تزيله الحقوب، ولا تصرمه الأزمان، من إنسانيّات رفيعة، ومواهب عظيمة، وتضحية فريدة. وأنْ نعطي كلاً حسب قدره، وحسب ما أوفى أُمته به.

حرب الجمل:

تجلّلت منَ القدر بهذه المعجزة الإنسانيّة الفريدة المتمثّلة بهذا الإنسان الفذّ ليعطي للبشرية معالمها الإنسانيّة الخيّرة، وعوالمها العقيديّة، فأتته الامة طائعة مُعطية، راضيةً مرضيةً، فاستثار روّاد الإستغلال والإستعباد، وأثاروا أوباشهم ومواليهم فكانت هذه أوليات الشّرر وابتداء الشّر، ولكنّ الإمام أراد أن يدفع بالتي هي أحسن، وأن يدين بالحجج القاطعة، فراسلهم ولكنّ القوم قد ذهبت بهم مصالحهم إلى أمرٍ عظيم، وخطب جلل.

كاتب طلحة والزبير وهذا نصّ ما كتب:

(أمّا بعد: فقد علمتما أنّي لم أرد النّاس حتى أرادوني، ولم أُبايعهم حتى أكرهوني. وأنتما ممّن أراد بيعتي ونكثتما وبايعتما، ولم تبايعا لسلطانٍ غاصب، ولا لعرض حاضر، فإنْ كنتما بايعتماني طائعين فتوبا إلى الله وارجعا عمّا أنتما عليه، وإن كنتما بايعتما مكرهين فقد جعلتما لي السّبيل عليكما بإظهاركما لي الطّاعة وكتمانكما المعصية. وأنت يا زبير فارس قريش وأنت يا طلحة شيخ المهاجرين ودفعكما هذا الأمر قبل أن تدخلا فيه كان أوسع لكما من خروجكما بعد إقراركما، وقد عرفتما منزلتي من رسول الله (ص)[1]).

وكتب الى عائشة:

(أمّا بعد: فإنك قد خرجت من بيتك عاصيةً لله ولرسول الله

(١) ط ٢ ص ١١٦ - ١١٧ المناقب للخوارزمي الحنفي.

محمّد (ص). أتطلبين أمراً كان عنك موضوعاً، وتزعمين أنك تريدين الإصلاح بين المسلمين، فخبرينا ما للنساء وقود العساكر والإصلاح بين الناس، وطلبت كما زعمت بدم عثمان، وعثمان رجل من بني أُميّة وأنت امرأة من بني تيم بن مرّة، ولقد كنت تقولين بالأمس اقتلوا نعثلاً قتل الله نعثلاً فقد كفر، ولعمري إن الذي عرّضك للبلاء وحملك على المعصية لأعظم إليك ذنباً من قتلة عثمان، وما غضبت حتى اغضبت، ولا هجت حتى تهيّجت، فاتق الله يا عائشة وارجعي إلى منزلك، واسبلي عليك سترك والسّلام)[1].

هكذا كاتبهم، وبهذا الحقّ الصّريح أدانهم، وقد وصفهم على ما هم عليه، ونعتهم بما هم فيه بقوله.

قال الإمام (بليت في حرب الجمل بأشدّ الخلق شجاعة، وأكثر الخلق ثروةً وبذلا، وأعظم الخلق في الخلق طاعة، وأوفى الخلق كيداً وتكبّراً، بليت بالزبير لم يرد وجهه قطّ، وبيعلى بن امية يحمل المال على الإبل الكثيرة، ويعطي كلّ رجل ثلاثين ديناراً وفرساً على ان يقاتلني، وبعائشة ما قالت قطُّ بيدها هكذا إلاّ واتّبعها النّاس، وبطلحة لا يدرك غوره ولا يطال مكره)[2].

ذهب طلحة والزُّبير وبصحبتهما عائشة الى البصرة حيث نقضا البيعة، وأثارا الفتنة، ولم يصحبا معهما زوجاً أو اختاً ولكنّهما اخترقا حرمة الرَّسول بإخراج زوجه معهما، وزجّها في أمرٍ ليس لها.

تقابلت الصُّفوف، وتطاير الشّرر، وبلغت القلوب الحناجر، وذهبت أسباب الصُّلح تذروها الرِّياح، واشتدَّت أسباب الفتنة والحرب.

ابتدأ جمع الجمل برشق النِّبال حتى أصابوا جماعة من جيش الإمام، ثم اشتدوا برشق السِّهام مما أحفظ جيش الإمام. فطلب عليٌّ فرداً من جيشه، وعليه ان يقوم حراً بما يوكله الإمام به، وانذره بالموت.

أجاب أحد الفتيان الطلب طائعاً.

---

(١) ط ٣ ص ١١٦-١١٧ المناقب للخوارزمي الحنفي.

(٢) عن ألف كلمة - للامام.

دفع الإمام اليه بمصحف، وطلب منه الوقوف بين الصفّين، وأنْ يدعو القوم الى ما فيه (الى كتاب الله) فذهب الفتى وأدّى رسالته على خير وجه، ولكنهم رشقوه بالنِّبال حتى قتلوه، فحق عليهم القول.

وحينذاك التفت الإمام إلى أصحابه وقال (الآن طاب الضِّراب) فكانت وقعة هائجة مائجة، بقتال منكرٍ شديد حتى أتى النَّهار على نهايته فكان النّصر الساحق لعليّ.

كانت حصيلة المعركة أن قتل الزبير غيلة بوادي السِّباع. ولا أخالني بعيداً عن الصواب لو قلت أن قاتل الزبير ممّن رشاهم معاوية للتخلّص منه، وقد سبق أن أشار على عثمان بالقضاء عليه.

وأراش مروان بن الحكم سهماً فرمى به طلحة (وهما على وجهة في الحرب واحدة) قائلا (والله لا طالبت بثأر عثمان بعد اليوم)[1].

وقال لبعض ولده عثمان (لقد كفيتك ثأر أبيك من طلحة).

وكانت الحصيلة المؤلمة لهذه الفتنة سبعة عشر ألف قتيل من أصحاب الجمل، ممّن غرّر بهم هؤلاء النفر عديمو الضّمير والوجدان. وألفاً وسبعين من أصحاب عليّ البررة الذين دافعوا عن حقّ لا مجال للطعن فيه.

ولمّا مر الإمام بطلحة وهو قتيل قال:

(لقد أصبح أبو محمّد بهذا المكان غريباً. أما والله لقد كنت أكره ان تكون قريش قتلى تحت بطون الكواكب...).

وكان آخر نداء لجيشه:

(لا يجهز على جريح، ولا يتبع مول، ولا يطعن في وجه مدبر، ومن ألقى السِّلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن).

هذا قتّال العرب، وما عساه ان يعمل غير ما عمل؟.

وهل يمكنه أنْ يسير على غير هذا المدي؟

وهكذا كان مضطرّاً الى أن يقوم بما قام به.

---

(١) ط ٢ ص ١١٦ المناقب للخوارزمي الحنفي.

حرب صفين:

لم يكد الإمام يطوي فتنة البصرة حتى ابتدأ يلمّ الشّعث لحرب القاسطين، حرب معاوية ومن لفَّ لفَّه.

إبتدأ معاوية منذ ولايته الشّام يتطلّع إلى الملك والسُّلطان بكلِّ وسيلة وصوليّة.

يأخذ اليه كلّ من يراه أهلاً لوجهته السياسيّة، بغض النّظر عن أيّ مستوى دون أن يدور في خلده حقائق الإسلام، والعقيدة المحمديّة. ولنضرب بعض الأَمثال.

إستعمل الإمام على (الريّ) يزيد بن حجبة التميمي، فسرق مالاً كثيراً، ولمّا بلغ الإمام أمره، وأدرك يزيد ذلك، التحق بمعاوية فأكرمه وقرَّبه.

واستعمل الإمام القعقاع على كسكر فسرق مالاً كثيراً والتحق بمعاوية، فأحسن وفادته.

وحدّ عليّ النجاشي في إثم اقترفه كما يحدّ باقي النّاس، ولكنّ النّجاشيّ يرى أنّه فوق الحقّ والقانون، لأَنه من الطبقة الخاصّة، فالتحق بمعاوية فرفعه فوق الحقّ والعدل.

وقد راسل معاوية عمرو بن العاص فاستشار ولديه فأشار عليه عبد الله: (فإنّك إن تفسد دينك بدنيا يسيرة تصيبها مع معاوية فتضجعان غداً في النار).

وأشار عليه محمّد: (بادر بهذا الأمر فكن فيه رأساً قبل أن تكون ذنبا)[1].

ولكنَّ الأمر لا يحتاج إلى مشورة، والعادات قاهرات، ولكلٍّ امرىءٍ من دهره ما تعودا. فلم تكن لعمرو بن العاص سابقة تذكر، أو لاحقة تنظر، بل هو مجبولٌ على طبعه، مطبوعٌ على خلاله، فهو ماديٌّ حيث لا إنسانيّة في ماديّته، صاحب هوى واستغلال، لم يؤمن بالإنسانيّة والسُّنة، ولم يتحمَّل الحقَّ والخير. هو ومعاوية من طينة واحدة، وعلى صعيدٍ واحد، فلا بدّ له أنْ يفارق علياً ويلتحق بمعاوية، وهذه من طبيعة الامور، واذا كان العكس فهو المستغرب.

جمع معاوية أضراب هؤلاء، ومدّ بالمال، والتمس الإغتيال، وتبنّى سياسة المداهنة والغدر، بدون أيّ رادعٍ من ضمير، أو من واجب عقيديّ إسلاميّ.

وليس لعليٍّ عن الحقِّ بديلاً، ولا يريد مجرّد جمع النّاس حوله دون الأخذ بهم الى خيرهم، بل هو يتّبع ويسار إليه وهذا ما تقتضيه المصلحة العامّة.

وعليّ يتبعه الناس لغنمهم، ويقودهم لخيرهم. فلم يؤثر عنه أنْ فكّر في نفسه دون سواه، وفي خيره دون خير النّاس. لم يقرّب لقربى، ولم يؤثر لأثرة، وإنّما كلٌّ حسب مقدرته.

كان معاوية يمثِّل الجاهليّة بأبرز صورها، كان يتملّق فرداً، ويبعد آخراً، ويفتك بثالث حسب منافعه وتثبيت سلطانه.

كان يلحف بالعطاء ويمنع أقله، ويسلب آخرين القليل الذي يسدّون به رمقهم.

كان يخنع لأَقلِّ النّاس، لقوّة يتمتّع بها أو لعشيرةٍ يتمنّع بسطوتها، ولكنّه يأخذ أنبل العرب عنوةً فيرفعهم على المشانق أو يدسّ لهم السمّ كما فعل مع حجر بن عدي الطائيّ وصحبه الكرام لّما أبوا البراءة من الإمام عليّ فقتلهم جميعاً.

كان لا يمتنع عن موبقة، ولا يقف دون ملذّة، ولا يمتنع عن إسراف، يباين في العطاء وفي العدل.

وأمّا عليّ فكان يمثّل المسلم الكامل المتجرِّد لعقيدته ولمبادئه.

كان المسلم الصَّادق في إيمانه وثورته وإنسانيّته.

---

(١) الفتنة الكبرى للدكتور طه حسين.

يحرص على مال المسلمين، ويساوي في العطاء.

لا يخشى في الحقِّ لومة لائم.

متجردّاً للحقِّ والعدل، لا يداهن فيهما قطٌّ.

يكره المكر والكيد والمداهنة، ويحكم بالعقل والمنطق.

زاهداً في عيشه، مندفعاً إلى خير الناس.

التمسه أخوه عقيل أقرب النَّاس اليه، وأشدهم لحمة به في رفع مستواه المعاشي، على حساب الباقين فلم يجبه إلا بالموعظة الحسنة، والناس سواسية في العطاء، والحقّ محمولٌ على سعته.

ثم التمس عقيل معاوية قاصداً الشَّام، فأعطاه من مال المسلمين مئة ألف دينار.

ويح النَّاس. ما أشدّهم على الحقِّ حتى يصفوا معاوية بالدَّهاء والفطنة، وهل من الدَّهاء والفطنة تجنُّب الحقّ، ومسايرة الباطل، وإشباع النفس بأحلام الإستغلال والتهاون بالحقوق العامّة.

إنّما الدَّهاء إرساء الحقِّ حيث الباطل، ورفع المستوى الإنسانيّ حيث وجد الإنحطاط.

إنّما الدَّهاء السّمو بالمعرفة إلى حيث الخير العام، والتمتّع بالإرادة الجبّارة للتجرُّد للحقّ والخير والعدل. وإلاّ فما أكثر المجرمين، وما أكثر حيلهم، وما أشدّهم على النّاس، وما أمنعهم عن القصاص، ولم ينعتهم أحد بالدهاء والمعرفة.

ولو فرضنا أنّ معاوية وطلحة والزبير وأضرابهم قد ركنوا إلى سلمهم دون حربهم، وإلى عدلهم دون ظلمهم، وذهبوا إلى حيث ذهب المسلمون في عليّ، وعليّ حسبما عرفناه وأدركناه، لانبسط وجه التاريخ على غير شاكلته، ولبسط الإمام حكومته الفذّة، وعدالته المطلقة منذ تلك العصور الغابرة، ولطوى الإسلام بقيمه الرفيعة كلَّ الكرة الأرضيّة، ولرفرفت راية الإسلام والعروبة على كل الأَطراف المعمورة. لا تمذهب ولا تحزُّب.

أدرك الإمام أنّ الشرّ قد تجسّم في معاوية، وأصبح رحى الباطل، ووجهة

أهله.

راسل الإمام معاوية كثيراً وأفحمه بالحجج الدامغة إعذاراً لا سعياً لإصلاح من لا يمكن إصلاحه.

جمع عليٌّ أمره وسار في معظم جيوشه بعد أن قدّم طلائعه متجهين صوب صفين، وقد أوصاهم ان لا يبدؤوا بقتال حتى يلحق بهم.

وسار معاوية بجيش لجب يزيد على العشرين والمئة ألفٍ مقاتل، وقد سبق الى صفين فملك المشرعة، ولّما قدم الإمام رأى ذلك فحاول اقناع معاوية بترك الماء مباحاً فأبى. وحينذاك التمس الإمام القوّة فابعدهم عن المشرعة وملكها ثم تركها مباحة لكلّ واردٍ من أصحابه وأعدائه.

قد يأخذ آخذ على الإمام هذه السّياسة وهو في أشد الحاجة الى إقصاء جيش معاوية عن الماء، ولكن عبقرية الإمام ربطت دائما وأبداً بين الخير والعدل والمصلحة، فلم يخالف العدل، ولم يبعد عن المصلحة في كلّ ما أُثر عنه، ولنعرض مسألة الماء على البحث.

فلو فرضنا أنّه عمل بما عمل معاوية، ومنع الماء عن أعدائه، فإنّ ذلك يثير حفائظهم، والعكس يثبطها لأنّهم سيدركون كرامته، وحسن طويته، وصدق إسلامه، وهذا ما لا يقرّهم على حربه، ولا يشجّعهم على قتاله، وأمّا بالنِّسبة الى جيشه فالعكس وارد حيث يرفع من عزائمهم لشعورهم بكرامتهم.

ثم إنّ معاوية قد أشاع بأن عليّاً وصحبه قد منعوا الماء عن عثمان حتى مات عطشان فعليهم ان يطالبوا بثأره، ولكنّهم لمّا أدركوا إباحة الماء فقد بطلت إشاعته وبهتانه إذ لو كان الإمام سبق أن منعه عن عثمان فالأَولى ان يمنعه عن أعدائه في الحرب.

ثم إنّ الإمام لا يهدف إلى الإرتفاع بالملك والسلطان وبالنعرة الجاهليّة بمقدار ما يهدف الى الإرتفاع بالعقيدة والانسانيّة، وهو أمثل مثل لهما فلا يمكنه التفريط في مبدإ رآه وتبنّاه وفاوض عدوَّه في تطبيقه والعمل به، فإذا لم يقرَّه فقد أقرّ معاوية على رأيه، وأقرَّه على حججه وسياسته.

هذا هو الدّهاء حيث يربط العدل بالمصلحة.

ألحّ الإمام في طلب الصُّلح، وحثّ عليه كثيراً، فذهبت مساعيه أدراج الرّياح، وحينذاك رفع بطرفه الى السّماء، وعلى مسمع من جيشه مرسلاً آهات الصّدر، وأحزان القلب على نبرات اللسان، وأنغام الحبّ والحنان.

(اللّهم إنّك تعلم لو أني أعلم أنّ رضاك في أنْ أضع ظبة سيفي في بطني ثم أنحني عليه حتى يخرج من ظهري لفعلت. اللّهمّ إني أعلم ما علمتني، إني لا أعلم صالحاً هذا اليوم هو ارضى من جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلم اليوم عملاً هو أرضى لك منه لفعلت).

ثم قال: (اللهم ربّ هذه الأرض التي جعلتها قراراً للأنام، ومدرجاً للهوام والأنعام، وما لا يحصى ممّا يرى وممّا لا يرى، وربُّ الجبال الرواسي التي جعلتها للأرض أوتاداً، وللخلق اعتماداً، إنْ أظهرتنا على عدوّنا فجنّبنا البغي، وسدّدنا بالحقّ، وإنْ اظهرتهم علينا فارزقنا الشّهادة، واعصمنا من الفتنة).

بلغ المقام في صفّين المئة والعشرة أيام بتسعين وقعة، وكانت وقعة الهرير أشدّها هولاً، وأعظمها بلاء.

بلغ عدد القتلى حدّاً مفجعاً ممّا يساور الإنسان الشكّ في صحّته فقد ذكر بعض الرُّواة أنّه قارب العشرين والمئة ألفٍ. ولّما بان النّصر لعليّ وأصحابه التجأ معاوية بمشورة عمر بن العاص إلى رفع المصاحف، وقد التجأ الى ذلك في ضعفه، وظهور هزيمته، وهذه حال اظهرت كيده وبيّنت زيفه.

وقد نسب كثيرٌ من المؤرّخين رفع المصاحف إلى دهاء عمرو بن العاص، وهذا خطأ ظاهر لأنّ علياً قام بذلك سابقا في وقعة الجمل، وقبل أن يبدأ القتال، وقبل ان تتطاحن النُّفوس، ممّا هو ظاهر البينة بيّن الحجّة، مطابق للعدل.

وقد التمس كعب بن ثور قاضي البصرة هذه الحجّة لّما رأى انتصار جيش الإمام، ولحاق الهزيمة بأهل الجمل فرشقه أصحاب عليّ بالنبال فقضوا عليه وعلى احدوثته ولو كان قد رفعه سابقا لأُخِذ على حسن طويته. فرفع المصاحف من دهاء الإمام، ومن مبتكراته على أنْ يتجنّب الباطل والكيد، وهذا هو الدّهاء المعهود بحسن القصد، وسلامة الضّمير.

ية الشهيد السعيد
د عز الدين بحر العلوم

ولم تكن حجّة رفع المصاحف بالجدية حقاً لأنّ زيفها ظاهر، وقد بيّن ذلك الإمام، وطلب التدبُّر بالأمر، ولكنّ الواقع أنّ في جيش الإمام كثيرا ممّن يتطلّب معاوية ويريده. لانه أهلٌ لإشباع رغائبهم، وتحقيق استغلالهم كالمغيرة وغيره.

وفي جيش الإمام كثيرٌ من المرتزقة والعسس الّذين يمدُّهم معاوية من طرف خفيٍّ.

ثم إنّ الإمام لم يؤمن بالزّعامة غير المبدئية. يؤمن بالحريّة في الرأي والتعبير، والناس ما زالوا على اعتباراتهم القبليّة الجاهليّة التي ما زالت ماثلة حتى يومنا هذا. وإنّ معاوية يباين فيرضي الرؤساء ويأخذهم الى حيث يريد. والإمام على نمطه الإسلاميّ في العدالة حيث يأخذ النّاس على بلائهم وقيمهم وإخلاصهم وحسن طويّتهم.

ثم إنّ الإمام لم يأخذ جيشه إلاّ بما يرتضيه. وقد غرّر معاوية بجيشه ولم يدع له طريقا للتفكير الحرّ، وإدراك الواقع، والتماس الحقيقة.

ثم إنّ الإمام أتى ليبني مُثلا عليا، وعدالةً اجتماعيّة.

أتى ليتبوّأ أرفع المعالم الإنسانيّة، ويدفع بالمجتمع إلى تلك المبادىء والمثل فلا يمكنه أبداً التّفريط في أبسط قواعدها مهما تكن النتائج لأنّها دائمة الإنتاج دائمة الثمر.

وأمّا معاوية ورهطه فليس لهم إلاّ الملك والإستعباد وقد علموا بما أُوتوا من حول وقوّة له، ولم يدر في خاطر الإمام السّير في هذا السبيل والعمل لأجله لانّه زاهد فيه.

وختاماً فإنّ تلك الإنتصارات الرائعة العظيمة للإمام عليّ في كلّ مواقفه لم تكن ببلاء جيشه، بل لقيادته الفذّة، وحسن تدبيره في الحرب. وبلائه الشخصيّ حيث يلوذ به أصحابه ولا يلوذ بجمعهم. وهذا ما انفرد به الإمام منذ أنْ وجد التاريخ وظهر الإنسان في حكم وسلطان.

أجمع المؤرّخون على أنّ علياً قبل التحكيم مكرها وهذا ما ينمُّ عن وجود مؤامرة في جيشه.

وقد أراد عبد الله بن العباس لهذا التحكيم ولكنَّهم أجبروه على اختيار أبي موسى الأشعريّ. وفي النهاية أدركوا ما ذهب اليه. ولات حين مندم.

ثمّ كانت ثالثة الأثافي، وخاتمة المطاف أن انتقض عليه الخوارج فأفحمهم بالحجج الدّامغة التي ذكرها الرُّواة إسهاباً وتفصيلا، فكانت وقعة النهروان، ذهب ضحيّتها ما يقارب الخمسة آلاف من الخوارج مع عددٍ ضئيل من أصحاب الإمام.

هذا عليٌّ، وهكذا شاءت الظُّروف غير المؤاتية أنْ يذهب في هذه الأعاصير الهوج، ولكنّه خلّف لنا من عقله ومدركاته معرفةً وحكمةً خالدة على ممرّ العصور لا ينضب معينها، ولا يجفُّ ينبوعها، ولنا أنْ نقتدي بسيرته، ونسير على هديه.

علينا أنْ نأخذ به إلى مستواه العالميّ، ونحلِّق به على مستواه الأُمميّ. والناس بعظمائها.

وهكذا فقد بارح راحته الجسميّة، ولذّاته الدنيويّة، ولكنّه تسنّم أرفع المعالم البشريّة، والقيم الإنسانيّة، ليكون المقتدى لغيره، لينهج نهجه ويسير سيرته كلُّ مخلصٍ مؤمنٍ بعقيدته وثورته.

ية الشهيد السعيد
عز الدين بحر العلوم
ة الروضة الحيدرية

الفهرس

منه اقتبست وإليه أُهدي.. ٥
المقدمة ٧
المعرفةُ عند الإمام ١٣
بعض الشواهد على معرفته.. ٤٨
الايمان عند الامام.. ٥٧
حكومةُ الإمَام ٧٥
التراث الحضاري الإسلامي ١٢٥
العربي والإمام علي(ع)
عليّ ومفهوم التطوّر ١٥٤
شجاعة الإمام ١٦٢
قوة الإمام الجسمية ١٧٥
تَكامل شخصيتي الرسول والإمام................................ ١٨١
عليّ والعامة من الناس ١٨٩
عليّ والخلفاء ١٩٩
علي ومناوءوه.. ٢١٩
علي قتال العربُ ٢٤٥

هدية الشهيد السعيد
السيد عز الدين بحر العلوم
لمكتبة الروضة الحيدرية

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٢١٥٦٦
التاريخ ١٣/٩/٢٠١٦